د. محمد عبد العليم مرسي

الثقافة.. والغزو الثقافي في دول الخليج العربية

نظرة إسلامية



مكتبة العبيكان

الثقافة والغزو الثقافي
في
دول الخليج العربية

نظرة إسلامية

تأليف

د. محمد عبد العليم مرسي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ح مكتبة العبيكـان، ١٤١٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

مرسي، محمد عبد العليم

الثقافة والغزو الثقافي في دول الخليج العربية: نظرة إسلامية.

... ص؛ ... سم

ردمك ٣-١٣٣-٢٠-٩٩٦٠

١ ـ الغزو الفكري ٢ ـ الثقافة الإسلامية أ ـ العنوان

ديوي ٢١٩,٩ ١٥/٢٥٣١

ردمك ٣-١٣٣-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٥/٢٥٣١

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ/١٩٩٥م

النـاشـر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

محتويات الدراسة

مقدمة

الثقافة... والخليج... والغزو الثقافي... موضوعات شائقة.. شائكة في الوقت نفسه..!! الكتابات فيها كثيرة ومتنوعة، بعضها يغلب عليه الحماس الذي يفقده موضوعيته، والبعض الآخر سطحي تمتلئ به أعمدة الصحف، ويطرق أسماعنا عبر الأثير، وقليلة هي الدراسات المتعمقة التي يجهد فيها أصحابها أنفسهم قراءة.. وبحثا.. واطلاعا.. وتنقيبا.

منذ نحو أربع سنوات كان الخليج على كل لسان، وفي كل أذن، وتحت كل بصر، وكان الإعلام العالمي بقضه وقضيضه هنا، على أرض الخليج، وحول تلك الأرض، آلاف المراسلين والمصورين والمعلقين والمحللين يرسلون كل يوم، بل كل ساعة ولحظة أخبار أهل الخليج من منعطفهم الخطير الذي قادهم إليه واحد يفترض أنه من بينهم.

كان صدام حسين قد أقدم على فعلته النكراء.. غزو الكويت.. فأثار فزع الجميع.. خليجيين وعربا.. ومسلمين، لخوفهم على إخوان لهم في الدين والعروبة، وقد هزتهم من الأعماق أنباء لا يكاد يصدقها عقل.. من قتل.. إلى سجن.. ومن اغتصاب.. إلى نهب.. ومن سرقة إلى تعذيب.. إلى آخر سلسلة اللاإنسانيات المفزعة المعروفة.

كما خشيت طائفة منهم أن تنساح القوات البعثية في الأراضي السعودية، وكانت نذر ذلك ظاهرة للعيان على شكل آلاف الدبابات والصواريخ التي حركها النظام البعثي المجنون بامتداد الحدود العراقيةالسعودية.

وللمملكة العربية السعودية وضع خاص في نفوس المسلمين باتساع العالم لاحتضانها ثاني القبلتين حيث المسجد الحرام في مكة المكرمة، وثاني الحرمين الشريفين، حيث مسجد الرسول ﷺ، وحيث عناية آل سعود بهما محل تقدير كل مسلم غيور. فكان صدمة للمشاعر أن يتعرض لأمن ذلك البلد معتدٍ غشيم.

كما أن هناك قوى عالمية أخرى فزعت لما جرى، ولكن لأسباب أخرى... لأسباب مادية بحتة تمثلت في الحرص على البترول، ذلك الذهب الأسود الذي يدير مصانعهم والمزارع، ويحرك جيوشهم والأساطيل، ويحيل ثلوج شتائهم دفئا، وحرارة صيفهم برداً ولطفاً، كما أنه مسؤول - وخصوصًا حين تنخفض أسعاره - عن انتعاش اقتصادهم، ورواج تجارتهم، وهو متهم بغير ذلك حين يرفع أصحابه سعره، وحين يحاولون الحصول على بعض حقوقهم.

يضاف إلى ذلك، من وجهة نظر صناع الاستراتيجية العالمية وراسمي سياستها أن بادرة ظهور قوة محلية تهدد الأصغر منها والأضعف أمر مرفوض في عصر الأمم المتحدة، والنظام الدولي الجديد الذي يحتكر القوة لنفسه ويرفض أن يشاركه فيها غيره.

ثم إن المنطقة - كلها - بما فيها من آبار النفط، وبما تطل عليه من ممرات مائية دولية، وبما تتحكم فيه من طرق للتجارة حساسة بالنسبة لكثيرين، كان هذا هو وضعها عبر قرون الزمان، وهو لا يزال كذلك حتى وقتنا الراهن، وسيظل كذلك لفترات طويلة من الزمان قادمة، ما دام هناك مناطق للمواد الخام.. في جهة، ومناطق أخرى للتصنيع، وشركات عملاقة - عبر قارية - للتجارة والاحتكار، في جهة أخرى، والثروات تصب من عرق الفقراء الكادحين في جيوب الأثرياء المتخمين!!

وأهل الخليج أنفسهم، بامتداد شطآن الخليج ومن حوله، مجتمع واحد يكاد يتماثل في كل شيء، دينهم الإسلام، جاء به خاتم المرسلين، محمد بن عبد الله ﷺ، وقد خرجت منهم ذات يوم «خير أمة أخرجت للناس» بنص القرآن العظيم.

قيمهم واحدة.. وكذا عاداتهم.. تقاليدهم عريقة.. وكذا أصولهم.. عاشوا في هذه المنطقة من العالم يتقاسمون الرزق فيها، منذ أن كان شظف العيش، وقسوة الحياة هما مظهرا الوجود فيها، وهم يعيشون فيها بعد أن أغدق عليهم ربهم رزقا وافراً جاءهم من تحت سطح الأرض.

جاءتهم النعمة من ربهم فخططوا لاستثمارها لخير مجتمعاتهم، وفي أقل من ربع قرن من الزمان تغيرت صورة الحياة على أرض الخليج الذي كان هادئا ساكنا.. فعرفت أجواؤه أزيز الطائرات العملاقة، بل وعرفت تلك الأجواء الصواريخ المرعبة المدمرة، وأحاطت بشطآنه حاملات الطائرات والغواصات والفرقاطات والمدمرات وكاسحات الألغام ..!!

وراح سكون الصحراء وهدوء خطوطها الذهبية، ربما إلى الأبد، لتحل محلها شبكات هائلة من الطرق، ربطت أطراف المنطقة بعضها ببعض، ومُدت خطوط للبرق والبريد والهاتف، جعلت الخليج في قلب العالم وعقله وسمعه وبصره، في آن واحد.

وانتشر التعليم في مدن وقرى وهجر المنطقة كلها، وشع نوره على النسبة الكبرى من أبناء الخليج، من مدارس وجامعات ومعاهد من كل شكل ولون، ولم يكتف الخليجيون بالعلم يعطونه لأبنائهم في مدارسهم وجامعاتهم، ويتعاقدون مع آلاف المعلمين والأساتذة، يحضرون إليهم من إخوان لهم في الدين والعروبة، وإنما ذهبوا يطلبونه في مظانه خارج حدودهم.. في كل بقعة من الأرض أحسُّوا بأن فيها فائدة.

ولأن خططهم التنموية كانت طموحة.. وسريعة، فإنهم لم ينتظروا حتى تتكون منهم طوائف تقوم بأعبائها الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والثقافية، وإنما سارعوا باستيراد آلاف الآلاف من العلماء والخبراء والأطباء والصيادلة والمهندسين والعمال، بل والزراع، من كل مكان على وجه البسيطة حتى وصلوا إلى مضارب البدو ذاتها ..!!

وتغير شكل الحياة على أرض الخليج، وكان حتما أن يتغير.. بعد كل هذا.. تغيرت الأرض.. وتغير المسكن، ظهر الزرع.. وعمرت المدن، تقاربت المسافات.. وانفتح الخليجي على العالم، احتك بنوعيات من البشر ما سمع آباؤه وأجداده عنهم من قبل.. أتوا إليه على أرضه في مشروعات عملاقة، وذهب هو إليهم في بلادهم يطلب علمًا حيناً، وسياحة حينا آخر، وأمورًا غير ذلك في بعض الأحيان..

تغير الإنسان في الخليج.. لا شك..

تغيرت الثقافة إذن..

ودخلتها عناصر وافدة ما كان لأحد بها هنا من عهد..

والثقافة – في أي مجتمع – مرادفة للشخصية.. شخصية الفرد، وكذا شخصية المجتمع.. والثقافة التي نعنيها هنا هي الثقافة الشاملة، بمعناها الواسع العريض الذي يشمل كل شيء في حياة الأفراد والجماعات والمجتمعات.

فالنواحي الروحية والفكرية والعاطفية مكون أساسي فيها، والجوانب المادية لا يمكن إغفالها منها، وكلها تتكامل في بناء شخصية الإنسان، كما تتكامل في بناء شخصية المجتمع، والنتيجة المنطقية والمحصلة الأخيرة أنها تصنع الإنسان.. على الرغم من أنه هو نفسه.. صانعها ومبدعها !!

وهي ـ كما نعلم ـــ مستمرة على الرغم من فناء الإنسـان؛ لأن وجودها مرتبـط بالجماعة، لا بفـرد بعينه، ولأنها تكتسـب بالتعلم والمحـاكاة، ولأنها ديناميكية متحركـة فإنها تنتشر بين طوائف المجتمع وجماعاته، وتلوّن سلوكياتهم والطبائع فيعرفون بها، وتكون علامات دالة عليهم، فأينما حلـوا أو رحلـوا رحلت معهم وحطت حيث حطـوا، ولذا يميـزهم الآخرون، ويتعرفون عليهم من خلالها، بل ويحكمون عليهم من سماتها المتمثلة في أقوالهم والأفعال.. في مأكل، كما في مشرب، في فنون يبدعونها، كما في إبداعات يستمتعون بها.. في كل شيء.

ولأن أهل الخليج تقع بلادهم على شاطئ الخليج فقد تأثروا بما أتاهم عبر ذلك الخليج، فلم ينغلقوا على أنفسهم، كما أنهم استفادوا في ثقافتهم من الحضارات التي تـوافدت عليهم عبر قرون التاريخ، ومـوطنهم ـ كما سبق القول ـ تـوسط مهاداً للحضارات القديمة أثَّـرت في العالم كله، من حضـارة المصريين القـدماء، ربما نقلت إليهم عبر بـلاد بنط قـريبـا من القـرن الإفـريقي، إلى حضارة بـابل وآشـور التي لا يفصلهـا عنهم شيء يذكر.. إلى حضارتي الصين والهند، وكان المحيط الهندي ومن ثم الخليج العربي خير موصِّل لها وناقل.

وجاء الدين الإسلامي العظيم إلى قلب الجزيرة العربية، وقد اختار الله سبحانه وتعالى بقعة مباركة فيها لتكون مهبط الرسالة، واختار محمداً ﷺ ليكون خـاتم الأنبياء والمرسلين، وليعلّم من حوله من البشر رسـالة السماء كي يحملوها إلى شتى بقاع المعمورة.

ومع رسالة الإسلام صُبغت الثقافة العربية بها، فدعمت القيم الطيبة فيها، ونزعت منها عناصر سيئة رديئة كانت متلازمة معها، ظهرت فيها الجوانب الروحيـة أوضح ما تكون، وتجلـت فيها قيم ندر أن تـوجد في ثقافة أخرى وأن تتأصل.

منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة قال لهم القرآن الكريم عن الوالدين ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيرًا ﴾ فتماسكت الأسرة وارتفع قدر الوالدين – وكبار السن عامة – في مجتمع الجزيرة.. ولا يزال حتى الآن.. إلا فيما ندر، والنادر لا يقاس عليه ولا يعتبر.. وقس على ذلك أمورًا كثيرة، وقيما أخرى عديدة لا تزال شائعة ومنتشرة بين أهل الخليج.

ولكن..

ولكن التغيير بدأ يمس أهل الخليج، كما مسّ أرضهم، فمع الثراء الكبير، ومع أدوات الثقافة وناقلاتها، من راديو وتليفزيون وفيديو وغيرها، ومع ظهور البث المباشر، وكذا مع السفر إلى الخارج والاحتكاك بثقافات أخرى مختلفة ومغايرة كان حتما أن يحدث التغير، وأن تتأثر قطاعات من مجتمعات الخليج، وخصوصا من الشباب صغار السن.

كما أن الحياة المادية بدأت تطفو على السطح تؤثر في قيم البعض، وبدا وكأن الإسراف صار علامة على قطاعات لا يستهان بها من أبناء المنطقة، وكأن الاقتناء المادي ـ في ذاته ـ قد صار هدفاً يُسعى إلى تحقيقه، كما أن الانبهار بالغرب وبأستاذية الحضارة الغربية أصبح واضحا في فهم البعض وفي سلوكياتهم، مما ينذر بتبعية وشيكة لتلك الثقافة الغربية المادية التي نختلف معها في كثير.

كما بدت هناك، في بعض مناطق الخليج علامات واضحة على غزو فكري وثقافي، جاءت نتيجة لتدبير وتخطيط من جهات بعينها وضعت المنطقة وأهلها في حساباتها ومخططاتها، وبدأت تحاصرها بالإذاعة كما بالصحيفة، وبالتليفزيون.. كما بالقمر الصناعي، وبالمدرسة

الأجنبيــة.. كما بــالكنيســة، بــالمعلم القسيس، كما بــالمنهج المنحــرف، بــالنشاط المدرسي المشبوه، كما في النشاط اللاصفي الذي وصل إلى البيت فزلزله، بل وسحب بعض الســذج إلى ساحــات الكنــائس.. دون مــداراة أو مــواراة !!!

ولأن الله من ورائهم محيط.. فإن الجزيـــرة التي بــزغت منهــا شمس الإسلام أنجبت طــائفة من الـرجال والشبــاب الذين أنــار الله بصائرهم والأفهــام بنور اليقين، فتنبهــوا لخطورة الغــزوة الثقافيــة الكبرى التي استهدفت الــدين، ووقفوا يحذرون قومهم منها، وبــدأوا يعلنون الحرب على ممارسات الغزاة ويكشفـونها للناس، من خلال شريط أو كتيب، من فوق منبر أو في صحيفة أو مجلة ملتــزمة، بل إن منهم من أخذه الحماس فحمل دعوة الإســلام وراح يبشر بها هناك في دار الغرب الغــازي نفسه، حتى صرخ قــائلهم محذراً غربــه المنصّر أن يا أيها المنصرون عــودوا إلى بلادكم لتــدافعوا عنها ضد مــآذن المساجد التي بدأت تــرتفع فيها بينما أنتم توهمون أنفسكم بتنصير المسلمين (*)!

كل هذه الأمــور ـ وغيرها كثير ــ مسَّت في سطور هذا الكتاب. والهدف منهــا توضيح الــرؤيا، وبيــان الــواقع الثقافي في الخليج العــربي، ولأن الثقافة موضوع عميق عميق فإنــه من الإنصاف أن نقول بأنه – أي هذا الكتاب – لم يشتمل على كل شيء فيــه، وإنما هو جهد فرد لــه من صفات البشر نقصهم، ولكن به على الأقل جهد باحث أراد أن يدل قومه على ثغرة في الجدار؛ عسى الله أن يقيّض لها من يســدها، ويقف من خلفهــا مدافعا. والله نسأل أن يهدينا سواء السبيل.

وهـــو نعم المولى ونعــم النصير، وهـــو الهادي إلى ســـواء السبيل .. سبحـانه.

(*) مما يــذكر فيشكــر في هذا المجال أن نفــرا من رجــالات الخليــج، وأهــل الحصانــة فيــه حينما تنبهــوا لذلك الغزو الثقــافي المحمــوم وضعوا له من الخطط العلميــة مــا يكسر حدتــه، ومــا يوقف فعله =

= وذلك حين قرر العلماء ورجال التربية في المملكة العربية السعودية، من خلال تطبيق سياسة التعليم في المملكة، وذلك على شكل مقررات تدرس في أقسام علمية أنشئت لهذا الغرض في الجامعات السعودية، هي أقسام «الثقافة الإسلامية». وطلاب الجامعات وطالباتها يمرون جميعا من خلال مقررات تلك الأقسام فيفهمون مخاطر الغزو الثقافي ومنطلقاته، ومن ثم يتحصنون ضدها، ويمكن لمن أراد الاستفادة حول هذا الموضوع أن يعود لأدلة الجامعات - كما هو الحال في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - فيقرأ عن مقررات متعمقة مكثفة مثل : التبشير ووسائله - الاتجاهات الفكرية المعاصرة - التنصير والاستشراق - الفكر الاستشراقي ومدارسه - مؤسسات الاستشراق وأعلامه - الفكر التنصيري ومنظماته - شبهات المستشرقين - المؤسسات الاستشراقية في الغرب والشرق - أثر الاستشراق في العالم الإسلامي - اليهودية والنصرانية المعاصرة - الكنائس النصرانية في الغرب والشرق - أثر التنصير ومواقف المسلمين منه - المستشرقون والقرآن الكريم - المستشرقون واللغة العربية - المستشرقون والأدب العربي*.

وإذا كانت هذه المقررات تدرس لآلاف الطلاب، فإن هناك أعدادًا كبيرة منهم قد تخصصت في بعضها، وخصوصًا في قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كما في غيرها من الجامعات السعودية، مما أخرج أعدادًا لا بأس بها من الباحثين الجادين الذين نالوا درجاتهم العلمية في الماجستير والدكتوراه، في موضوعات مهمة تختص بالغزو الفكري والثقافي وكيفية مقاومته، ويكفي دليلا على ذلك رسالتا الماجستير اللتين استعنا بهما في نهاية هذه الدراسة، وهما يوضحان بجلاء المعنى الذي نقصد.

---

* دليل جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٩هـ.


الفصل الأول
نبــذة عن الخليــج

يعد الخليج العربي وحدة جغرافية وثقافية متميزة تكاد تختلف في كثير من المظاهر عما يحيط بها من وحدات أخرى، ورغم أن دول الخليج العربية [*] لا تشكل وحدة سياسية واحدة إلا أن هناك الكثير مما يجمعها مع بعضها ويقرب بينها، ويجعل منها كيانا متماسكا هو أقرب إلى الوحدة السياسية الواحدة.

شيء من الجغرافيا.. والتاريخ:

إن كثيرا من الحقائق والظروف والأحوال التي يعيشها مجتمع من المجتمعات ليست وليدة الساعة أو اللحظات التي يعيشها أفراد هذا المجتمع، إن ما يعيشه المجتمع من أحوال اقتصادية، ومن ظروف اجتماعية، ومن قيم يتعامل أفراده ويسلكون على أساسها، ومن معايير يحاسبون أنفسهم في ظلالها، كل ذلك له جذور من التاريخ المرتبط بهذا المجتمع، وجذور من الجغرافيا التي ترتكز مقومات هذا المجتمع أو ذاك على حقائقها.

وبما أن الجغرافيا تسبق التاريخ، بل وتتحكم في أحداثه وتؤثر فيها، فلعلنا نتمعن سويا في شيء من جغرافية الخليج، سواء ما كان منها طبيعيا يتعلق بالموقع والتضاريس والمناخ، أو يتعلق بالسكان وأصولهم ونشاطاتهم التي يزاولونها ويتكسبون منها عيشهم، أو اقتصاديا من حيث الموارد الطبيعية التي يمتلكها الإقليم أو تحيط به، والتي استغل السكان بعضها فحولوها من «موارد طبيعية» إلى «موارد اقتصادية» يستفيدون بها ومنها وينتفعون [1].

«جغرافيا . . دول الخليج العربية هي تلك المجموعة من الدول العربية التي تطل على الخليج العربي، ذلك اللسان البحري الممتد من المحيط الهندي

(*) يقصد بها دول مجلس التعاون الخليجي.

(١) محمد عبد العليم مرسي: أثر التغيرات والعوامل الاجتماعية والاقتصادية في تحديد مكانة المعلم في دول الخليج العربية، مجلة التعاون، العدد ١١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ص ٨٦ - ٨٧.

«البحر العربي»، متوغلا في الأرض في هذا الركن الجنوبي الغربي من آسيا. وهذه الـدول عبارة عن ست وحـدات سياسيـة تتنـوع وتتفاوت فيما بينهـا، من حيث المساحة والسكان، وهي:

الإمارات العربية المتحدة، البحرين، الكـويت، المملكة العربية السعودية، سلطنة عمان، وقطر. وفي مجمـوعها تزيد هذه الـدول، من حيث المساحة، عن مليون ميـل مربع، بينما يصل عـدد سكانها إلى أكثر مـن ثلاثة وعشريـن مليون نسمة، وذلك حسب آخر الإحصاءات السكانية وأحدثها:

جدول رقم (١)

أعداد السكان في دول الخليج العربية (١)

الرقم	اسم الدولـة	عدد السكان
١	الإمارات العربية المتحدة.	٢,٥٢٢,٠٠٠
٢	البحرين.	٥٥١,٠٠٠
٣	الكويت.	١,٣١٨,٠٠٠
٤	المملكة العربية السعودية.	١٦,٩٠٠,٠٠٠ (*)
٥	سلطنة عمان.	١,٥٨٧,٠٠٠
٦	قطـــر.	٤٨٤,٠٠٠
المجموع		٢٣,٣٦٢,٠٠٠

---

(١) The World Almanac C Book of Facts, 1994. Edited by Robert Famighetti, Publisher : Richard W. Eiger, New Jersey, U.S.A., 1994.

(*) تتمشى هذه الأعداد إلى حـد بعيد جدًا مع الإحصاء السكاني الذي أذاعتـه وسائل الإعلام في المملكة العربية السعوديـة خلال العام قبل الماضي (١٤١٣هـ)، والتي قالت بأنـه بنـاء على النتائج الأوليـة للتعداد العام للسكـان وصلت أعداد السكان إلى ١٦,٩٢٩,٢٩٤ نسمـة، وجاءت أعداد المواطنين ١٢,٣٠٤,٨٣٥ نسمة، بينما بلغ عـدد المقيمين بالمملكـة ٤,٦٢٤,٤٥٩ نسمة، وذلك كما أعلنت مصلحة الإحصاءات العامة بوزارة المالية والاقتصاد الوطني بالمملكة العربية السعودية.

وبما أن الدراسات الحالية معنية بالدرجة الأولى بدول مجلس التعاون دون العراق، فإننا نستطيع أن نقول إنهم يصلون في عمومهم إلى نحو خمسة وعشرين مليونا من السكان.

وهؤلاء السكان لهم مجموعة من السمات العامة المشتركة التي تجمع بينهم، وتلك السمات التي تبرز دراسة هذه الدول الخليجية كوحدة واحدة، هذه السمات هي :

١ - أن السكان فيها جميعا، وربما مع استثناءات بسيطة جدًّا لا تكاد تذكر، يدينون بالإسلام، ويتخذونه عقيدة لهم، وشريعة يحتكمون إليها.

٢ - أنهم في مجموعهم يرجعون إلى أصول عربية، ومن ثم فالعربية - لغة القرآن الكريم - هي لغتهم المعبرة عن أفكارهم ومشاعرهم.

٣ - أن بلادهم يغلب عليها الطابع الصحراوي من حيث كونها أرضا جرداء ومناخا حارًّا جافًا، مع استثناءات قليلة قرب مياه الخليج وعند شواطئ البحر الأحمر، حيث ترتفع نسبة الرطوبة، وخصوصًا في أشهر الصيف الحارة.

٤ - هذا الطابع الصحراوي الغالب، انعكس على نشاط السكان الاقتصادي، وخصوصا في العصور التي سبقت اكتشاف البترول واستخراجه وتصديره، والاستفادة من عوائده.

٥ - بجانب الاقتصاد الصحراوي، من رعي للإبل والأغنام وبعض الماشية احترف عدد من السكان الاشتغال بالتجارة بين المراكز الحضارية الكبرى، داخل منطقة الخليج وخارجها.

٦ - سادت في الأقاليم الساحلية - أيضا قبل ظهور البترول - حرف بحرية اشتهر بها أهلها مثل : صيد السمك، واستخراج اللؤلؤ، وصناعة بناء السفن التجارية وقوارب الصيد.

٧ - ظهر النفط فيها جميعا في أوقات متقاربة، فأدى ذلك إلى تغيرات جذرية . . اقتصادية واجتماعية . . بعيدة الأثر في حياة سكانها، وكان من نتيجتها أن انفتح العالم عليهم، يبغي بترولهم وانفتحوا هم عليه يبغون كل ما لديه من مستلزمات العصر [١].

٨ - كانت الطفرة المالية سريعة ومفاجئة، فلم تسمح لأهل المنطقة بالتطور المتأني الواعي، ووجد إنسان الخليج نفسه وجها لوجه أمام عمالقة الاستثمار في العالم، يواجههم . . وعليه أن يتعامل معهم، كما وجد نفسه أمام مستلزمات العصر والعلم، تلك المستحدثات التي دخلت عليه حياته، وأحاطت به من كل جانب، وبدأت تهز الكثير من قيمه وعاداته وتقاليده .

٩ - بسبب الوفورات المالية الضخمة، والسيولة المتاحة في أيدي أبناء الخليج، أصبح في استطاعتهم أن يستوردوا كل شيء، من أي مكان على ظهر الأرض، ومن ثم تحولوا إلى مجتمع استهلاكي ضخم، وعمرت البيوت الخليجية بكل منتجات العصر، مما يسَّر الحياة، وغيّر من طعمها السابق .

١٠ - لم يفتح أبناء الخليج أبواب مجتمعاتهم للمنتجات الأجنبية فحسب، وإنما انفتحوا هم على المجتمعات الأخرى، فكثرت أسفارهم إلى الخارج للعمل والسياحة وكذا للدراسة، مما عرض البعض لرياح التغير، بسبب احتكاكهم بثقافات تختلف عنهم جذريا وعن ثقافتهم الأصلية .

١١ - نتيجة لوفرة الأموال، وخصوصًا في أيدي الشباب، والتي جاءت لهم من أيسر الأبواب وأسهلها، تدهورت قيمة العمل والكد في سبيل الحصول على

---

(١) محمد عبد العليم مرسى : دور التعليم العالي في تنمية دول الخليج، مجلة مركز البحوث، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، العدد الأول، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م، ص ٣١٧ .

الرزق، ومن ثم هبط احترام العمل، كقيمة عليا في بناء المجتمع، وفي التدليل على قيمة الشخص العامل [1].

١٢ – وأخيرا. . وقبل أن نترك هذه السمات التي تميز أبناء الخليج لعله يكون من المناسب أن نعرض في عجالة لبعض أنواع التغيرات التي بدأت تمس حياتهم، والتي نرجو من الله أن ينتبهوا لها ولأبعادها الخطيرة، حتى لا تصبح حياتهم بحيث تكون من سماتهم التي يتصفون بها، هذه المتغيرات سنذكر مسمياتها فقط، دون الدخول في تفصيلاتها.

– الانصراف عن التعليم الفني – بصفة عامة، مما مكن للعمالة الأجنبية في المنطقة، بكل آثارها السلبية.

– الاعتماد على المربية الأجنبية في تنشئة ورعاية الأجيال الجديدة من أبناء الخليج رغم مخاطر ذلك.

– الانصراف عن الأعمال والحرف التي كان يزاولها الأجداد، وربما الآباء إلى وقت غير بعيد.

– التغير في البناء الأسري في الخليج، وانقراض الأسرة الممتدة، وظهور الأسرة النووية ، بكل ما يعني ذلك من تفتت بدأت مظاهره تتضح للعيان، وخصوصًا فيما يتعلق بالترابط الذي اشتهرت به الأسر الخليجية سابقا وخصوصًا في المدن الكبرى.

– ظهرت أجيال من أبناء الخليج وهي متأثرة بنماذج خلقية وقيمية استمدت مثلها في حياتها من الفيديو والتليفزيون، ومن السفر للخارج

---

(١) محمد عبد العليم مرسى : أثر المتغيرات والعوامل الاجتماعية والاقتصادية، مرجع سابق، ص ٨٨.

- انتشرت - مع وفرة الأموال - بعض مظاهر الانحراف (مسكرات - مخدرات - جرائم) وهذه لم يكن للمنطقة بها عهد من قبل .

- أصبح الإسراف نمطاً دالاً على سلوكيات كثير من أبناء الخليج ، وخصوصًا من أبناء الأجيال الجديدة التي لم يعرف أفرادها معنى التعب والكد في سبيل الحصول على لقمة العيش .

الأهمية الدينية للمنطقة :

وهذا العنصر يستحق أن يفرد له حديث خاص ، بعيدا عن صفات المنطقة وسماتها ؛ لأنه يتعلق بأهم عنصر في حياة سكانها ، فمنذ جاء الرسول ﷺ لهداية البشر أجمعين ، ومنذ بعث في مكة المكرمة ، منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة ، وأفئدة المسلمين تهفو إلى تلك البقعة التي تعد أقدس مكان في العالم ، حيث أقيم فيها أول بيت لله على الأرض﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم** ﴾ كما أن ثاني أقدس مكان على وجه الأرض يتمثل في «المدينة المنورة» حيث هاجر إليها الرسول ﷺ ، هو وصحبه الكرام ، وبعد أن حوربت الدعوة الإسلامية في مكة من قبل الكفار والمشركين ، وهناك أقيمت أول دولة للإسلام على وجه الأرض ، ولا زال هذان المكانان المقدسان يمثلان أقدس مكانين على وجه الأرض ، وتحيط بهما قلوب أكثر من مليار من المسلمين باتساع الكرة الأرضية [١] .

ويربط أحد الباحثين بين الأهمية الدينية لهذين المكانين المقدسين ، وبين حسابات السياسة الدولية ، يقول «فاضل» : «تضم المملكة العربية السعودية في

---

(١) يمكن لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع أن يراجع كتاب الباحث : قدسية الحرمين الشريفين والتضامن الإسلامي ، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

أراضيها الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وهما أقدس الأمكنة بالنسبة للمسلمين، لذا كان للمملكة أهمية خاصة لدى المسلمين الذين يبلغ تعدادهم الآن نحو البليون نسمة، وينتشرون في معظم أرجاء الأرض، ولا شك أن لهذه الأهمية أثراً في حسابات السياسة الدولية، إذ تبرز تلك الأهمية كأحد مميزات هذه المنطقة[1].

الأهمية الاقتصادية العالمية :

لا يستطيع أي باحث أن يكتب عن الخليج العربي - في الوقت الحاضر - دون أن يتعرض للثروة البترولية الهائلة التي يمتلكها ذلك الخليج ويرقد فوقها، وهذه الثروة إذا كانت تهم أصحابها وتعنيهم إلا أن لها أهمية عالمية خطيرة كان الجميع يتحدثون عنها باعتبارها من الأمور المنطقية، حيث إن هذه السلعة «عالمية» الصفة، ولكن «الأحاديث» عنها و«الكتابات» تأكدت على شكل واقع حي ملموس حين أقدم النظام البعثي في العراق على غزو الكويت في الثاني من أغسطس ١٩٩٠م، حيث أحس الجميع أن هناك عصبًا حسَّاسًا خطيرًا قد مُسَّ، أو أن هناك سلكًا كهربائيًا ذا قوة هائلة قد جذب بعنف دون حذر !!

وفي خلال أيام قليلة تغير وضع المنطقة كلها بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ، فقد هبط فيها مئات الألوف من الجنود والضباط، من جميع أنحاء العالم تقريبا (معظمهم من الولايات المتحدة الأمريكية) ومعهم آلاف الطائرات الحربية وعشرات الآلاف من الدبابات والمدرعات وناقلات الجنود والمصفحات، بالإضافة إلى حاملات الطائرات والغواصات والمدمرات والفرقاطات التي غص بها الخليج والبحار القريبة منه والمحيطات، علاوة على حالة الاستنفار القصوى

---

(١) صدقة يحيى فاضل : الأهمية العالمية المعاصرة للخليج ودول مجلس التعاون، مجلة التعاون، الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، الرياض، العدد الخامس، ١٤٠٧هـ - ١٩٩٢م، ص ٥٠.

التي عمت القواعد العسكرية المحيطة بالمنطقة من جميع الجهات .

ثم اندلعت أحدث حرب في التاريخ المعاصر، استخدمت فيها أحدث وأفتك أنواع الأسلحة التي خرجت من مصانع الغرب، والتي حصدت أرواح مئات الألوف من البشر، والتي تركت آثارا اقتصادية خلفتها وراءها للمنطقة كي تدفعها على شكل ديون وغيرها ذات أرقام فلكية لا يكاد يصدقها عقل (*)، والسبب . . في كلمة واحدة . . البترول . . وليس غيره . . !!

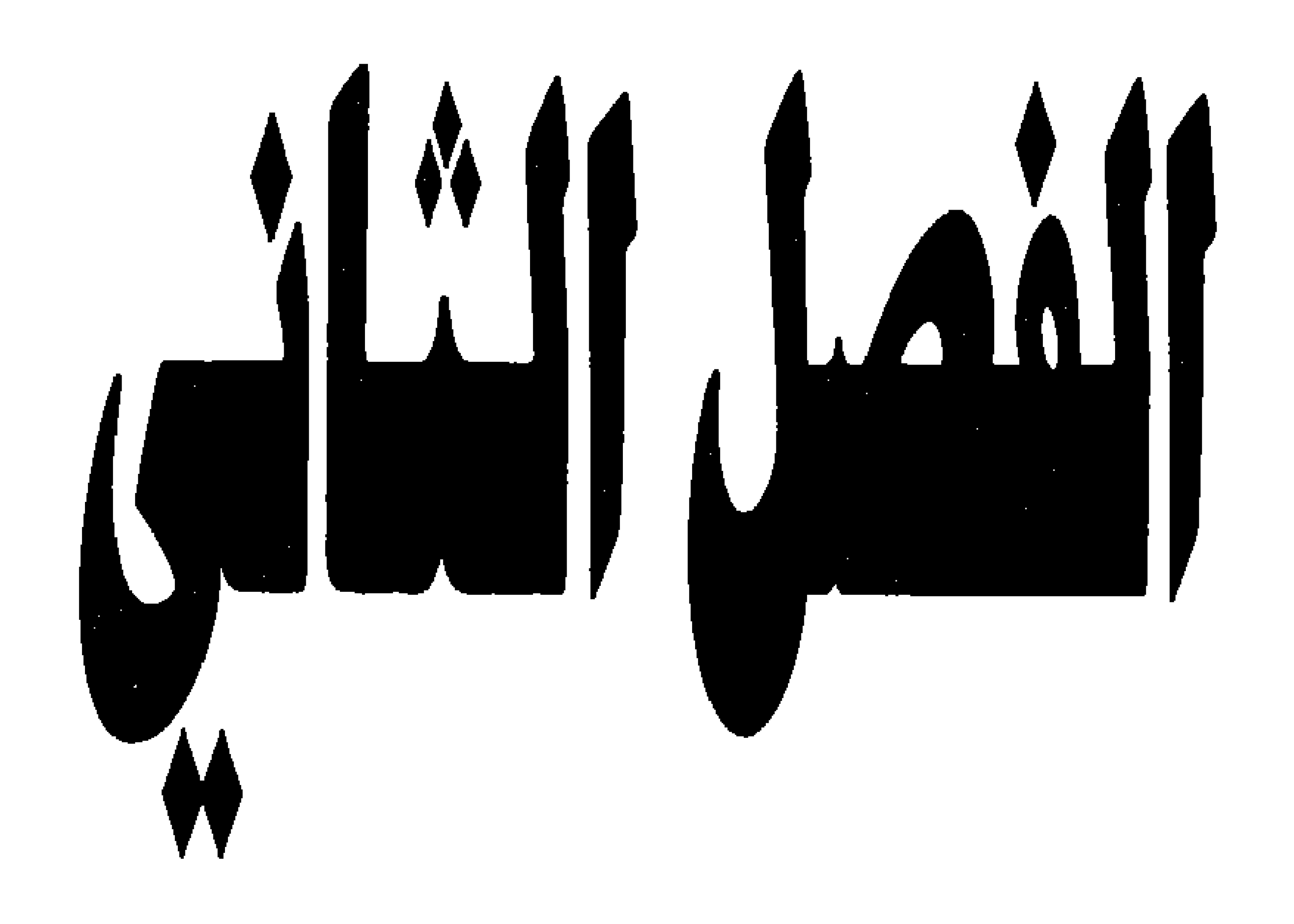
هذا هو الخليج ، في عجالة ، مجرد لمحات تشير إلى بعض خصائصه ، وإلى بعض ما فيه، ثم لعلنا ـ بعد ذلك ـ ننتقل إلى الثقافة في الخليج ، ومنها إلى ثقافة الطفل في الخليج، ولكن وقبل ذلك ، لعله يكون من المناسب أن نبحث بشيء من التفصيل في معنى ذلك المصطلح . . الثقافة .

(*) يمكن مراجعة كتب المؤلف :

أ - غزو الكويت كارثة المسلمين الجديدة، عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

ب - التربية وكارثة غزو الكويت، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

جـ - علماء الأمة الإسلامية يواجهون صدام حسين، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.



الفصل الثاني

الثقافة.. ما هي..؟

من المسلم به أن جميع البشر متساوون، حيث خلقهم الله - سبحانه وتعالى - من أب وأم معروفين لنا جميعا، هما آدم وحواء، وبنص القرآن الكريم ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾. فالخلق إذن من معين واحد، ولكن البشر انتشروا على سطح الكرة الأرضية، بسهولها ووديانها، وجبالها، بغاباتها وصحاريها، بأنهارها وبحارها، وبذلك أصبحوا «شعوبا وقبائل» تفصل بينها فواصل طبيعية في البداية من صنع الطبيعة، ثم فصلت بينها فواصل سياسية بعد ذلك، من صنع البشر، حين ابتدعت الحدود السياسية، بعد الحدود الجغرافية.

وخلف هذه الحدود عاش كل مجتمع مع نفسه، يتفاعل أفراده وجماعاته مع بعضهم، ويتعاونون في السراء والضراء، يصارعون عوامل الطبيعة إن كانت غير مواتية، ويحاولون إخضاعها لقضاء مصالحهم، أو هم يستفيدون من تلك العوامل إن كانت مواتية، فيستفيدون منها لخيرهم ولخير أبنائهم.

وهم كذلك تعاملوا مع بعضهم، في علاقات ودٍّ وتراحم وتجارة، كما أنهم في بعض الأحيان - اضطروا إلى التعامل مع بعضهم في علاقات سلبية، فيها حرب وتنافر وتطاحن، وهم في كل ذلك . . في حرب . . وفي سلم، في تعاون . . وفي تطاحن مروا في خبرات اكتسبوها على مرّ الأيام والسنين، فتشكلت لكل جماعة منهم خصائص ميزتهم من غيرهم، ميزتهم بمعنى حددت شخصيتهم، وليس بمعنى فضلتهم على غيرهم، حيث أن الثقافات تتمايز ولا تتفاضل.

هذه الخصائص التي تميز شعبا عن شعب هي التي نسميها «الثقافة»، والثقافة هنا نقصدها بمعناها العام الشامل والواسع الذي يشتمل على كل شيء في حياة الجماعة، ونقصد من ذلك الجوانب المادية والمعنوية في حياة ذلك الشعب أو تلك الجماعة، فما اكتسبه ذلك الشعب أو تلك الجماعة من قيم، وما

تـوصل إليه من عـادات، وما استمـر عليـه من معايير، ومـا ارتضاه لنفسـه من تقاليد تشكل الجانب المعنوي من الثقافـة، كما أن كل ما استطاع أن يتوصل إليه من اختراعات ومبتكـرات، ابتداءً من التـوصل إلى «إشعـال النــار» والاستفادة منها، و«التـوصل للعجلة» والجري بها، وانتهاء «بمركبـات الفضاء»، و«الأقمار الصناعيـة» وتوظيفهـا لصالحه، ومـروراً بما بين هذين الطـرفين من ابتكارات في الصناعة وتـوظيفها في الزراعة والتجـارة والطب والتعليم والاتصالات وغيرها. . كل ذلك يمثل الجانب المادي من تلك الثقافة التي نتحدث عنها.

ومن ثم فنحن أمـام تاريخ الجنس البشري كلـه، في صراعه، أي صراع ذلك الجنس، مع الطبيعـة من حولـه، أو في صراع جماعـاته مع بعضهـا، في خبرات هائلـة - بلا عـدد - تراكمت على مر العصـور، لدى كل شعب، وكـوّن حوْلها وعنها أفكارا ومعتقدات تعلمها الكبار، وعلموها لمن خلفهم من أبنائهم، وأبناء أبنائهم، بحيث صارت هذه كلها جـزءا من تكوين هذه الشعوب والجماعات، وأصبحت عـلامات مميـزة لهم، ودلالات واضحـة عليهم، وكأنها مثل السمات الجنسيـة أو البشريـة المميـزة لهم، كما يقول علماء الأجنـاس أو علماء الجغـرافيـا البشرية.

ورغـم ذلـك التفسير أو الفهم لمعنى الثقافـة، وكيفية تكونها، إلا أنـه ينبغي الاعتراف بأن مصطلح «الثقــافــة Culture» كــان - ولا يــزال - من أكثـــر المصطلحات التي اختلف عليهـا العلماء اختلافـا بينا، وأينما التقوا كـانت هناك تعريفات للثقافة، ربما. . بعددهم دون أدنى مبالغة!!

أصل المصطلح ومعناه:

يقول عـويس إن العرب استعملوا كلمـة (ثقافـة) بمعنى التقـويم والتهذيب من ثقفت الرمح إذا هذبتـه وقومته، واستعملوهـا أيضا بمعنى الحذق والفطنة،

ووردت عندهـم بمعنى الـوجود، وبمعنى التمكـن والغلبة. ومن ذلك قـولـه تعالى: **﴿إن يثقفوكـم يكونـوا لكم أعداء﴾** وقولـه: **﴿فإمـا تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم﴾**[1].

أما إذا تركنا العرب، وانتقلنا إلى شعوب أوروبا، فنجد أن كلمة ثقافة كانت، ولا زالت، ذات صلـة وثيقة بـالزراعـة، فالأولى Culture، والثانيـة Agriculture ومعنـاها زراعـة الأرض بعـد تهذيبهـا وإعدادهـا، كما استعملـت في اللاتينيـة بـمعنى قـريب مـن المعنى العـربي فقيل إنها (Culture Aniuvi)بمعنى تهذيب الروح، وبمعنى التهذيـب الرباني (Dei Culture)، وقـد استعمل اللفظ بمعنى العبادة (Dei Culture)، أي عبـادة الله على اعتبـار أن عبـادة الله صقل للنفس وتهذيب لهـا.

ومنذ العهـد الروماني ارتبط معنى الثقافـة بالعلوم الإنسانيـة، أي العلوم التي تنفصل فيهـا كل أمـة عن الأمم الأخـرى، كعلـوم الدين واللغـة والآداب التي يدخل فيها الفلسفـة، والفنون، أي العلوم غير العلمية وغير الطبيعية.

ثم في عصر النهضة الأوروبية أصبـح اللفظ على الآداب، والفنون، كما يقول حسين مـؤنس في كتابـه (الحضـارة)، وكما نقل عنـه عويس، والـذي يميل إلى قصر مصطلح الثقافـة على العلوم الإنسانيـة، باعتبارهـا العلـوم الأكثر تأثيرافي الرقي الإنساني الحضاري، من الجانب الروحي، وبـاعتبارها - كذلك - العلوم التي تنفصل فيها أمة عن أمة، وتشكل معالم الشخصية الذاتية للأمة، ولا تتسع فيها المساحة، بحيث تكون متشابهة، أو واحدة بين كل الأمم، كما هو الشأن في العلوم التطبيقية .

وقريب من المعنى الذي قلناه في بدايـة الحديث عن الثقافة من أنها نتاج خبرة

---

(١) عبد الحليم عويس: ثقافة المسلم في وجه التيـارات المعاصرة، النادي الأدبي بالرياض، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ص ١٥.

تاريخية طويلة للمجتمعات، يقول زكي اسماعيل إن العالمين الأنثروبولوجيين الأمريكيين «ألفريد كروبير A. Kroeber، كلايد كلكهوهن C. Kluckhohn» قد استعرضا ما يزيد على مائة وستين تعريفا للثقافة، وبعد أن استعرضا هذا الحشد الهائل من التعريفات لعديد من الأنثروبولوجيين أشارا إلى أنهما يستطيعان، بدون أي تحيز لأي من هذه التعريفات، أن ينتهيا إلى أن الثقافة ذات مضمون تاريخي Historical، أي من حيث كونها تراكما لعديد من الأنماط والمركبات الثقافية التي تراكمت عبر تاريخ ثقافي طويل، ومن ثم فهي تشتمل على الأنماط والأفكار والقيم، ولها صفة الاختيار والانتقاء، وهي في الوقت نفسه مكتسبة.. أي تتعلم، كما أنها تجريد للسلوك الإنساني Abstract، وإن لم تكن هي السلوك نفسه، إلا أنها نتيجة لهذا السلوك»[1].

ويؤكد عبود على الأصل الذي يربط بين الثقافة والزراعة، في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، ولكنه يقول إنها استخدمت للتعبير عن التربية لغير الإنسان، فقط للزرع والنحل(؟؟) ثم إنها اتسعت بعد ذلك لتشمل «تربية الإنسان أيضا إلى جانب شمولها غير الإنسان، من زرع وحيوان، فصارت تعني أخلاق الناس وعاداتهم، وأي شيء يحتاج إلى رعاية خاصة.. ثم يبدو أن الكلمة زادت اتساعا بتوجهها إلى أخلاق الناس وعاداتهم، فصارت تعني ـ فيما تعنيه ـ تهذيب وتثقيف العقل.

ثم يبدو أن الكلمة ـ أخيرا ـ بدأت تنفصل عن (أصلها) الأول (الزراعة)، لتتصل بهذا الفرع الأخير، فصارت (ثقف) تعني صار حاذقا فطنا، ثقف العلم والصناعة، حذقها، وصارت الثقافة تعني «العلوم والفنون، التي يطلب

---

(١) زكي محمد إسماعيل: الأنثربولوجيا والفكر الإسلامي، عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، ص ص ١٢٢ - ١٢٣.

الحذق فيها»[1].

ويصل الكاتب أخيرا إلى المعنى الشامل للثقافة، وهو المعنى الاصطلاحي لها، والذي اتفق عليه التربويون والأنثروبولوجيون، والذي يستخدم الآن في العلوم الاجتماعية وهو «طريقة الحياة الكلية للمجتمع، وقد تتضمن أسلوب تناول الطعام، أو ارتداء الملابس، أو استخدام اللغة، أو تبادل الحب أو الزواج، أو دفن الموتى، أو لعب كرة القدم. وقد تشمل أيضا قراءة الأدب، أو سماع الموسيقى، أو مشاهدة أعمال الرسامين والمثالين، أو الأنواع الأخرى من النشاط». وذلك كما نقل عبود من كتابات «أوتاواي»[2]عالم الاجتماع التربوي المشهور.

والثقافة على النقيض من العلم، لا يمكن أن تفهم على أنها تعني مستوى عاليًا للامتياز العقلي والفني، في شخص أو مجموعة، إذ هي ملك للجميع، فلا يوجد إنسان مثقف، وآخر غير مثقف، على النحو الذي نستخدمه في حياتنا العادية خطأ، إذ أن لكل إنسان ثقافته، صغيرا كان هذا الإنسان أو كبيرا، غنيا أو فقيرا، متعلما أو جاهلاً، رجلا أو امرأة، ولكل مجتمع من المجتمعات أيضا ثقافته، مهما كانت الظروف المحيطة بهذا المجتمع.

فالثقافة بالنسبة للفرد مرادف (للشخصية)، والثقافة بالنسبة للمجتمع مرادف (للشخصية القومية) التي يتميز بها هذا المجتمع عن غيره من المجتمعات. إنها ذلك النسيج الكلي المعقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير والعمل وأنماط السلوك، أو هي جميع طرائق الحياة التي طورها الناس في المجتمع، وكذلك المنتجات

---

(١) عبد الغني عبود: الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٨ - ١٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٠.

المادية»

أمـا الرميحي فيحـدثنـا عن الحيرة التي تنتـاب الكتاب وهـم يتعاملـون مع تعريفـات للثقافـة وصلت إلى أن أكثـر من مائة وخمسين تعـريفاً «لقـد تعددت المفاهيم واتسعت لمعنى الثقافة حتى أصبحت تعني معنى آخر هو المجتمع بكل ما فيه وما يعنيه. وهناك اليوم ما يـزيد على مائة وخمسين تعريفا للثقافة، بعضها جامع شامل وبعضها محدود» [1].

ويقول الكاتب السـابق إن «المعنى الواسع للثقافة هو مـا ينتجه مجتمع ما من إنتاج مـادي ومعنوي، أي أن كل منتجـات الإنسان في حياتـه اليوميـة العملية والترفيهية تمثل الثقـافة لذلك المجتمـع، أو لتلك المجموعة الإنسـانية، والمعنى الآخر هو المعنى الضيـق للثقافة، ويعني ما ينتجه الإنسـان في مجتمعه من منتج فكري، وهذا هو المعنى الشائع للثقافة».

ويستدرك الرميحي ليبين العلاقة بين الثقافـة بمعناها الواسع الشامل، وبين الثقافـة بمعناها الضيق؛ إذ «يمكن أن يتحـول منتج فكري مـا إلى واقع مادي، كأن تتكون لدى فرد أو بعض أفراد مجموعـة من الأفكار السياسية أو القانونية أو العلمية، وتتحـول هذه الأفكار في وقت لاحق إلى شيء مـادي، فهناك إذا حتى في المفهوم الضيق للثقـافة إمكانيـة التبادل بين المعنيين، أو العلاقـة الجدلية بين المفهومين» [2].

وما دام أننا لا زلنا في مجال محاولة بيـان أصل مصطلح الثقافة فلعله يكون من المناسب أن نعرض لجهد دولي تم في هذا المجال، فلقد اجتمع ممثلو «اليونسكو»

---

(١) محمـد الرميحي: واقع الثقـافة ومستقبلهـا في أقطار الخليج العـربي، المستقبل العربي، العـدد ٤٩، مارس ١٩٨٣م، ص ٤٤..

(٢) المرجع السابق.

في المكسيك خلال معظم أيام شهر يوليو والأيام الأولى من شهر أغسطس ١٩٨٢م، في محاولة لتحديد معنى ذلك المصطلح، فيما عرف باسم «إعلان مكسيكو»، وبعد مناقشات طويلة ومركزة، معمقة وموسعة خرج علينا المؤتمرون بالتعريف التالي :

«إن الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن ينظر إليها اليوم على أنها جميع السمات الروحية . . والمادية . . والفكرية . . والعاطفية، التي تميز مجتمعا بعينه، أو فئة اجتماعية بعينها، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان، ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات». (الوثائق الرئيسة لإعلان مكسيكو بشأن الثقافة، والذي كان نتيجة لمؤتمر اليونيسكو للثقافة، مكسيكو ٦ يوليو - ٦ أغسطس ١٩٨٢م .

ويفسر الإعلان - بعد ذلك - الثقافة تفسيرا إجرائيا، فيقول : **«إن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وهي التي تجعل منه كائنا يتميز بالإنسانية المتمثلة في العقلانية والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي. وعن طريقها (أي طريق الثقافة) نهتدي إلى القيم ونمارس الاختيار، وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه، والتعرف على ذاته، كمشروع غير مكتمل، وإعادة النظر في إنجازاته، والبحث دون توان عن مدلولات جديدة، وإبداع وأعمال يتفوق فيها على نفسه**[1].

ويخلص الرميحي في النهاية إلى أن «الثقافة تعني جوهر المجتمع، تعني كل ما ينتجه المجتمع من إنتاج مادي ومعنوي، كما تعني تأثر ذلك المجتمع أو تلك المجموعة الإنسانية بالنتاج المادي والمعنوي لغيرها وتأثيرها فيه، ومدى النقل

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٤٤ - ٤٥ .

الكامل والاستيعاب والتمثيل، فالثقافة السائدة في مجتمع ما أو جماعة ما، تعني السمات الأساسية . . الروحية والمادية والفكرية التي تميزهما، هذه السمات الأساسية هي التي تميز ثقافة عن ثقافة أخرى، هي التي تعطي المنتج المادي والفكري خصوصيته وتفرده» [1].

وقد بنى الكاتب السابق رأيه على الإعلان العالمي (إعلان مكسيكو) للثقافة بمعناها الواسع الذي يضم بين عناصره : الاهتمام بالعدالة العالمية، والسلم العالمي، وحقوق الشعوب، والأفراد في الديمقراطية والتنمية، بل لقد أفرد إعلان مكسيكو صفحات كثيرة للحديث عن الثقافة والتنمية، والثقافة والديمقراطية، والعلاقة الحميمة بين الثقافة والتربية وعلوم الاتصال.

ويضيف العمر عدة أبعاد أخرى للمعنى الشامل للثقافة، فهي عنده «نتاج أنماط التربية ونظم التعليم، ومبتكرات العلم، وجملة العادات والتقاليد، والأديان والمذاهب والعقائد، وذلك في إطار انطباعات وجدانية وقيم خلقية [2].

ويستعير العمر من عبد المنعم الصاوي تعريفا آخر عن الثقافة من كتابه (عن الثقافة) فيقول : إنها «مجموعة مكتسبة من الخصائص والصفات، تحدد للإنسان نوعا متميزا من السلوك يقوم على مجموعة من القيم والمثل والمفهومات، يؤثرها ويتمسك بها ويحرص عليها، وهذه الخصائص والصفات تتوافر لديه على مر العصور والأجيال نتيجة تطور عضوي وعقلي ووجداني ونفسي

---

(١) المرجع السابق.

(٢) عبد الله العمر : التواصل الثقافي بين دول مجلس التعاون : الواقع والمطلوب، مجلة التعاون، العدد الثالث، شوال ١٤٠٦هـ - يوليو ١٩٨٦م، ص ٤٢.

واجتماعي»[1].

والثقافة عند شاكر مصطفى «تنتظم السمات التراثية للأمة، من مادية وروحية وفكرية وفنية، كما تشمل قيمتها الأخلاقية والمجتمعية، ومواقفها من الحياة، وطرائق تفكيرها، وإبداعها الجمالي، ونتاجها المعرفي، وسبلها في السلوك. وتضم أخيرا تطلعاتها ووسائلها في الوصول إلى حياة أكثر إنسانية، وأنبل قيما، وأوسع شمولا، وأعمق معرفة وفكرا.

والثقافة - بهذا المعنى - ليست جهدا إنسانيا مجانيا، ولكنها ذات وظيفة إنسانية - قومية معا، فهي بجانب الدين واللغة قوام وحدة الأمة؛ لأنها تنسج تكوينها الداخلي، وتجمع أفرادها على المصير التضامني الواحد، وهي وسيلة تأكيد التراث والتمايز عن الآخرين، بوصفها مستودع القيم.

كما أنها سبيل الأمان والاطمئنان لأفراد الأمة الواحدة، بوصفها أكثر النشاطات اتصالا بكرامة الإنسان، وتعبيرا عنه وعن هويته، بالإضافة إلى أنها حصن الدفاع؛ لأن وظيفتها أساسية في مواجهة التحديات القومية من تجزئة وتخلف وتبعية وصهيونية، ولأنها مناط الهوية القومية المقاتلة، وآخر ما يمكن انتزاعه من النفوس، هذا إضافة إلى أنها أخيرا. وسيلة اللقاء مع الآخرين على المثل العليا الإنسانية المشتركة[2].

ويتحرز لنا الرميحي في بعد مهم حين يتحدث عن التنوع والتفرد في الثقافة، حتى داخل المجتمع الواحد «ولا شك أن كل جماعة لا يمكن أن تتطابق مع غيرها في سماتها الأساسية الروحية والمادية والفكرية والعاطفية، ولا شك أن هناك تنوعًا وتفردا فيها لدى جماعة دون جماعة أخرى في المجتمع نفسه

---

(١) عبد المنعم الصاوي : عن الثقافة، دار القلم، بدون مكان نشر، ١٩٦٦م، ص ٣٦.
(٢) شاكر مصطفى : التخطيط الثقافي في دول مجلس التعاون، مجلة التعاون، العدد الرابع، المحرم ١٤٠٧هـ. أكتوبر ١٩٨٦م، ص ص ٩ - ١٠.

أو الدولة السياسية (؟؟)، ولكن المراد هنا هو السمات الأساسية والجوهرية والمشتركة في مجتمع ما. وبالتحليل نفسه فإننا نجد سمات أساسية وجوهرية ومشتركة لدى جماعة من الناس قد تفرق بينهم (حدود) سياسية. فالسمات الأساسية الجوهرية والمشتركة الروحية والفكرية والمادية ليست بالضرورة تابعة أو مقيدة ومحصورة في إطار سياسي معين، أو ما يسمى بالدولة الحديثة، فقد نجد في الدولة الواحدة مجموعات ذات سمات ثقافية متعددة، وقد يشترك بعض هذه المجموعات مع مجموعات أخرى - خارج الإطار السياسي - بسمات ثقافية مشتركة

وبالمنطق السابق نفسه الذي يقول إن الثقافة غير مقيدة بالحدود السياسية، بمعنى أنها قد تختلف بين جماعات متعددة داخل إطار سياسي واحد، وقد تتطابق بين جماعات أخرى عبر الحدود السياسية - يصل الرميحي إلى مفهوم مؤداه أن محاولات توحيد «النموذج الثقافي» لاعتبارات سياسية هو في الواقع «قتل وتدمير للثقافة»، وليس تطورا لها، على أن هناك اليوم «ثقافة وطنية، وثقافة إقليمية (داخل الوطن الواحد) وتوجد ثقافة (غير وطنية) مشتركة خارج الإطار السياسي.

وتوجد أيضاً ثقافة ذات قنوات عالمية، فعالم اليوم شديد التعقيد، وسريع الاتصال، فهو لا شك تخطى الكثير من الجدران التي كانت إلى وقت قريب تحيط بالثقافات الوطنية[١].

أما سرحان فيقول إن الثقافة لا تعني تلك الصفات أو الميول التي تميز الفرد

---

(١) محمد الرميحي : الخليج ليس نفطا. دراسة في إشكالية التنمية والوحدة، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨٣م، ص ١٩١.

المتعلم من غيره من أفراد المجتمع، كما لا تعني السلوك الحميد، والذوق الرفيع لشخص يحسن التصرف مع الآخرين، أو ذلك النتاج التعليمي أو التخصصي في ميدان من ميادين العلم والمعرفة الذي بلغ في فرد ما أو مجتمع ما شأنا عظيما. فقد اعتاد الناس أن يصفوا فردا بثقافته العالية، أو مجتمعا بثقافته الأدبية أو الفنية، كالثقافة الإغريقية أو المصرية القديمة مثلا

أما الثقافة عنده فهي «كل عضوي يتمثل في طريقة الحياة في المجتمع، ذلك الكل الذي تتشابك عناصره وتتداخل، ويؤثر بعضها في بعض، ويتغير أو يتطور بتغير الزمان والمكان. وبعد أن يمر على عدد من تعريفات الثقافة يصل الكاتب إلى مفهوم شامل للثقافة يقول عنه إنه هو «طريقة الحياة في المجتمع، بجوانبها المادية كالآداب والإنشاءات والأزياء وغيرها، والمعنوية كاللغة والأدب والفن والدين وغيره». وهي من صنع الإنسان في سعيه للتكيف مع البيئة الطبيعية والاجتماعية لإشباع حاجاته العضوية والعقلية والنفسية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفنية، كما أنها تتمثل في قيم الحياة واتجاهاتها ومعاييرها الحاكمة، وفي طرق التفكير وأنماط الفكر، وفي المعتقدات والتوقعات والعلاقات التي تنظم تعامل الناس في حياتهم، وفي أنماط السلوك ومصطلحاته بين الناس في المجتمع ونظمه وأجهزته ومؤسساته. والثقافة تتناقلها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال، والتفاعل الاجتماعي، لا عن طريق الوراثة البيولوجية، وهي ما يتعلمه الخلف من السلف، عن طريق الاتصال اللغوي والخبرة بشؤون الحياة والممارسة لها، وعن طريق الإشارة والرموز (١).

ثم إن ثقافة الإنسان من صنعه، فهو الذي يسيطر على البيئة الطبيعية،

---

(١) منير المرسي سرحان في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م، ص١٢٩.

ويبحث في وسائل استغلالها والتكيف معها لتحقيق مطالبه. وذلك يعني أن الثقافة أمر متصل بالإنسان، وليست خارجة عن قوانين المادة والطاقة، وإنما هي نتاج النشاط الإنساني، وانطلاقا من علاقة الإنسان بالطبيعة وبالمحيط الذي يعيش فيه، تنبثق موضوعات النشاط الاقتصادي وتدور حول المنفعة والاستفادة، كما تتحدد وسائل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والتوزيع، وينبثق من هذا النشاط الاقتصادي كثير من العلاقات التي تنظمه، والقيم والمعايير التي تحكمه، والأجهزة والمؤسسات التي تحققه، ويتم ذلك كله في إطار الثقافة[1].

ويفرق سرحان بين المجتمع البشري وغيره من المجتمعات الحيوانية الأخرى على أساس الثقافة «فهي التي تميز المجتمع الإنساني بلغته وذكائه وإنتاجه عن المجتمعات الحيوانية» فلبعض الحيوانات كالنحل والنمل والطيور وغيرها من الكائنات مجتمعات، ولكن ليس لها ثقافة، ذلك أنها تعيش حياتها على أساس سلوكها الفطري، وتكوينها الجسماني المعد من قبل، ومن ثم فهي لا تحتاج عند ولادتها أن تتعلم من الكبار إلا قليلا، لأنها تكون قد اكتملت عندها إمكانات تكيفها مع البيئة التي تعيش فيها، لذلك تقصر طفولة الحيوان عن الإنسان[2].

(١) المرجع السابق، ص ص ١٣١ - ١٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٣١ - ١٣٢.

أما قمبر وزميلاه فيقولون: «تستعمل كلمة ثقافة بمعان مختلفة، فهي تؤخذ عادة على أنها تعني مستوى عاليا من الامتياز العقلي والفني لشخص أو مجموعة، وقد تفهم أيضا بمعنى المعارف والمعلومات الواسعة التي لدى المتعلمين تعليماً عالياً، فيعرف البعض الشخص المثقف بأنه ذلك الشخص الذي يحظى بنصيب وافر من العلم والمعرفة، فهو يقرأ الكتب والصحف والمجلات، ويعرف سير العلماء، ويتوافر لديه قسط معقول من المعرفة والعلوم والفنون والآداب»[1].

ثم يستدركون قائلين إن تعريف الثقافة بهذا الشكل، أي قصرها على النواحي الفكرية (المعرفية) يعد تعريفاً ناقصاً؛ لأنه «يهمل المكونات الأخرى للخبرة مثل المهارات والعادات والاهتمامات والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير، وما يبني على كل ذلك من أنماط السلوك والتجديدات والاختراعات والتطبيقات التي توصل إليها الإنسان خلال العصور السابقة، وتجمعت آثارها لديه في صورة ذخيرة كبرى تتوارثها الأجيال، وتنتفع بها، وتضيف إليها»[2].

ويبين لنا الكتّاب السابقون اتجاهين في فهم الثقافة ينقلونهما عن «فاروق إسماعيل»، ومن خلال هذين الاتجاهين يمكن عرض معالجة الباحثين لمفهوم الثقافة وحصر الخلافات بينهم، كما يقولون :

أ- الاتجاه الأول :

وهو الاتجاه الواقعي، ومن أقطابه «تايلور» و«بواس» و«ديكسون»، وهم ينظرون إلى الثقافة كصفة تميز السلوك الإنساني، وهم عادة ما يعرفون المفهوم

---

(١) محمود قمبر وآخران : دراسات في أصول التربية، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ص ٣٢.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٣٢ - ٣٣.

بلغة «اكتساب» العادات والتقاليد . . . إلخ . فهم يرون أن الثقافة لها وجود خاص متمايز ومستقل عن الأفراد الحاملين لها . الثقافة بالنسبة لهم «ما يفعله المجتمع ويفكر فيه» . . . وهي العناصر الموروثة خلال حياة الناس، سواء كانت هذه الموروثات مادية أو روحية . فالثقافة هنا «فوق عضوية»، أي توجد وتعمل وفق منطقها الخاص، وهي مستقلة عن الإنسان .

ب - الاتجاه الثاني :

وهو الاتجاه المثالي، ومن أبرز أصحاب هذا الاتجاه «أوسجود»، «رالف لنتون»، «كروبر»، وهؤلاء ينظرون إلى الثقافة على اعتبار أنها مجموعة من الأفكار في عقول الأفراد، أو أنها «مفهومات مألوفة ومدركة» . إن الثقافة هنا ليست شيئا متمايز الوجود بحيث يمكن لمسه . إنما الثقافة عند أصحاب هذا الاتجاه مجرد مدركات في عقول الذين يشاركون فيها، إنها بالأحرى جزء من الكائن العضوي يتخذ شكل أفكار أو آراء أو معلومات يستخدمها في تحديد السلوك الذي يستهدفه، وهذا الكلام كما سبق القول نقله قمبر وزملاؤه عن فاروق إسماعيل[1].

ثم نقرأ عن المفهوم الشامل للثقافة، حيث يقول المؤلفون السابقون : «إن النظرة الشاملة إلى الثقافة توجب علينا أن نأخذ في الاعتبار كلا من الاتجاهين المثالي والواقعي، فالثقافة عضوية وفوق عضوية معاً . فهي عضوية بمعنى أنها إدراك الناس أنفسهم للأشياء من حولهم، وخبرتهم في التعامل معها . فالثقافة

---

(١) فاروق مصطفى إسماعيل : الأنثروبولوجيا، الدوحة، قطري بن الفجاءة، ١٩٨٦م، ص ٩٣ .

في ذهن حاملها مدرك عقلي معرفي، بمثابة طريقة إجرائية Recipe تمكننا من إنتاج السلوك أو الأشياء المادية، وهذه الطريقة الإجرائية تشتمل على توجيهات وإرشادات تحدد الأداء والسلوك وتجعل للأشياء معنى.

لكن الثقافة في الوقت نفسه فوق عضوية، فهي حقيقة مستقلة عن حامليها، وليست مجرد مفهوم في عقل حاملها، إنها كينونة لها وجودها المتمايز، وتعمل وفقا لقوانينها، ولا يوجد أي تناقض في الجمع بين الاتجاهين؛ فلأن الثقافة مفهوم.. أو مركب عقلي، في عقل حامله، فهي ذات وجود مستقل، فالمفهوم المعرفي هنا إنما يشير إلى طريقة واقعية في تنظيم الظواهر والأشياء القائمة بالفعل، ولأن هناك أنسقة معرفية توجه السلوك ونتائج السلوك، فهناك أنسقة عمل (سلوك ونتائج السلوك) يؤثر بدوره في صنع المفاهيم والمدركات، والنظرة الشاملة للثقافة تقتضي أيضا إقرار العلاقة المتبادلة بين الفكر والواقع، بين الإنسان وثقافته»[١].

ونصل في نهاية رحلتنا في البحث في تحديد أصل ومعنى الثقافة، نصل إلى الجهد الكبير الذي بذلته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حين أقدمت على وضع «الخطة الشاملة للثقافة العربية»، والتي قدمت فيها بحوث كثيرة، نوقشت في اجتماعات موسعة، وخرجت في عدد من المجلدات الضخمة، بعد أن طبعت في الكويت عام ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

يقول أصحاب هذه الخطة عن الثقافة ما يلي:

---

(١) محمود قمبر وآخران، مرجع سابق، ص ٣٦.

إن البحث في الثقافة ليس بالأمر السهل، فهو نشاط إنساني بالغ التعقيد والعمق والتشعب. والمصطلح الذي يعبر عنها قد يبرر أن التعريف به في ميسور كل امرئ. . من كل مستوى، لكن هذا التعريف يظل نسبيا قاصرا عن الإحاطة، محتملا للضيق والسعة، عرضة إلى اللبس أيضا. ولعل كثرة تداول الكلمة وتعدد ميادينها وسّع مدلولها، وزاد إبهامها، وحمَّلها ألواناً من الأبعاد والمعاني والحدود [1].

وتتحدث تلك الخطة عن أصل كلمة ثقافة فتقول: «إن الثقافة بالمعنى العربي للكلمة لا تعني أكثر من سرعة التعليم والحذق والفطنة، وثبات المعرفة بما يحتاج المرء إليه، لكنها منذ مطلع هذا القرن حملت معنى اصطلاحيًّا أريد به أن يترجم المعنى الذي حملته منذ أوائل القرن الثامن عشر كلمة (Culture) اللاتينية، بعد أن لاقت هذه الكلمة «المصطلح»، رواجًا في عصر التنوير الأوروبي، وخصوصًا في ألمانيا. على أن شيوعها في الفكر العربي أدى إلى تشعب معانيها، وإلى إبهام هذه المعاني، فقد أضاعت الثقافة من وضوحها بقدر ما كسبت من الحظوة والشيوع.

والباحثون في محاولاتهم ـ منذ قرن من الزمان ـ كي يعطوا الكلمة التعريف الواحد الشامل زادوا في تعقيدها، وفي اختلاف هذه التعاريف التي فاقت المائتين عدداً. فثمة من يميل إلى دراسة الثقافة في حد ذاتها، والتنقيب عن وظائفها الاجتماعية المطلقة، مهملا الاستعانة بتاريخها وعلاقاتها مع الأفراد، وهناك من يرجح كفة التاريخ، ولا يفهم الثقافة إلا من خلال منظورها التاريخي البحت، وبين هذين المفهومين تمتد تفسيرات شتى مغايرة [2].

وتقول الخطة بأنه «لعل من أبواب الإبهام في مفهوم الثقافة اختلاطها بمفهوم الحضارة، ففي الغرب ظهرت الكلمتان في عصر واحد، هو القرن الثامن عشر،

---

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المجلد الأول، الكويت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، ص ٤١.

(٢) المرجع السابق.

وتبـاينت معـانيهما من مـوقع فكـري إلى آخر. فـالفـرق طفيف بينهما في الفكـر الفرنسي، ولكنه كان في الفكر الألماني واسعاً حتى أضحت الثقافة تختص بالمعنى الروحي والفكـري والفني والعلمي، بينما تدل الحضـارة على المعنى المادي أيضا والتقني (أي بما نستعمل)، وهكذا جرى الاصطلاح في القرن الحالي، وعلى ضوء الواقـع الأوروبي، باعتبـار الثقافة جـزءًا من الحضـارة، واعتبار الحضـارة صيغة أشمل تحتضن جملـة من الثقـافـات ترتبـط بعضها ببعض بصـلات واتصـالات معينـة. ومن هـذا المنطلق يتسع مفهـوم الثقـافـة وتختلف ممارستهـا بـاختـلاف المجتمعات وتـركيبها بين الطبقـات والفئات. وثمـة إبهام آخر يأتي من تـداخل مفهوم الثقافة مع مفهوم التقدم. وأمر التفـريق ها هنا أهون؛ لأن التقدم مفهوم تقويمي، مرتبط بـالاتجاهات الفلسفية التي بدأت منـذ عصر النهضة الأوروبية وتجسَّد في مظاهر الثورات الصناعيـة، كما أنه دوما مفهوم نسبي يقوم على تقديـر مـدى الحركـة الإنسانيـة [١].

وأخيراً يصل الذين فلسفـوا خطة الثقافـة العربية إلى كـلام واضح بخصوص مفاهيم الثقـافة، والتي يقولون إنهم يستطيعـون اختصار تلك المفاهيم العـديدة في النهاية - إلى مفهومين اثنين فقط، هما:

أ - الثقافة بـالمعنى (الأنثروبولوجي) الـذي يشتمل كل فعالية لـلإنسان تميزه من أفعال الطبيعـة. فكل نشاط ذهني أو مـادي يقوم به لـرفض التقبل السلبي للطبيعـة هو ثقـافة، اعتبـارًا من أبسط السلـوك للإنسـان البدائي حتى إنسـان العصر الإليكتروني. فالثقـافة بهذا الشكل الـواسع هي الإنسان بـوصفه فـاعلا منفعلا. ويدخل فيها كل ما أنتج البشر في الحياة من إنتاج مادي أو غير مادي، سواء أكان تراكم خبرات، أم ممارسات فكـرية، أم تصورات من عقائد روحية، أم صنع أداة الأوراق، أم تقليدا من التقاليد.

فالثقـافة ضمن هـذا المفهوم الـواسع إلى جانب كـونها سلوكًـا بشريًا وفكـريًا

---

(١) المرجع السابق.

جماعيًّا ونمـط عيش مشترك، وإلى جانب كـونها قيماً روحية، وعقـائد وتقنيات، فهي أيضا وأسـاسًا علاقـة الإنسان بمحيطه، وبمـوطنه الطبيعي، وبإبداعـاته المادية والجمالية، وبذاكرته الجماعيـة، والهيكل الشامل أو البنية العريضة للوعي بهذه العلاقة بالذاتية الجماعية.

ب - أمـا المعنى الثـاني فيرتبط بنـوع الأساليب وأشكـال القيم التي يبتكـرهـا الإنسان ليُكسب إنسانيته معناها الخاص، وينظم بها حياته الخاصة والاجتماعية والفكريـة والروحية والجماليـة. وفي هذا السياق فـالثقافة تشمل مجمـوع النشاط الفكري والفني بمعنـاها الـواسع، وما يتصل بهما من المهـارات، أو يعود عليهما من الوسائل، فهي مـوصولة الروابط بجميع أوجـه النشاط الاجتماعي الأخرى، متأثرة بها، معينة عليها، مستعينة بها [(١)].

وبهذا المعنى أيضـا فـالثقافـة تنظم جميع السمات المميـزة لـلأمة، مـن ماديـة وروحية وفكـرية وفنية ووحدانيـة، وتشمل مجموعة المعارف والقيم والالتـزامات الأخـلاقيـة المستقـرة فيهـا، وطـرائق التفكير والإبـداع الجمالي والفني والمعـرفي والتقني، وسبل السلـوك والتعـرف والتعبير، وطـرز الحيـاة، كما تشمل أخيراً تطلعـات الإنسان للمثل العليـا ومحاولاته إعـادة النظـر في منجزاتـه، والبحث الدائب عن مدلولات جـديدة لحياته وقيمه ومستقبله، وإبـداع كل ما يتفوق به على ذاتـه.

والثقافة أخيرا ـ ضمن هذا المعنى نفسه ـ تمنح الإنسان القدرة على أن يفكر في نفسه، وهـي التي تجعل منا فعـلا كائنـات إنسانيـة، مفكرة، ملتـزمة أخـلاقيًّا ومعنـويًّا، قـادرة على التقـويم. وبالثقـافـة يميز الإنسـان بين القيم، ويمارس الاختيارات، ويعبر عن صميم ذاته، ويعي ويعرف أنه مشروع غير كامل، لكنه في السبيل إلى الكمال [(٢)].

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٢.

(٢) المرجع السابق.

عناصر الثقافة :

والآن . . وبعد أن انتهينا من محاولة استقصاء جذور مصطلح الثقافة ومعرفة معانيه المختلفة، لعلنا ننتقل لنتعرف عناصر الثقافة أو مكوناتها، فهي تتكون من مجموعتين رئيستين : العناصر المادية، والعناصر غير المادية . ولعلنا نفصل فيهما بعض الشيء، آخذين في الاعتبار أن الفصل بينهما ليس أمراً سهلاً، لسبب واحد بسيط هو أن عناصر الثقافة كلها متكاملة ومتفاعلة ومتشابكة مع بعضها في آن واحد، ولكن متطلبات البحث والدراسة هي التي تجعلنا نلجأ إلى الفصل بين عناصر الثقافة بقصد الفهم والإحاطة .

أولاً :

العناصر المادية : وهذه تشتمل على الآتي :

١ - الأشياء المادية، مثل المساكن والشوارع والأسواق، وكذا وسائل المواصلات وغيرها، باعتبارها نتائج مادية للسلوك .

٢ - طرائق وأساليب التعامل مع هذه الأشياء المادية واستعمالها [١]. هكذا يقول قمبر ومن معه، وإن كنا نتحفظ هنا على العنصر الثاني؛ لأن الأساليب والطرائق قد لا يحسن إدراجها ضمن الأمور المادية، إنما هي من الأمور المعنوية، بمعنى أننا لو نظرنا - مثلاً - إلى إشارات المرور التي تنتشر في معظم مدن العالم لوجدنا أن هناك مجتمعات تحترم تلك الإشارات وما تمثله من نظام، حتى ولو كانوا في منتصف الليل، أو حتى عند الفجر حين تخف حركة رجال المرور، بينما في مجتمعات أخرى لا يعير كثير من المواطنين هذه الإشارات أدنى اهتمام .

---

(١) محمود قمبر وآخران، مرجع سابق، ص ٣٦ .

فالقضية هنا قضية سلوك، ومن ثم فهي من الأمور المعنوية، وليست من «الأشياء»، فهي جزء من التعامل مع الأشياء - إن صح التعبير - كما يقول المؤلفون السابقون، ولكنها لا ينبغي أن تندرج تحت العناصر المادية.

وفي هذا الجانب السابق يقول سرحان : «إن المخترعات والصناعات والبناء والكساء وغير ذلك من الإنتاج المادي الذي توصل إليه الإنسان لإشباع حاجاته، إنما يتحدد استعمالها والأفكار والاتجاهات والقيم التي تتمثل في حياة الناس، ومستواهم الفكري والاجتماعي والاقتصادي، لذلك لا ينبغي فصل الجوانب المادية في الثقافة عن الجوانب المعنوية؛ لأن كلا منهما تؤثر في الأخرى»(١).

«كذلك تتكامل الثقافة حين يكون هناك توازن بين كل من الإنتاجين المادي والمعنوي فيها، فلا يجوز أن يكون هناك تقدم ملحوظ في بناء المساكن ورصف الطرق مثلا، بينما يكون هناك تخلف ملحوظ في التعليم، وارتفاع في نسبة الأمية. وقد يكثر استخدام الآلات الحديثة في مجالات الحياة دون أن يصاحبه تغيير في العادات والتقاليد والمفاهيم التي تتصل بتقبل الجماعة لها، وتنظيم حياتها على أساسها، ويرتبط بهذه الحقيقة ظهور مشكلات التغير الثقافي والتوجيه الاجتماعي»(٢).

والواقع أننا قد نختلف في هذه النقطة مع الكاتب، فحديثه عن تكامل الثقافة، أي التوازن بين الإنتاجين المادي والمعنوي مفهوم ومنطقي، أما عبارته التي يقول فيها : «لا يجوز أن يكون هناك تقدم ملحوظ في بناء المساكن ورصف

---

(١) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ص ١٣٣ - ١٣٤.
(٢) المرجع السابق، ص ١٣٤.

الطـرق مثـلا، بينما يكـون هنـاك تخلف ملحـوظ في التعليم، وارتفـاع في نسبـة الأمية»، وما تلا ذلك من عبارات حديثه السابق ففيها نظر !!

لقد فـاته أن التغير حين يحدث في المجتمع يكون أسرع في الجوانب الماديـة منه في الجوانب الأخـرى، ولعل هذا هـو الحال الذي كـان ـ وربما لا يـزال في بعض أجزاء منه ـ في الخليج بالتحديد، فلقد تبنت دول الخليج العربية خططاً طموحة للتنمية خلال العشرين سنة الأخيرة، نتيجـة للطفرة البترولية الهائلة التي أعقبت حرب رمضـــان/ أكتوبـر المجيدة في ١٣٩٣هـــ ـ ١٩٧٣م، وتصحيـــح أسعار البترول. وكان من نتائج هذه الخطط أن ظهـرت نتائج العمران (المادية) بشكل سريع، جعل الخدمـات الجديـدة على المنطقـة تصل إلى كل ركن فيهـا، حيث أسست الجامعـات والمدارس، ورصفت الطـرق، وأقيمت منشـآت هـائلـة من مطارات وموانئ، بـل ومدن كاملة في بعض الحالات، وأقيمت شبكـات كاملة لـلاتصالات لا تقل عـن نظيراتها في الغرب، في الـوقت نفسـه الذي كـان تغيير الإنسان بـالتعليم وبالخدمـات الصحية والثقـافية يجري قـدر المستطاع، ولكن سرعته في التغير كانت أقل [١]، وهذا من طبـائع الأمور؛ لأن التغيير في الأمور المادية أسهل منه في البشر، ما توافرت الإمكانات.

ثانياً: العناصر غير المادية: وهذه تشمل ما يلي:

١ – اللغة، وهي أداة الثقافة ووعاؤهـا.

٢ – الفنون والآداب والعلوم وسائر أنواع المعارف التي ينتجها الإنسان.

---

(١) يمكن مراجعـة كتاب المؤلف: التربيـة ومشكلات المجتمع في دول الخليج العـربية، مشكلـة العمالة الأجنبية، معالجة إسلامية، عالم الكتب، ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.

٣ - الاتجاهات والعادات، والتقاليد والمعايير الاجتماعية والقيم.

٤ - الدين [*].

٥ - المعتقدات الشعبية، وهي ما تظهر فيما نسميه بالفلكلور أو التراث الشعبي من أمثلة، وحكم، وأساطير، وحكايات، وفنون شعبية.

- والاتجاه هو ميل عقلي نحو أشياء معينة، وهذا الميل قد يكون إيجابيا، أو سلبيا، بالحب، أو بالكراهية.

- أما العادة، فهي عبارة عن سلوك يتكرر بالوعي أو باللاوعى في موقف معين، كعادة وضع غطاء معين على رأس الرجل، أو الأكل بطريقة معينة ثابتة.

- أما التقاليد، فهي مجموعة من الطقوسيات التي تتبعها مجموعة من الناس في مناسبات معينة كالموت أو الزواج.

- أما المعايير الاجتماعية، فالمعيار هو جملة السلوكيات المتوقعة من فرد ما، في موقف معين، يؤدي دوراً اجتماعيًّا محددًا، بحكم وضعه في مكانة اجتماعية محددة في ذلك الوقت.

- أما القيم الاجتماعية، فهي الأحكام الثابتة في المجتمع على أشياء، أو سلوكيات من حيث كونها حسنة أو رديئة، طيبة أو قبيحة [١].

(*) كنا نود لو أن المؤلفين أفردوا جزءًا خاصًّا بالدين يعالج فيه وحده، على أساس أنه هو الحاكم لحياة المجتمع، المجتمع المسلم بطبيعة الحال، وبحيث لا يعامل كعنصر من العناصر غير المادية في الثقافة، وبذا يصبح مثله مثل الآداب، لأنه - وببساطة شديدة - من عند الله «صبغة الله» جل وعلا، ولذا ينبغي أن نترفع به عن أن نقارنه بما يصنعه البشر بما فيهم من نقص وقصور وتناقض.

(١) محمود قمبر وآخران، مرجع سابق، ص ص ٣٦ - ٣٧.

ولكننا هنا نختلف مع المؤلفين في تعريفهم للمعايير الاجتماعية، فلم يقل أحد بأن المعيار هو «جملة سلوكيات»، إذ المعيار أقرب للمقياس يحكم به الناس على سلوكيات الآخرين، ويتعرف الآخرون على غيرهم في ضوء المعايير التي تضعها الجماعة، ومن هنا تحكم على أشخاص بأنهم تصرفوا في ضوء تلك المعايير وعلى أساسها، كما تحكم على آخرين بأنهم لم يلتزموا بتلك المعايير.

كذلك فإن القيم أقرب ما تكون إلى المعايير، حيث يفسرها فؤاد البهي السيد على أنها معايير اجتماعية ذات صبغة انفعالية قوية، وعامة، تتصل من قريب بالمستويات الخلقية التي تقدمها الجماعة، ويمنحها الفرد من بيئته الاجتماعية الخارجية، ويقيم منها موازين يبرر بها أفعاله، ويتخذها هاديًا ومرشدًا، وتنتشر هذه القيم في حياة الأفراد، فتحدد لكل منهم خلاَّنه وأصحابه وأعداءه(*) (1).

(*) يمكن لمن يريد التوسع في هذا المجال أن يعود للكتاب الطيب الذي كتبه د. علي خليل مصطفى أبو العينين بعنوان: القيم الإسلامية والتربية، مكتبة إبراهيم الحلبي، المدينة المنورة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(١) فؤاد البهي السيد: علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤م، ص ٢٩٤.

خصائص الثقافة :

للثقافة خصائص محددة وواضحة، يمكن إيجازها فيما يلي :

١ - التكامل :

ومعناه أن عناصر الثقافة ـ في أي مجتمع . . وفي أي مستوى ـ تتكامل فيما بينها، كما أنها تتوازن، حيث نجد أن الأمور المادية في الثقافة تستند على الأمور المعنوية في المجتمع وتتفاعل معها، وإذا حدث خلل بين الجوانب المادية والمعنوية، كأن يتقدم عنصر على آخر، وهو ما يطلق عليه التخلف الثقافي Cultural Lag، إذا حدث ذلك فإن المجتمع يحاول بقدر ما يستطيع أن يصحح ذلك الخلل، وإلا ظهرت فيه المشاكل، وحلت به العلل والأمراض الاجتماعية .

٢ - التراكم :

فحيث قلنا في بداية الحديث عن الثقافة أنها مكتسبة على مر الأجيال والعصور، نتيجة احتكاك البشر بما حولهم من بيئات طبيعية وبشرية، فإن الخبرات المكتسبة تتجمع في عقول هؤلاء البشر وفي سلوكياتهم، وتنتقل هذه الخبرات الثقافية بجانبيها المادي والمعنوي من جيل لآخر، دون توقف أو انقطاع، فهي إذن مستمرة لا تتوقف، وترثها الأجيال اللاحقة من الأجيال السابقة، لذا أطلق عليها الأنثروبولوجي الأمريكي « رالف لينتون R. Linton » التراث الاجتماعي الذي يرثه أفراد المجتمع عن الأجيال السابقة» [١] .

وتقول الخطة الشاملة للثقافة العربية عن هذا الجانب المتراكم «إنها ـ أي الثقافة ـ إنجاز تراكمي متنام مستمر تاريخيا . فهي بقدر ما تضيف من الجديد، تحافظ على التراث السابق، وتجدد من قيمه الروحية والفكرية والمعنوية، وتوحد معه هوية الجديد روحاً ومساراً ومثلاً، وهذا هو أحد محركات

---

(١) زكي محمد إسماعيل، مرجع سابق، ١٤٣ .

الثقافة الأساسية، كما أنه بعد أساس من أبعادهـا»[1].

٣ – الإنسانية :

ومعنـاها أن الثقـافة تختص بـالعنصر البشري، دون غيره من مخلوقـات الله؛ وذلك – ببساطة شـديدة – لأن الإنسان له تاريخ يتذكـره ويتعظ من أحداثه، وله خبرات يستفيد منها، ويستعيدها ويعلمهـا أبناءه، فهي – الثقافة – فاصل نوعي بين الإنسان وسـائر المخلوقات، وهي كذلك وسيلة الإنسـان للالتقاء مع الآخرين من خلال عناصرهـا المختلفة واللغة خير دليل على ذلك، والتنافس في مجالات العلوم، والفنون مجال آخر لذلك الالتقاء.

إن الإنسان استطـاع بواسطة عقلة أن يفكـر، وأن يبدع ويبتكر، وأن يـواجه الظروف الطبيعية القاسية التي اعترضت حيـاته، بل وأن يتغلب عليها، بعد أن أعمل فكره فيهـا، ولذا وجدنا أنماطـاً من السلوك تعلمها الإنسان من مـواجهته للكـوارث الطبيعية، عـرفها وخبرهـا وعرف فـوائدها فعلَّمهـا أبناءه من بعـده، فقلت مخاطر تلك الكوارث، ويكفي أن نتجه ببصرنا إلى اليابان لنرى أثر الزلازل فيها اليوم ونتذكر آثارها المدمرة قبل ذلك في حياة الشعب الياباني، وننظر كذلك في أثر العواصف والأعاصير في حياة المجتمـع الأمريكي.. قديماً وحديثًا لنتبين معنى ما نقول.

٤ – التغير والتطور :

من خصائص الثقـافة أنها تتغير في المجتمع الـواحد بفعل مـا يطرأ على ذلك المجتمع من تغيرات. فـالشعب المصري – على سبيل المثـال – يعيش على أرض وادي النيل منذ آلاف السنين ولكن لا يستطيـع إنسان الادعاء بأن ثقـافة قـدماء

---

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٤٠.

المصريين كانت مثل ثقافة الشعب المصري تحت حكم اليـونانيين أو الرومان، أو مثل ثقافته حين منَّ الله عليـه بالإسلام. إن «الإنسان عبر تـاريخه الطويل يطور من عاداته وتقاليده وأساليب حياته و إنتاجه» [1].

٥ - صناعتها للإنسان :

فعلى الـرغم من أن الإنسان - كما سبق القـول - هـو صانع الثقـافة ومبتـدع عناصرها على مر التاريخ، إلا أنها تعود هي فتصنعه وتشكله حسب آخر أنماطها التي وصلت إليهـا. إن الطفل الصغير إنما يـولــد في ثقـافـة، وهي التي تشكل سلوكـه ومفاهيمه واتجاهاتـه . . . فيتعلم الطفل - بالوعي وبـاللاوعى - أنماط السلوك من الأسرة، ومن غيرها مـن المؤسسات الاجتماعية في المجتمع، ولا يقبل المجتمع من سلوك الفرد إلا ما يتفق مع ثقـافته السائدة، والمجتمع لا يتهاون في ذلك على الإطـلاق.

«إن الإنسان حينما يولد في ثقـافة يتأثر بها، وخلال حياته اليـومية يتفاعل مع بيئته المحيطة فيؤثر في ثقافته. فبين الإنسان وثقـافته علاقة جدلية، تأثير وتأثر، وتتغير الثقافـة حينما يُجمع الأفراد على التغير ويقبلـونه» [2]، والأجيال الجديدة من أفـراد المجتمع تصنع وتصهر داخل هـذه الثقافـة الجديدة بكل ما فيهـا من تغير قد لا تكـون الأجيال السابقـة قد مرت فيـه أو خبرته، وهذا معنى قـولنا إن الثقافة تصنع الإنسان على الرغم من أنه هو صانعها ومبدعها.

٦ - الانتقــاء :

---

(١) محمود قمبر وآخران، مرجع سابق، ص ٣٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠

مما لا شك فيه أن الخبرات التي مـرت بالإنسان، في مجتمعاتـه المختلفة كانت هائلـة كثيرة ومتنوعة، ورغم أنـه سبق القول بأن الثقافـة تراكمية، إلا أنـه مما لا شك فيه أن الإنسان قد قام بعمليات انتقـاء كثيرة داخل عناصر ثقافته، فلو أن كل خبرة مر بها الإنسـان حافظ عليها وأبقـاها في ذاكـرته أو في سجلاتـه لعجز اليـوم عن حصرهـا والـوقوف عليهـا جميعـاً، ومن هنـا فـلا بـد من التسليم بأن الإنسان قـد قام بعمليـات انتقائيـة واسعة لما تجمع لـديه مـن عناصر ثقـافية في الوقت الراهن.

يقـول سرحـان : «ويتميـز المجتمع الإنسـاني بقـدرتـه على انتقـاء الخبرة من رصيدها المتراكم عبر الأجيال، مكونـاً بها رأس المال الذي يتعامل به الإنسان في انتقالـه من مرحلة الطفـولة إلى مرحلـة الرجولـة الاجتماعية»، وذلك كما نقل عن حامد عمار في «بعض مفاهيم علم الاجتماع»[1].

٧ - الإنسان صانعها :

فهو الذي يسيطـر على البيئة الطبيعية (بفضل العقل الـذي منحه الله إياه)، ويبحث في وسائل استغلالها والتكيف معهـا لتحقيق مطالبه. إن ذلك يعني أن الثقافـة أمر متصل بالإنسان، وليسـت خارجة عن قوانين المادة والطـاقة، وإنما هي نتاج النشـاط الإنساني. وانطـلاقا من عـلاقة الإنسـان بالطبيعـة وبالمحيط الذي يعيش فيه، تنبثق موضوعات النشاط الاقتصادي وتكون حول محور المنفعة والاستفـادة، كما تتحـدد وسائل الإنتـاج والاستهـلاك والاستثمار، والتـوزيع، وينبثق من هـذا النشـاط الاقتصادي كثير مـن العلاقـات التي تنظمـه، والقيم والمعايير التي تحكمه، والأجهزة والمؤسسات التي تحققه[1].

---

(١) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ١٣٣.

ملحوظة مهمة :

وهذا الجزء - خصوصًا - الخاص بصناعة الإنسان للثقافة هو الذي يؤكد ما ذكرناه قبل ذلك عن ضرورة فصل **الدين** عند الحديث عن عناصر الثقافة من فن ولغة وغيرها؛ لأنه إذا كانت عناصر الثقافة من صنع الإنسان فالدين ليس كذلك على وجه اليقين؛ لأنه نزل من فوق سبع سموات . . من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا هو الفهم الصحيح الذي ينبغي أن نقيِّد أنفسنا به نحن المسلمين، حتى وإن قال جميع علماء الغرب أو الشرق بغير ذلك.

٨ - شموليتها لكل مجتمع :

من الخصائص المهمة للثقافة أنها شاملة لكل أفراد المجتمع وطوائفه، بغض النظر عن غنى بعضهم أو فقرهم، وكذا بغض النظر عن تعليمهم أو جهلهم، واشتغالهم بالأعمال المنتجة للثقافة من آداب وفنون، أو كونهم مستفيدين مما ينتجه غيرهم، إنها إذن تشمل «النخبة من الجماهير الواسعة . . أي المبدعين من أي منبع أو نشاط كانوا، كما تشمل المستفيدين من الثقافة على حد سواء»، كما تقول بذلك الخطة الشاملة للثقافة العربية [١]. فالمجتمع كله ـ بهذا المعنى ـ إما منتج مفكر مبدع، وإما عامل نشيط منتج، وإما طالب علم مجد مجتهد، وإما طفل نام في طريقه للنضج، والجميع مستفيدون من جهود بعضهم البعض، والمحصلة النهائية غنى المجتمع بثقافته وتطورها بفضل ما يتراكم لدى مؤسساته ومنظماته وهيئاته من عمل كل هؤلاء الأفراد.

٩ - خاصية الاستمرار :

---

(١) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ١٣٢ .

(٢) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٤٣ .

طالما أن الثقافة تتراكم في المجتمع، نتيجة خبرات أفراده.. مع عناصر الطبيعة، أو مع أفراد مجتمعه، أو المجتمعات الأخرى، فمعنى ذلك أنها مستمرة، من جيل إلى جيل، وعلى الرغم من فناء الأجيال المتعاقبة إلا أن الثقافة تبقى من بعدهم لتتوارثها الأجيال من بعضها ولتضيف إليها كل يوم جديدا، وهذا التوارث للثقافة - بعناصرها المختلفة - هو الذي يؤدي إلى وجود ما يعرف باسم «التراث الاجتماعي Social Heritage الذي يرثه أفراد المجتمع، أو بمعنى أصح أجيال المجتمع اللاحقة من الأجيال السابقة، كما يقول «رالف لينتون R. Linton الأنثروبولوجي الأمريكي المعروف، وكما ينقل عنه إسماعيل قوله بأن للثقافة قدرتها الهائلة على الانتقال التاريخي داخل المجتمع الواحد، بل وحتى من مجتمع إلى آخر [1].

١٠ - الثقافة فكر وعمل:

حينما وجد الإنسان على سطح هذه الأرض كان عليه أن يفكر، وأن يعمل، حتى يستطيع البقاء، ومنذ اللحظة الأولى التي واجهته فيها مشكلة، كما يعلمنا القرآن الكريم، وكانت مشكلة دفن الموتى، أرسل الله للإنسان غرابًا ﴿ **يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه** ﴾، وقد اعترف بعجزه أمام هذا الطائر ﴿**يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي فأصبح من النادمين**﴾، ولكنه تعلم الدرس.. بعد أن فكر فيه بعقله، نتيجة للخبرة السيئة التي مرت به. ومنذ ذلك الوقت وهو يفكر.. ويعمل «إن أي عمل إنساني لا يتم إلا إذا كان ترجمة لأفكار معينة، كما أن العناصر المادية على اختلاف أشكالها وطرزها لا تخرج عن كونها أفكارًا تجسدت في أعمال...

---

(١) زكي محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٤٤.

والـدين الإسـلامي لا يتمثل في العقيـدة وحـدهـا ، وإنما يتجلى في المعـامـلات والعبـادات والشعـائر التي يقـوم بها الإنسـان المسلم امتثـالا لأوامـر الإسـلام ونواهـيه»[١].

١١ - الثقافة نسيج معقد :

تشتمل الثقـافـة على عـدد كبير من السمات والمركبـات والنظم والأنسـاق والأنماط الثقافيـة ، وذلك لتراكم التراث الثقافي واستمـراره عبر عصور طـويلة ، وكـذلك لاستعـارة عـديـد مـن السمات والأنماط الثقـافيـة من خـارج المجتمع نفسه . . . ويـرجع تعقد وتشابك العنـاصر الثقافية إلى أمر مهم ، هـو أن القدر الأكبر من السلـوك البشري ليس مجرد تجمع عشـوائي من الأنشطـة التي تمثل أنساقـا ترتبط ببعضها البعض ، وإنما يتم هـذا الارتباط الوثيق من خـلال ارتباط وتنسيق دقيق لهذه العنـاصر التي تتـداخل وتتشـابك فيما بينهـا بحيث لا يفهم نمط منها إلا بارتباط الأنماط والعناصر الأخرى به [٢].

١٢ - الثقافة قابلة للانتشار :

كثيراً ما تكون المخترعـات والاكتشافات ، بطبيعتيها المادية والاجتماعية ، من إنتـاج فـرد أو جماعـة في بادئ الأمـر ، فإذا بقيت على هـذا المستـوى الفـردي أو الجماعي تـلاشت بمـوت الفرد أو الجماعـة التي اكتشفتهـا . ولكنهـا تنتشر عن طريـق الأفراد ، داخل المجتمع الـواحد ، أو عن طـريق الجماعات الإنسـانية في المجتمعات .

وانتشار هذه المخترعات يتم عادة على أساس احتوائها كعناصر ثقافية جديدة داخل الكيان العام لثقـافة المجتمع ، فالانتشار هو انتقال عنـاصر ثقافية داخل

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

الثقافة نفسها من جزء إلى أجزاء أخرى لتشمل كل الثقافة، أو انتقال هذه العناصر الثقافية من ثقافة مجتمع إلى ثقافة مجتمع آخر. ويكون الانتشار مباشرا عن طريق احتكاك الأفراد والجماعات ببعضها البعض داخل المجتمع الواحد، أو عن طريق احتكاك المجتمعات ببعضها البعض. [١]

ويكون الانتشار سريعا وفعالا حين تبدو أهمية العناصر الثقافية المنقولة، إذ يتوقف قبولها في المجتمع على ما تتميز به من فائدة له، كأن تكون قادرة على حل مشكلة معينة، أو قادرة على إشباع حاجة لأفراده فتزداد درجة انتشارها وتكاملها داخل الإطار العام لثقافته، لذلك فإن انتشار العناصر الثقافية المادية كالمخترعات والأدوات والمنتجات الصناعية يكون أكثر في سرعته من انتشار العناصر الثقافية غير المادية كالمفاهيم والاتجاهات والعادات السلوكية وغيرها مما يتصل بأنماط السلوك في الثقافة[٢]. ولعل مثال انتقال المخترعات المادية وانتشارها في دول الخليج العربية يبين ما سبق بوضوح، حيث تعج شوارع الخليج وطرقاته بالسيارات من كل شكل ولون، وحيث تنتشر المحلات الضخمة (السوبرماركت) التي تمتلئ بكل ما هو موجود في العالم الغربي من ماديات، بينما لم تستطع القيم والاتجاهات الغربية أن تخترق مجتمعات الخليج بالقدر نفسه الذي فعلته العناصر المادية، وإن كانت هناك - للأمانة - بوادر مقلقة في هذا الشأن. وسوف نتعرض لها عند الحديث عن «الغزو الثقافي» إن شاء الله.

١٣ - حركية الثقافة :

وقد يكون هذا المصطلح غريبا بعض الشيء، ولكننا نقصد وضع الثقافة من

---

(١) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ص ١٤٧ - ١٤٨.
(٢) المرجع السابق، ص ص ١٤٨ - ١٤٩.

حيث هي ديناميكيـة متحركة، أو استاتيكيـة ساكنة، ومعروف أن الجمـود التام معناه الموت، ولذلك فحينما نقول إن ثقـافةً ما ثقافةٌ جامـدة أو ساكنة فلا يعني ذلك أنها ثقـافـة ميتـة لا حـراك فيهـا، ولكن معنـاه أنها ثقـافـة هـادئة الحركـة لا تـنزع إلى السرعـة والحـركـة النشيطة، وأن حيـاة الأفـراد فيهـا شبه ثابتـة وأدوارهم الاجتماعيـة محفـوظة أو هـي شبه محفـوظـة. . التغير فيها يسيرٌ جـدًّا ومحـدود، وهذه عـادة هي ثقـافـة المجتمعات البـدائيـة، وتقترب منهـا ثقافـة المجتمعات الـريفية البعيدة عن المدن، والبعيدة من ثم عن التأثيرات المتسـارعة للأحداث.

وعكس ذلك، بطبيعة الحال، ثقافـة المجتمعات الحية الدينـاميكية المنفتحة على الثقافات الأخرى بكل تياراتها. تتأثر بها، وتؤثر فيها، تأخذ منها وتعطيها، وهي بذلك تسـاير روح العصر وتقدمه العلمـي والتكنولوجي، كذلك نجـدها تأخذ بـالنظام الديمقـراطي لأسلوب حياة يـرقى بالمجتمع، وينهض بأوضـاعه الاقتصادية والسياسيـة والاجتماعية، ويمكن أفراده من الحراك الاجتماعي، ومن ثم تقل المسـافـة الاجتماعيـة Social distance بين أفـراده وجماعاتـه وطوائفـه وطبقاته. . . وتتمثل الثقافة المتغيرة بصفة عـامة في ثقافة المدن. . وفي الثقافات التقدمية، بعكس القرى والثقافات البدائية [1].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٥٠ - ١٥١.

١٤ - الثقافة تكتسب بالتعلم :

يقول إسماعيل «لما كانت الثقافة تاريخية المنشأ . . أي إنها تكونت على مدار التاريخ البشري، وقد شارك فيها أفراد الجماعة ككل، أو في جانب معين منها، فإن هذا الانتقال يتم عن طريق التعلم والتقليد، من جماعة لأخرى، أو من فرد لأفراد آخرين، عبر الزمان والمكان الأمر الذي جعل الثقافة وسيلة للاتصال بين الأجيال المختلفة، وليس بين أفراد الجيل الواحد، ولا يتم هذا الانتقال عن طريق الوراثة البيولوجية، وإنما يتم عن طريق التنشئة الاجتماعية Socialization، أو التنشئة الثقافية Enculturation، تلك التي بموجبها تنتقل الثقافة من جيل لآخر. . . إن الطفل الإنساني يولد صفحة بيضاء، تخط عليها الثقافة بصماتها المتمثلة في أنماط السلوك، وطرائق العادات، وطبيعة القيم والأخلاقيات من خلال نموهم في المجتمع وفي إطار تنشئتهم الثقافية والاجتماعية في محيط الأسرة والجماعة والمجتمع والدولة. يقول الرسول ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، ثم يقول اقرأوا ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (١). (رواه أبو هريرة).

---

(١) زكي محمد إسماعيل، مرجع سابق، ص ١٤٠.

مكونات الثقافة

إذا كانت هذه هي الثقافة، من حيث نشأتها وجذورها، ومن حيث معانيها المختلفة، وكذا من حيث خصائصها، فما يا ترى مكونات تلك الثقافة؟ لعل الصفحات القليلة القادمة تجيب عن هذا التساؤل.

أ - العموميات : Universals

وهي تمثل ذلك القدر المشترك بين أفراد الجماعة والأكثر أهمية من مكونات الثقافة، حيث تشتمل على الدين واللغة والعادات والتقاليد والقيم والمعايير التي تحكم تصرفات الأفراد داخل المجتمع، وتأتي أهمية هذه العموميات من كونها هي التي توحد أبناء المجتمع الواحد، وتؤلف بينهم، وتعطيهم طابعهم الخاص الذي يفرق بينهم وبين غيرهم من المجتمعات أو الشعوب، كما أن هذه العموميات هي التي تعمل على تماسك أفراد المجتمع وعلى شدة تعاضدهم مع بعضهم، وخصوصاً في أوقات الأزمات الشديدة، أو الحروب بينهم وبين الآخرين، فهنا تبدو قيمة تلك العموميات في ضم أفراد المجتمع مع بعضهم البعض، وتقريب مشاعرهم، وبعث حبهم لبعضهم البعض، وحرصهم على الصالح العام لمجتمعهم، وخصوصًا في أوقات الأزمات والحروب والصراعات؛ لأنه من المعروف أن العدوان الخارجي يوحد القوى الداخلية للمجتمع، ودائما ما تلجأ الجماعة إلى هذه العموميات تتعلق بها، بل وتنتصر بها. وكان رسول الله ﷺ يطلب من أصحابه أن يكثروا من ذكر الله، سبحانه وتعالى، عند لقاء العدو، ومعنى ذلك أنه كان يلجأ إلى عنصر «الإيمان» يبثه في نفوس أصحابه، حتى يثبتوا في وجه أعداء الإسلام، **ومعروف أن الدين - في المجتمع المسلم - هو أول أمر في تلك العموميات**، ودول اليوم تحاول - خصوصاً من خلال الإعلام -

أن تذكر أبناءها بماضيهم، وأن تذكرهم بما يجمعهم ويربطهم ويوحدهم (أثناء الأزمات)، وهي تلك العموميات.

كذلك يمكن القول إن هذه العموميات Universals هي التي تعطي المجتمع لونه الذي يميزه عن غيره من المجتمعات، أو بعبارة أخرى، هي التي تشكل شخصيته، فلكل مجتمع شخصيته تماما مثل الأفراد، ويستطيع أفراد المجتمع الواحد أن يتعارفوا، بل أن يتجاذبوا إلى بعضهم، خصوصاً عند تواجدهم خارج مجتمعاتهم، بحيث يعرفون بعضهم البعض بيسر وسهولة، دون أن يكون بينهم سابق معرفة شخصية.

ب - الخصوصيات **Specialities** :

وإذا كانت العموميات تشمل كل أفراد المجتمع بجميع مستوياتهم التعليمية والعلمية والثقافية والاقتصادية، فإن الخصوصيات شيء آخر، إذ تختص بها طوائف معينة من أبناء المجتمع يمتلكون مهاراتها، ويتحكمون في أسرارها، ويعرفون طرق التعامل بها، فهي - بذلك - وقف عليهم، وحكر خاص بهم، لا يدخل من أبوابها إلا من تأهل لها، وسمحت له قدراته بالمرور من خلال متطلباتها، حيث لها لغتها الخاصة بها، وقواعدها التي ينبغي الالتزام بها، بل وأساليبها في التعامل والتخاطب.

هذا ويقسم البعض هذه الخصوصيات إلى نوعين هما :

١ - الخصوصيات المهنية :

وهي التي تستلزم لممارستها خبرات ومهارات فنية، ومصطلحات سلوكية، دون اعتبار لأصحاب هذه المهارات من الأفراد، فهي ليست وقفا عليهم ـ كما يقول سرحان ـ بل تسمح بدخول أفراد الفئات الأخرى (كان ينبغي القول : لأفراد المجتمع الآخرين) للعمل فيها، فالعمل الصناعي والزراعي،

والاشتغال بالطب والمحاماة والتدريس ليس قاصرا على فئة بعينها من الناس، بل هو عمل مسموح به لمن يشاء من أفراد المجتمع (كان ينبغي القول: لمن يقدر عليه ويمتلك مهاراته وفنونه من أفراد المجتمع).

نخلص من ذلك إلى أن فئات الناس في هذا القسم ليست ثابتة، وأن كل نوعية عمل تخصصية تكسب المشتغلين بها أنماطا شخصية معينة، ومصطلحات سلوكية تختلف عن مثيلاتها في أنواع الأعمال الأخرى، وبازدياد العلم وتقدمه، وبتطوير الحياة - وخصوصًا في جانبها الصناعي (التكنولوجي) نجد زيادة في تقسيم العمل، وتعمقا في تخصصاته المتشعبة، ومن ثم فإن هذه التخصصات الفنية تزداد، وتزداد معها - من ثم - خصوصيات الثقافة[1].

٢ - الخصوصيات الطبقية:

وهذه تقتصر على فئات معينة في المجتمع، فهناك - في كل مجتمع - الطبقة الراقية، أو الأرستقراطية، والطبقة المتوسطة، ثم طبقة قاع المجتمع، والتي يطلق عليها البعض طبقة الرعاع أو الدهماء، «وكل واحدة من هذه لها قيمها واتجاهاتها، وكذا مصطلحات سلوكها وآدابها ومعاييرها الخاصة المنظمة لحياتها، والمتحكمة في علاقاتها بغيرها من الطبقات، فالاهتمامات الخاصة بالطبقة الراقية مثلا تنعكس في اختيارها لأساليب وأدوات وأماكن شغل وقت فراغها، وفي متابعة الموضات في الأزياء، وموديلات السيارات، وفي تفضيل أنواع من المأكولات والمشروبات، والالتزام بمراسيم وشكليات حضور الحفلات والسهرات وغير ذلك مما لا تقدر عليه الطبقات الاجتماعية الأخرى»[2].

---

(١) منير المرسي سرحان، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(٢) المرجع السابق، ص ص ١٤٠ - ١٤١.

والفرق بين الخصوصيات الطبقية والخصوصيات المهنية يكمن في إمكانية الدخول في هذه الخصوصيات ومعايشتها، فبينما يكون الدخول في الخصوصيات المهنية مباحا لجميع فئات المجتمع ما توافرت لديهم الاستعدادات والرغبات والمؤهلات العلمية المناسبة، نجد أن ذلك أمر عسير بالنسبة للدخول في الخصوصيات الطبقية. وتتسم الخصوصيات الثقافية بنوعيها بأنها ليست قدراً مشتركا بين جميع أفراد المجتمع، ومع ذلك فإن كل فرد في المجتمع يعرف عنها بقدر، فالناس يعرفون أهمية الطب في حياتهم، ويقدرون دور الطبيب، ويتفهمون بعض اتجاهاته ومقاصده في علاج مرضاهم، ولكنهم لا يعرفون دقائق عمله الفني ولغته العلمية؛ لأنها قاصرة على أفراد مهنته» (١).

٣ - المتغيرات Alternatives :

ويطلق عليها البعض لفظ «البدائل» بدلا من المتغيرات، وهي لا تنسب إلى عموميات الثقافة بحيث تشيع بين جميع أفراد المجتمع وطوائفه وجماعاته، ولا إلى خصوصيات الثقافة بحيث تكون قاصرة على فئة بعينها أو طائفة من طوائف المجتمع، وإنما هي أمور مستحدثة تأتي للمجتمع - في الغالب - من خارجه، نتيجة للاحتكاك المباشر بينه وبين مجتمعات أخرى ذوات ثقافات مختلفة.

وأهمية هذه المتغيرات أنها تمثل الأطراف التي تنمو الثقافة بواسطتها أو من خلالها، فحينما تظهر إحدى هذه المتغيرات فإنها تسبب قلقا في المجتمع، أو على الأقل في بعض قطاعاته؛ لأنها جسم غريب يوشك أن يستقر في جسم المجتمع، وعادة ما تكون هناك مقاومة مبدئية من المجتمع لذلك، ولكن إذا أثبتت المتغيرة الجديدة أنها ذات فائدة واضحة للمجتمع، أو أنها حلَّت إحدى

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٤١ - ١٤٢.

مشكلاته التي كانت تجابهه فإنها تكون قد ثبتت أقدامها فيه، فإذا كانت فائدتها تعود على طائفة معينة ــ بالتحديد ــ من أبنائه صارت من خصوصيات ذلك المجتمع، أما إذا برهنت على أنها مفيدة ونافعة للمجتمع كله فحينئذ تصبح من عمومياته، وتدخل في نسيجه، وتصبح جزءًا من ثقافته لا ينفك منها، ولا يتجزأ بعيدًا عنها.

ولعل مثال «السيارة» ودخولها إلى مجتمعات الخليج العربي يوضح هذه الفكرة، فلم يكن أفراد المجتمع يعرفون وسيلة للانتقال بين مدنهم وقراهم والهجر سوى السير على الأقدام أو ركوب الجمال وغيرها، ولكن حينما دخلت السيارة لأول مرة في حياتهم فما لا شك فيه أن كثيرين منهم تعجبوا لها للمرة لأولى، وكثيرين منهم - كذلك - أجفلوا منها وخافوا من استعمالها. كذلك فإن بعضهم حذر نفسه وغيره منها، ومن ركوبها، خصوصاً بعد أن وقعت بعض الحوادث التي راح ضحيتها بعض الأفراد والضحايا.

ولكن وبعد مرور قليل من الوقت أثبتت السيارة أنها عنصر «متغير» نافع، بل شديد النفع، خصوصًا إذا أخذنا في الاعتبار المسافات الشاسعة في الجزيرة العربية، وبالتحديد في المملكة العربية السعودية، وإذا أخذنا في الاعتبار كذلك الكم الهائل من المصالح التي بدأت تقضيها السيارة بأشكالها المختلفة، وبالذات بعد أن أنشئت لها شبكات هائلة من الطرق الرائعة. ولذلك فإنه ليس غريبا الآن أن صار كل بيت في دول الخليج يمتلك أكثر من سيارة، **وأصبح هذا المتغير الثقافي الجديد جزءًا من عموميات الثقافة الخليجية، يهتم به الكبار والصغار على السواء، ويستوردون منه أحدث الطرز والأنواع.**

هذا عن المتغيرات في جانبها المادي، وقدر رأينا أنه يدخل إلى ثقافة المجتمع بسرعة، بقدر ما يثبت فائدته ومنفعته، ولكن هناك متغيرات معنوية، فلو أن

مجموعة من الشباب من أبناء مجتمع ما، من مجتمعات الخليج المحافظة، ذهبت إلى الخارج بقصد السياحة أو الدراسة مثلا، وعادت ومعها بعض الأفكار الإباحية التي يعج بها الغرب أو الشرق، وتسمح بها مجتمعاتها، ثم حاول أفراد هذه المجموعة أن يدخلوها ـ كمتغير ثقافي جديد ـ إلى مجتمعهم المحافظ فإنها بلا شك سوف تقابل بالرفض، من جميع أفراد المجتمع، أو من النسبة الغالبة منهم على الأقل، وسوف تكون النتيجة هو فشل هذا المتغير الجديد في غزو المجتمع أو في البقاء على أرضه، ولا يكون المصير إلا أن تذوي وتذبل.. ثم تموت، ومن هنا يصدق قول سرحان : «إن المتغيرات المتصلة بالجوانب المادية في الثقافة يسهل استقرارها نتيجة سرعة تقبلها من أفراد المجتمع، نظرا لفعالية وظيفتها وظهور أثرها سريعا.

بينما نجد العكس في استقرار المتغيرات المتصلة بالجوانب المعنوية في الثقافة كالقيم والاتجاهات الفكرية والخلقية والعادات والتقاليد الاجتماعية، نظرا لصعوبة تكيف الأفراد معها، والاستبدال بالعلاقات القائمة فعلا علاقات أخرى. وهكذا نجد أن المتغيرات قد تستقر سريعا، أو قد تبقى مترددة حائرة متنافسة، أو قد تردى ليقوم مقامها أخرى تمر بالدور نفسه، وهكذا[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ١١٤.

وظائف الثقافة

للثقافة وظائف مهمة في حياة المجتمع يمكن إيجازها في النقاط التالية :

أولاً :

أنها تميز المجتمعات البشرية عن بعضها ، وتوضح السمات العامة التي يتصف بها كل مجتمع ، ولا نقول إن الثقافات تجعل مجتمعا أفضل ، أو أكثر رقيا ، فكل مجتمع متفرد بثقافته ، معتز بها ، بل ومدافع عنها عند اللزوم . إن الثقافات تتمايز فيما بينها ، ولكنها لا تتفاضل ، على الأقل من وجهة نظر أصحابها .

ثانياً :

تعمل الثقافة على تماسك البناء الاجتماعي داخل المجتمع ، حيث يعرف كل شخص موقعه داخل جماعته ، ومن ثم يؤدي أدواره الاجتماعية المطلوبة منه ، دون أن يتصادم مع غيره من الأشخاص . إن شغل الأشخاص للمراكز الاجتماعية ، وممارسة الأدوار المرتبطة بها يتم على أساس توقعات المجتمع من الأفراد ، وذلك يساعد على تماسك المجتمع وإزالة عناصر الصراع فيه .

ثالثاً :

تشكل الثقافة بعداً نفسيًّا Psychological مهمًّا للفرد داخل جماعته ، حيث يشعر بالأمان حين يكون بينها ؛ لأنه يتعامل مع أفرادها على أساس الأطر والأنساق والنظم والقيم التي ارتضتها لنفسها ، وتشربه منها خلال تنشئته الاجتماعية الطويلة منذ الطفولة ، كما أنه يشعر بالأمان النفسي حين يكون خارج جماعته ويلتقي بنفر من أبناء ثقافته يحس بأحاسيسهم ويشعر بشعورهم . إن الطمأنينة النفسية ، وإشباع الحاجة للأمن من أهم وظائف الثقافة .

رابعاً :

توضح المعايير والقيم التي تتبناها جماعة بعينها، داخل ثقافة معينة، توضح للفرد حدود علاقاته وتعاملاته مع الأفراد والمنظمات والهيئات داخل تلك الجماعة والمجتمع، ومعرفة هذه الحدود والالتزام بها أمر مهم للطرفين : الأفراد والمنظمات والهيئات؛ حيث يسلك كل منهم على بينة من أمره، مما يجعل الحياة والعمل والتفاعل تسير بهدوء وسلاسة دون تعقيدات أو تصادمات .

خامساً :

تعمل الثقافة على إيجاد اهتمامات مشتركة بين أفراد المجتمع، ووجود الأهداف المشتركة، والسعي نحو تحقيق تلك الأهداف يربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض، بل ويكسبهم الشعور بالانتماء والتضامن والتعاون، ومن ثم يجنبهم الصراع والتمزق، ويحقق بينهم روح الجماعة الواحدة. ووجود هذه الروح دافع رائع لإنجاز المعجزات، وخصوصًا إذا كانت هناك أهداف يجمع الكل على تحقيقها ويسعون لذلك بكل جهدهم وطاقتهم.

سادساً :

تحفظ الثقافة للمجتمع تراثه القديم، وتقوم بنقله عبر الأجيال المتعاقبة من القديم إلى الحديث إلى الأحدث، ولولا هذه العملية لانقطعت الصلة بين الأجيال الحالية في مجتمعاتها وبين ماضيها، ولضاعت - في الوقت نفسه - خبرات هائلة مرت بها الجماعات البشرية في صراعها الطويل مع الطبيعة، ومع بعضها البعض، ولكان على كل جيل أن يبدأ من جديد، وأن يكتسب خبراته بنفسه.

سابعاً :

تحدد الثقافة ذات الإنسان وعلاقاته مع نظرائه، ومع الطبيعة، ومع ما وراء

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ٤٠ .

الطبيعة (؟؟) - كما تقول الخطة الشاملة للثقافة العربية - من خلال تفاعله معها وعلاقاته بها، في مختلف مجالات الحياة [1]. ولا ندري لماذا لا يقول من أسهموا في تلك الخطة شيئاً من علاقة الإنسان بخالقه مباشرة، وخصوصًا في مجتمعنا العربي المسلم، بدلاً عن الحديث عن «ما وراء الطبيعة» ؟؟ !!

ثامناً :

هي قوام الحياة الاجتماعية . . وظيفة وحركة، فليس من عمل اجتماعي، أو فني جمالي، أو فكري يتم إنسانيًّا خارج دائرتها، وهي التي تيسر للإنسان سبل التفاعل مع محيطه مادة وبشراً ومؤسسات [1].

تاسعاً :

هي وسيلة وحدة الأمة (المجتمع) لأنها هي التي تنسج وحدة التكوين الداخلي فيها، وتوحد في أعماق الذات نماذجها البشرية وقيمها، وتجمع أفرادها على الالتزام بمصيرها التضامني الواحد.

عاشراً :

هي وسيلة تأكيد للذات وللتمايز عن الآخرين (وليس للتميز. . فالفرق كبير)، وهي بقدر ما تقرب المرء من قومه تبرز من خلاله عبقريته الخاصة، وتكشف عن تباين باقي البشر وتفرده الإنساني عنهم [2].

وإذا كنا نقبل فكرة التمايز، بمعنى الاختلاف إلا أن فكرة تفرد الإنسان عن باقي البشر هذه التي يقول بها واضعو خطة الثقافة العربية يصعب قبولها. حقيقة لكل إنسان سمات وقدرات تختلف عن الآخرين، ولكن ليس لدرجة «تفرد إنسان واحد عن جميع البشر» . . . ويكفي أن الله سبحانه وتعالى يقول في محكم آياته على لسان سيد الخلق أجمعين ﷺ : ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم**﴾.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٣.

حادي عشر :

الثقافة وسيلـة أمان واطمئنان لأفراد الأمة الواحـدة (المجتمع الواحد)، فهي أكثـر النشاطـات اتصالا بكـرامة الإنسـان، وأعمقها تأكيـدا لذاتـه، وتقريـرًا لشخصيتـه. إنه لا يمارس حـريتـه إلا من خلالها (وذلك لا يحدث طبعـا إلا في المجتمعات التي تحترم حـرية الإنسان وتحافظ على كرامتـه، ولا تهدد آدميته التي كرمه الله بها)... ﴿ **ولقد كـرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحـر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممـن خلقنا تفضيلا** ﴾، ولا يشعر بتحقيق ذاته إلا فيها، ولا تنتفي عنه الغربة إلا في محيطها وضمن قيمهـا [١].

ثاني عشر :

هي وسيلة دفـاع، وحصن أمان في اللحظات المصيرية؛ لأنها آخـر ما يمكن انتزاعـه من النفوس [٢]. والـواقع أن هذا القـول ينطبق خصـوصاً على جـانب الإيمان في حياة الأفـراد؛ فهو الملجأ الأخير الـذي يلجأ إليه الإنسـان، ويعتصم به. ولعل مـا يجري في «البوسنة والهرسك والشيشان»، هـذه الأيام من اعتصام المسلمين بدينهم أمام الصرب المجرمين والـروس الملحدين يوضح دور الإيمان في حياة البشر، وقد سبق ورأينا الأعاجيب في الصراع بين الحق والباطل، بين الكفر والإيمان في معارك الإيمان في كل من الجزائر ضـد فرنسا وأفغانستـان ضد الاتحاد السوفييتي، حين احتمى المسلمـون بدينهم وإيمانهم وقاتلـوا أهل الشرك والكفر ودافعوا عن دينهم وعقيدتهم، وعن أوطـانهم، ودافعوا عن أراضيهم حتى أتاهـم نصر الله المبين، وهـو نفس مـا يجرى الآن في الأرض المقدسـة.. فلسطين، بين النفر المؤمن من الفلسطينيين واليهود الملعونين إلى يوم الدين.

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤.



الفصل الثالث

الثقافة في الخليج

الثقافة في الخليج

من المسلم بـه أن الثقـافة ـ في أي مجتمع ـــ هي ثمرة تفاعلات هذا المجتمع، مع نفسـه ومع البيئة المحيطـة به، وقـد سبق الحديث في النبذة التي قـدمت عن الخليج أن قلنا إن هذا الخليج يقع في مكـان متميز؛ حيث تطل دوله على البحر العــربي الـذي هو جــزء من المحيط الهنـدي، ومن نـاحية أخـرى على البحـر الأحمر.

ولهذا الواقع ميزات، تتعلق بميدان الثقافة، لعلنا نمر عليها سويًّا مرًّا سريعًا حتى نـرجع الأمـور إلى جذورهـا التـاريخية والجغـرافيـة، أو إذا أردنـا الدقـة . . الجغرافيـة والتاريخية، حيث الجغـرافيا أسبق من التاريخ، إذ هي مسرحـه الذي يسبق أحداثه ويمهد لها.

أولاً :

يتـوسط هـذا الموقع قـارات بأكملهـا، ففي الشرق نجـد آسيـا بضخـامتهـا وامتدادهـا، وتنوع منـاخاتها، وفي الشمال نجد أوروبـا بتعقيداتها التضـاريسية وامتدادهـا من البحر المتـوسط جنوبـاً حتى المحيط المتجمـد شمالاً، وفي الغرب أفـريقيا بكتلتهـا المتماسكة، أو المنـدمجة ولـونها الأسمر، وخط استـوائها الـذي يقسمها إلى نصفين متقاربين أو يكاد.

ثانياً :

البحر جزء أساسي في تركيب دول سكان الخليج، حيث يتعمق الخليج نفسه داخلا من البحر العربي (المحيط الهندي) في ذلك الركن من جنوب غرب آسيا، وحيث يطل جنوب الجزيرة منفسحًا على البحر العربي، بينما يطل غرب الجزيرة ممتدًا على البحر الأحمر.

ثالثاً :

من سمات سكـان المناطق البحـرية، أي التي تطل على بحـار مفتوحـة، أو تقترب منها أنهم لديهم فرص واسعة للتعـامل والاحتكاك مع شعوب بلاد أخرى يكون البحر رابطا بينهما . . أي بين المجموعتين، وهذا الاحتكاك وذلك التعامل يتيح فرصا واسعة لمعرفة الآخـرين ودراسة أحوالهم، وكذا للاستفادة من خبراتهم وتجاربهم .

رابعاً :

من حظ الخليج وأهله أن هذه البلاد التي ربطهـا البحر بها كانت في معظمها منـاطق حضـارات قـديمة راسخـة، ففي أقصى الشرق كـانت حضـارة الصين العـريقـة التي نشـأت حـول مجاري الأنهار الكبرى في الصين مثل اليـانجتسي والسيكيانج، وفي الـوسط بينهما ـ أي بين الصين والخليج ـ كانت حضـارة الهند التي أسست حـول مجاري الأنهار هنـاك أيضـا، مثل نهر البراهما والجانجـز والإنـدس، وفي غـرب الجزيرة العـربيـة كـان الاحتكـاك مع إفريقيـا بحضـارة المصريين العريقة حول نهر النيل، وحضارات وسط أفريقيا .

خامساً :

كانـت الصلة بين منطقة الخليـج ومناطق هـذه الحضارات وسيلتهـا التجارة التي برع فيهـا أهل المنطقة، والتي من أجلها صنعـوا السفن والمراكب والقوارب المختلفة، وكـانوا يقومـون بنقل التجارة بين تلك المنـاطق وبعضها البعض، كما كانت تصل إلى منطقتهـم سفن الآخـرين وقواربهم، وكـانوا يفرغـونها في موانيهم ويقومون بنقلها على ظهـور الجمال إلى المدن الكبرى داخل الجزيرة العربية أو على حـدودهـا، ومع التجـارة وصلت إليهم الأفكـار والمعلـومـات من منـابع تلك الحضارات فتأثروا بها، كما أثروا هم ـ بدورهم ـ في الآخرين .

سادساً :

حينما رزقهم الله ثروة البترول انفتحوا على العالم وانفتح العالم عليهم بشكل لم يسبق في حياتهم، فقد جاءتهم شركات البترول العملاقة للبحث والتنقيب والاستخراج والتكرير والتصدير، كما جاءتهم شركات ضخمة لتنفيذ مشروعات التنمية التي تبنوها متوسعين، كذلك فإنهم استوردوا العمالة الأجنبية من كل صنف ومن كل لون، من العمالة العادية إلى الخبراء والأطباء والمهندسين والصيادلة والمدرسين وأساتذة الجامعة، من جميع بلاد العالم تقريبا، **فرأوا ثقافات ما كان لهم بها من علم، ومرت بهم ـ ولا زالت تمر ـ خبرات ما كان أحد يحلم بتواجدها بهذه الكثافة في منطقة الخليج** (*).

سابعاً :

كانت الوفورات المالية من البترول من الضخامة بحيث سمحت للخليجيين باستيراد كل أو معظم ما أنتجته وأبدعته الحضارات الأخرى، فما من سلعة أنتجتها مصانع الشرق أو الغرب إلا ولها وكلاء في المنطقة، بل إن منطقة الخليج تعد سوقاً رائجة لأحدث ما تخرجه تلك المصانع، بحيث تغيرت صورة المدن في الخليج تماما وأصبحت تضاهي المدن الأوروبية والأمريكية في كثرة محلاتها، ومعارضها ومنتجاتها، وخصوصًا مع القوة الشرائية المتوافرة فيها.

ثامناً :

تأثرت قيم كثير من الناس وعاداتهم إلى حد ملموس في دول الخليج، نتيجة للأوضاع الجديدة، فتغير شكل الأسرة من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية،

(*) يمكن لمن أراد مراجعة كتاب الباحث «التربية ومشكلات المجتمع في دول الخليج العربية - مشكلة العمالة الأجنبية - معالجة إسلامية، مرجع سابق.

وتبـاعـدت مسـاكنهم، واتسعت مـدنهم، وانصرفت أعـداد منهم عن العمل اليدوي الذي يحتـاج إلى بذل الجهد والعرق بعد أن قـامت عنهم العمالة الأجنبية بكل شيء . . تقريبا، حتى في مضارب البدو !!

تاسعاً :

أقبل الخليجيون على التعليم بعد أن هيأت لهم حكومـاتهم فرصة واسعة، من المدارس الابتدائية حتى التعليم العـالي، وصار بالمنطقة قرابـة العشرين جامعة، وآلاف من المدارس الثانوية والمتوسطة والإبتـدائية، ولما كانت المنطقة غير مؤهلة بـالكفـاءات المطلـوبة لمواجهـة كل ذلـك فقد تعـاقـدت حكـومـاتها مع آلاف الأسـاتذة (*) والمدرسين من جميع أنحـاء العـالم العــربي والإسـلامي، بل ومن خارجهما كذلك!!

عاشراً :

أصبح سفر الخليجيين خلال أشهر الصيف إلى أوروبا وأمريكا وجنوب شرق آسيا جزءًا من حيـاتهم الجديدة، حيث تخرج ألوف مؤلفـة منهم كل عام لقضاء الصيف هنـاك لـلاستمتاع بها عنـد الآخـرين، بل وأصبح نفـر غير قليل منهم يمتلكون مسـاكن يجدونها جاهـزة للاستعمال عند وصـولهم، كما أن سفر الكثير منهم للدراسة بالخارج أصبح أمرا شائعا، سواء على نفقاتهم الخاصة، أو نفقات حكومـاتهم التي اهتمت بهذا الجانب بقصد تعليم وتدريب أبنـائهم حتى يحلوا محل الخبرات الأجنبية .

(*) في إحدى الـدراسات العلميـة ثبت أنه كان بجـامعات الخليج نحـو ١٠,٠٠٠ (عشرة آلاف) عضو هيئة تـدريس من خـارج المنطقة. اقـرأ للكاتب : «تـرشيد جهود أعضـاء هيئات التـدريس في مجال البحث العلمي في دول الخليج العـربية»، ضمـن بحوث النـدوة الفكريـة الثـانية لـرؤسـاء ومديـري الجامعات الخليجية، جدة، ١٤٠٥هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج .

حـادي عشر :

لـــم تقتصر الدراسـة في الـداخل، أو حتى في الخارج على الـذكور من أبنـاء الخليج، وإنما امتدت لتشمل العنصر النسائي كـذلك، فظهرت الفتاة الخليجية وهي مقبلة على التعليم، وأصبحت منـافسة للفتى في كثير من مجالات العمل، وبخاصة التدريس.

ثاني عشر :

ضمن خطط التنميـة الشـاملة التي تبنتهـا حكـومـات المنطقة جـاء الاهتمام بالخدمـات التي قـدمت للمواطن الخليجي، في كل مجال تقـريبا، فمع التعليم وبناء المدارس وتشييد الجامعات، افتتحت المستشفيات، واهتم بالصحة العامة للمـواطن، كما أقيمت دور الـرعايـة الاجتماعيـة لمستحقيها، وأقيمـت الأنديـة الرياضية والثقافية والمكتبات العامة، مما انعكس أثره إيجابا على ثقافة المواطن في الخليج.

ثالث عشر :

منذ ظهور الـدين الإسلامي في شبه الجزيـرة العربية، ومنذ بـزوغ نوره في مكة المكرمـة والمدينة المنورة، ثم لما انطلق المسلمـون خارج الجزيرة يحملـون مشعله، منذ ذلك التاريخ، أي منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة أصبح للثقافة الخليجية بعد آخر هائل، ربط بينهم وبين ملايين المسلمين باتساع العالم، ذلكم هو بعد العقيدة الإسـلامية، عقيـدة التوحيد، وقيم الإسـلام القائمـة على العدل والخير والمسـاواة والسلام، بل إن هـذه العقيـدة صارت هي العمـود الفقـري للثقافـة الخليجية خاصة والعربية عامة، وهـذا البعد يتمثل خصوصًا في المملكة العربية السعـوديــة التي تضم الحرمين الشريفين، وتعتني بهما وبـزوارهما مـن الحجـاج والمعتمـرين، وبـذلك تعـد القطب الجاذب الأعظم لأكبر عـدد من المؤمنين في العالم.

يقـول الجلال «لم يتيسر لمجتمـع من المجتمعـات من الـروابط التـاريخيـة، والعلاقات المتشابكة، مثل ما تيسَّر لمجتمـع الخليج والجزيرة العربية، وبخاصة فيما بين مناطقه المتجاورة، حيث تتداخل المصـالح والجنسيات، وأماكن الإقامة بشكل قوي يفـوق قدرة الـدولة الحديثـة على عزل مجتمعها حسـب الجنسية عن المجتمعات الأخرى.

لقد توحدت المنطقة ثقافيًّا ضمن عصـور طويلة كان أبرزها العصر الإسلامي بالديـن الواحد واللغة الواحـدة، لتصبح جزءًا من دولة واحدة وتـاريخ واحد، هي الـدولة العـربية الإسـلاميـة، واستمرت هـذه الوحـدة التلقائيـة إلى العصر الحـاضر، مع تعرضنا ـ ابتـداء مـن دخول المستعمـر للمنطقـة إلى اليـوم ـ لشتى محاولات التفتيت والتفرقـة التي تصعد تـارة وتهبط أخرى، حتى إذا تشكلت في المنطقة دول بالمعنى الحديث للدولـة نجح التفتيت، وأقيمت الحواجز بالرغم من الروابط الثابتة والمستمرة بين مجتمعاتها» (١).

ويمضي عبـد العـزيـز الجلال ليحدثنـا عن المنطلقـات أو المبـادئ الموجهـة للعمل المتكـافئ في دول مجلس التعـاون فيرصـدهـا فيما يلي، مبينًـا أنها جـاءت نتيجـة دراسـات متعـددة، وكـانت هي النـاتج المتراكـم لها، هـذه المبـادئ أو الموجهـات هي :

١ - الثقـافـة العربية الإسلاميـة هي إطار التخطيط الثقافي لـدول المجلس، مع مـراعـاة الـواقع الاجتماعي والاقتصـادي والثقـافي، وخصـوصيـة التخطيط المطلوب لملاءمة هذا الـواقع، وشأن دول مجلس التعاون في ذلك شأن كل البلاد العربية.

---

(١) عبد العـزيز الجلال : خطة التنمية الثقـافية لدول مجلس التعاون. . مشروع مقترح ومفـاهيم مختلفة، التعاون، العدد السادس، شعبان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٢٥.

٢ - أهمية البعد الثقافي في التنمية، إذ بدون الفكر الواعي تظل التنمية مجرد مظاهر مادية قابلة للاندثار.

٣ - ضرورة المشاركة الثقافية من كل المواطنين إنتاجا واستفادة.

٤ - اعتماد التنمية الثقافية على الحرية الفردية والمشاركة في اتخاذ القرار حسب المستوى المناسب لكل مواطن.

٥ - الإيمان بخصوصية الثقافة العربية وعالميتها في تدرج تكوينها، وبإنسانيتها المتمثلة في القيم الإنسانية، وبضرورة تطورها وتطويرها وانفتاحها على التيارات الفكرية والكشوف العلمية والتقنية عالميا.

٦ - تأكيد دور الثقافة في تعزيز الثقة بالذات لإخراج المنطقة من حلقة الأزمات والإحباطات المتكررة.

٧ - تأكيد دور الثقافة في تحقيق الأهداف الكبرى لدول المجلس وللأمة العربية بعامة وهي :

- الاستقلال والتحرر في مواجهة الهيمنة والتبعية.
- الوحدة القومية في مواجهة التجزئة الإقليمية الضيقة.
- الديمقراطية في مواجهة الاستبداد.
- العدالة الاجتماعية في مواجهة الاستغلال.
- التنمية الذاتية في مواجهة التخلف أو النمو المشوه.
- الأصالة في مواجهة التغريب والتبعية الثقافية (الخطة العربية ص ص ٢٥ - ٢٦).

٨ - تأكيد دور الثقافة في مواجهة التحديات الخاصة بدول المجلس، وأبرزها :

- تدني مستوى المشاركة في اتخاذ القرار، وفي عملية الإنتاج، وفي الثروة.
- الخلل السكاني وأثره في التماسك الاجتماعي وقيم العمل لدى المواطنين.

- الاعتماد على الخارج في متطلبات الأمن الإقليمي لها . . غذائيا . . وثقافيًّا . . واقتصاديًّا . . وعسكريًّا .

- الإفراط في الاستهلاك ، وتطرف أنماطه المظهرية التبذيرية .

- تصدع قيم العمل والإنتاج ، وانحراف نسق القيم الاجتماعية من الإيجابية إلى السلبية .

٩ - قبول منظومة القيم العربية الإسلامية المحددة للهوية الثقافية العربية الإسلامية بشكلها المتكامل والمترابط ، وأبرز هذه القيم هي :

في الناحية السياسية :

تكريم الإنسان ، والشورى في إدارة شؤون المجتمع ، والعدل ورفع الظلم ، والمساواة بين البشر ، بغض النظر عن العرق أو المركز الاجتماعي ، والتسامح الفكري والاجتماعي ، والمسؤولية الفردية عن العمل .

في الناحية الاجتماعية :

احترام الأسرة كما يتجلى ذلك في رعاية الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحقوق الجيران ، وقضايا الزواج ، وحقوق المرأة ، وإيثار المروءة والعفو على العقاب ، والتكافل الاجتماعي ، والرعاية الاجتماعية ، وتوفير الاحتياجات الأساسية للإنسان ، والعدل الاجتماعي بتحريم الربا وإنكار الاستغلال ، والمسئولية الاجتماعية العامة للجماعة ، كما يتمثل في وظيفة الحسبة في الإسلام .

في الناحية الاقتصادية :

احترام العمل والإنتاج ، مسئولية الدولة عن أعمال النفع العام ، **والثروات العامة ملك للأمة تديرها الدولة لمصلحة الجميع ، الملكية الفردية مرتبطة بحسن استخدامها لصالح المالك والمجتمع ، جواز تدخل الدولة في تنظيم الاقتصاد عند الضرورة لرفع الضرر عن الأغلبية .**

في الناحية الفكرية الثقافية :

تكريم العلم طلباً وحملاً ونشراً، الدعوة للإبداع والتفكير، البحث عن المعرفة والحكمة أينما وجدت، والتعلم مدى الحياة. (الخطة العربية ص ص ٣٠ - ٣٤).

ولعلنا نعرض هنا لمبادئ الخطة الشاملة للثقافة العربية، في مبادئها الفكرية على الأسس التالية، وهي أسس متلازمة متكاملة، وهي التي يجري تطبيقها على منطقة الخليج العربية، أو على دول مجلس التعاون بالتحديد، باعتبارها جزءًا من الأمة العربية، هذه الأسس هي :

١ - حق الإنسان العربي في اكتساب الثقافة، وفي حرية التعبير عنها، والتمتع بها، فالإنسان هو غاية كل تخطيط تنموي، والحرية شرط من شروط الإنسانية.

٢ - عملية التخطيط التنموي عملية شمولية، والثقافة بُعد أساسي من أبعاد التنمية الشاملة، وعلى علاقة تأثير متبادل مع نواحي التنمية الأخرى، ولم يتم تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية إلا بالاستناد إلى تخطيط ثقافي يحدد الأهداف المستقبلية للأمة.

٣ - إن التراث الحضاري الإسلامي هو الركن الأساس في تكوين الثقافة العربية، والنبع الأصيل فيها، عقيدة وقيماً وتشريعاً، وهو الذي يميزها من غيرها من الحضارات الإنسانية؛ فالعروبة والإسلام متلازمان ومتكاملان في الثقافة العربية.

٤ - ديموقراطية الثقافة، أي المشاركة الجماهيرية الواسعة في مجال إنتاج الثقافة والإفادة منها، باعتبار أن الثقافة تنبع من الجميع، وأنها الزاد الروحي والفكري للجميع.

٥ - قومية الثقافـة، ومعناها أن الثقافة العربية واحـدة موحدة، وأن التكافل القومي يزيد في قوتها وعطائها، وأن لغتها هي العربية، وأن التنوع هو أحد أبعاد الغنى والخصب فيها.

٦ - عصرية الثقافة، بمعنى تحديد الثابت والمتغير في الثقافة العربية الحالية، واستيعاب تيارات العصر، ومـواكبة تحولاته، تحديثًا وانفتـاحًا، مع الحفاظ على الأصالة والهوية الحضارية العربية، والقيم الروحية والفكرية للأمة.

٧ - إنسانية الثقافـة، بمعنى أن للثقافة العربية خصائص ومثـلا وآفاقاً قادرة على الإسهام في إقامة نظام ثقافي دولي جديد.

٨ - عالميـة الثقافة، وهـذا يعني متابعة تقـاليد الفكر العـربي في التفاعل مع الثقافـات الأخرى، والمشاركـة الإيجابية المتفتحـة أخذاً وعطاء في تقـدم الحضارة الإنسانية.

٩ - مسؤولية الـدولة والمؤسسات الشعبية في التخطيط الثقـافي الشامل، وفي توفير جميع الوسائل للتفتح الثقافي الحـر [١].

ويحدثنـا الـرميحي عن سمـة التوسط بين الحضـارات التي تمتـاز بها منطقـة الخليج، والتي سبق أن تحدثنـا عنها في بـداية هـذا الفصل، فبجانب البعـدين العربي والإسلامي للثقافة الخليجية هناك بعد الاتصال مع حضارات أخرى غير عربيـة وغير إسلاميـة، يقول الرميحي: ينطبق على خليجنـا العربي أنـه منطقة عبر ثقافية (Trans - Cultural)، أو هو «بحيرة ثقـافية». فإذا كانت الثقـافة هي جوهر السمات الروحية والمادية والفكـرية لجماعة مـا، فلا يمكن والأمر كذلك، إلا أن نرى الـواقع، وهو أن أبناء الخليج امتـداد لواقع عربي إسـلامي، يحملون

---

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الأول، مرجع سابق، ص ص ٣٣ - ٣٤.

كل السمات الروحية والفكرية التي حملها أجدادهـم العرب المسلمون، فهم بهذا جزء من الثقافة العربية والإسلامية العميقة، وبجانب حمل أبناء الخليج لعناصر الثقافـة العربية الممتـدة عبر التاريخ، ولوقوعـه بمحاذاة ثقافـات إسـلامية غير عربية أو غير إسلاميـة، فقد تأثر أبناء المنطقة بدرجـة أو بأخرى بهذه الثقافـات كالإيرانية والهنـدية التي يشارك أبناؤهـا العرب في الإسلام والعـلاقات الإنسانية والاقتصادية[1].

ويفصل الكاتب السابق في قضية الصلات الثقافية بين أهل منطقة الخليج، وبين أصحاب الثقافـات الأخرى «لذلك نجـد أن السمات الروحية والعـاطفية والفكرية (الثقافية) في الخليج ـ تقليديا ـ هي السمات العربية الإسلامية المشتركة مع سمات من الهضبة الإيرانية وشبه القـارة الهندية والساحل الإفريقي. والسبب واضح في ذلك، فالعلاقـات التجارية ـ علاقات السفـر في البحر مع شواطئ شرق إفريقيـا والشواطئ الإيرانيـة ـ والتي كـانت في وقت آخر مستقـرًّا لهجرات عـربية من الخليج أو العكس، وهـذا التبادل المادي هـو الذي أنتج هـذا المزيج الثقافي[2].

ويتفق الـرميحي مع الجلال في أن ثقـافـة مجتمع الخليـج أعمق وأسبق من التقسيمات السياسيـة «فتقسيمات الخليج السياسية الحديثـة نسبيا لم تكن عـائقاً بين أبنـاء الخليج أنفسهم إلا في أوقـات قصيرة جـدًّا، أمـا السـائد فقـد كـانت عـلاقات مفتـوحة بين التجمعـات السكـانية المطلـة على الخليج، أو في داخل الجزيـرة العربيـة، وبخاصـة هضبـة نجـد، هذا التفـاعل بجـانب النشـاط

---

(١) محمد الرميحـي : الثقافـة في الخليـج العـربي، المستقبل العربـي، العدد ٤٩، مـارس ١٩٨٣م، ص٤٦ .

(٢) المرجع السابق .

الاقتصادي المتماثل أو المشترك، كالغوص على اللؤلؤ أو التجارة مع شواطئ الهند وشرق إفريقيا وساحل إيران، أو الزراعة في بعض الواحات، عزز من الوحدة الثقافية المشتركة لأبناء الخليج [1].

ويركز الرميحي على «الثقافة في الخليج قبل ظهور النفط»، وهو يتبنى وجهة نظر مؤداها أن الثراء المادي الذي أتى به البترول لم يصنع الثقافة في الخليج، فهي هناك قبله، ولكن دوره اقتصر على تسريع التطور الاقتصادي، ومن ثم الاجتماعي والثقافي، ثم يضرب لنا أمثلة واقعية من تلك الثقافة التي كانت سائدة في الخليج قبل البترول «فإذا قلنا إن الثقافة هي نتاج المجتمع المادي والفكري، فقد كانت تجمعات الخليج تعيش على حد أدنى من الفائض الاقتصادي، من خلال مواسم صيد اللؤلؤ والزراعة المحدودة والتجارة».

في مواسم الفائض الكبير نسبيا نجد أن هذه المجتمعات وجدت لديها بعض الوقت ـ وبخاصة المستقرة في القرى الكبيرة على الساحل أو الداخل ـ لإنتاج ثقافة متميزة ومجدولة بموروثات الثقافة العربية ومجلوبات الثقافة الفارسية والهندية والإفريقية. فنجد المباني التي شيدت على طريقة تشييد المباني في السواحل الفارسية والهندية، ونجد أدوات الاستخدام الإنساني اليومي كالأسرَّة وخزانات الملابس، والتي استخدم فيها هذا المزيج من المواد الأولية المحلية والأفكار في التشكيل والتصنيع التي جلبها المهاجرون أو التجار من تلك البلاد المجاورة.

والإنتاج الفكري في تلك الفترة كان يتواءم مع الإنتاج المادي، فأغاني الغوص والسفر، وأغاني الاستعراضات الحربية، وأغاني العمل في الزراعة أو البناء كانت جزءًا من الإنتاج المادي. فالنهام (صاحب الصوت الشجي) الذي يتغنى على

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٤٦ - ٤٧.

سطح السفينة حـاثا الغواصين على العمل لم يكـن عمله مستقلا ، فهـو بجانب ذلك ، أو قبله غائص أو (سيب) (*)، إذا فهو جزء من الإنتاج المادي .

وفرقة الأغاني والأهازيج في القبيلة ، والتي تقوم بأداء رقصات الحرب (العرضة أو العيـالة) ليست جـزءًا متخصصـاً في القبيلة ، و إنما يقـوم بها من يستطيع من الرجـال كجزء من أعمالهم العـامة ، فـالثقافة التقليـدية في هـذه المجتمعات إذًا كـانت أساسـاً تدور حـول الإنتـاج المادي والحياة بأشكـالها المختلفة ، وكـانت معتمدة على الموروثات الثقافية العامـة ، كالتعليم الديني وقرض الشعر الفصيح أو العامي (شعر النبط) . ولـم يكن هنـاك حدود تفصل هذا الإنتاج بعضه عن بعض . وكان الشعر هو الربـاط المشع من الماضي إلى الحاضر، وهو قائد الإحياء الثقافي الحديث في الخليج [١] .

ولكي يبين الرميحي الصلات الثقافيـة بين الخليج وغيره من المصادر الثقافية التي سبق وأشرنـا إليهـا في بدايـة هذا الفصل نجده يؤكـد أن الإنتـاج الثقـافي في الخليـج ــ في تلك الفتـرة ــ لـم يقتصر على المـواطنين المحليـين ، «بـل إن المهـاجرين أو أبنـاءهـم من السـاحل الغربي لإيـران ، لما كانـوا مسلمين ، وكثير منهـم من المذهـب السني الذي يشتركون فيـه مع أبناء المجتمعات الخليجية ، فإن ذلك جعلهم يُستوعبون بسرعة في هذه المجتمعـات المفتوحة ، وقد لعب بعضهم دورًا إيجابيًّا في التعليم الدينـي والثقافة بشكل عام ، كما لعبوا دوراً إصـلاحيًّا مع إخوانهم أبناء المنطقة [٢].

كـذلك يربط الكـاتب الخليجي بين ثقـافة الخليج ، في ذلك الـوقت ، وبين الثقافة في مناطق أخرى من العالم العربي الكبير، حيث كان البعد العربي حاضرًا

(*) سيب : جمعها سيوب ، أي الذين ينتشلون الغائص من البحر بواسطة حبل .

(١) المرجع السابق، ص ٤٧ .

(٢) المرجع السابق، ص ٤٨ .

في الخليج، «وقد تمثل في شخصيات أمثال حافظ وهبة (مصر)، والشيخ يوسف ياسين (سوريا) وآخرين من العراق والحجاز واليمن أثرَوا الحياة الثقافية في الخليج العربي وأثَّروْا فيها»(١).

ثم انتقل الرميحي بعد ذلك ليبين العلاقة بين الثقافة في منطقة الخليج العربي وبين بدايات ظهور التعليم الحديث في بدايات القرن العشرين الميلادي، وكذلك حيث بدأت تظهر بعض المجلات الثقافية في المنطقة وكذا الأندية الأدبية، حيث «لعبت الأندية والمدارس والمطبوعات - هذه الثلاثية الجديدة - دورًا طليعيا في إدخال عناصر ثقافية جديدة مستمرة من التاريخ العربي والإسلامي إلى هذه المجتمعات الخليجية الصغيرة، وقد ساعده في ذلك الفائض الاقتصادي الذي مكن بعض الشرائح الاجتماعية في هذه المجتمعات من تعليم أبنائها في الخارج (في الهند على وجه الخصوص)، وبخاصة أبناء التجار الذين وجد لهم نصيب حتى في الإدارة الإنجليزية للهند»(٢).

ثم انتقل الكاتب بعد ذلك إلى الثقافة في الخليج «بعد الحرب العالمية الثانية»، ولا ندري ما دفعه للبحث تحت هذا العنوان، خصوصًا وأنه لم يبحث في هذه الثقافة «قبل الحرب العالمية الثانية» حتى يأتي ويبحث فيها بعدها، علاوة على أن تلك الحرب لم تكن معلما من معالم انتشار الثقافة في الخليج، أو المساعدة عليها، كما أنها لم تكن من العوامل المعطلة لها أو الواقفة ضدها، فلماذا نؤرخ للثقافة . . بالحرب . . ؟؟ لا ندري . . !!

وإنما كان الأولى أن يكمل ما بدأه تحت عنوان «الثقافة في الخليج قبل ظهور النفط»، فكنا ننتظر منه ـ فعلا ـ أن يحدثنا عن الثقافة بعد ظهور النفط. ولا

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٤٨ - ٤٩.

يختلف اثنـان على وجـه الأرض في أثـر النفط في حيـاة الخليج بكل أركـانها وجوانبها . . والثقافة في قلب ذلك بلا شك .

جانـب آخر في هذا الموضـوع هو أن الـرميحي حدثنـا عن الثقافـة في الخليج العربي بعد الحرب العالمية الثانية ، وحدثنا عن التعليم والأندية الثقافية والمجلات التي بدأت تنتشر في بلاد الخليج ، وهذا شيء طيب بالفعل ، وخصوصًا وقد ذكر مجلات بعينها حملت الحركة الأدبية والتحـديث ، مثل مجلة «البعثة» في الكويت ، ومجلة «صوت البحـرين» ، وحدثنا عن اتجاهات هذه المجـلات والكتّاب الذين كانوا يسهمـون بالكتابة فيها ، سواء من داخل منطقـة الخليج ، أو من خارجها ، وخصوصًا من مصر ومن سوريا [1].

الشيء العجيب أنـه نسي ، أو تناسى ، مجلة «العـربي» الكويتيـة التي أنشئت في الكـويت عام ١٩٥٨م ، ورأسهـا لأول مرة علم من أعـلام العلم والثقافـة في العالم العربي ، هو الأستاذ الـدكتور أحمد زكي ، عليه رحمة الله ، الذي ترك مصر ، حيث كان رئيسـاً لجامعة القاهـرة ، ولكنه اختلف مع القيادة السيـاسية في مصر آنـذاك حين بـدا واضحـاً أن مصر قـد اتخذت قرارهـا السيـاسي بـالاتجاه نحـو المعسكـر الشرقي . الشيـوعي ، تحت مسمى الاشتراكيـة ، وكـان أن التقطتـه الكويـت ، وحسنًا فعلت ، فأسس لها هـذه المجلة الثقـافية الرائعـة التي حملت ثقافة الخليج عامة ، والكويت خـاصة ، إلى الشعب العربي باتساعه ، كما حملت بلدان العـالم العربي ، من خلال استطـلاعاتها المدققة إلى أبنـاء الخليج ، فقامت بـدور هـائل لا نعتقـد أن هنـاك مجلـة أخـرى قـامت بـه في المنطقـة العـربيـة ، وخصوصًا في الفترة التي تولّاها فيها الأستاذ الـدكتور أحمـد زكي ـ رحمـه الله ـ ولا ندري كيف نسيهـا الرميحي ، وخصوصًـا وهو يتـولى رئاسة تحريرهـا حتى هذه اللحظة . . ؟؟ !!

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٠ .

ويركز الرميحي بعد ذلك على نتـائج التعليم الثقافية، وكذا وسائل الاتصال الجماهيري التي بـدأت تنتشر في المنطقة بشكل مكثف، حيث لم تعـد « المدرسة والجامعة الموزع (الشرعي) للمعرفة، على حد تعبيره، إذ أصبحت الثقافة تعني، في بعض معانيهـا، الاتصال الجماهيري بـوسائلـه الأساسيـة المعروفـة : الإذاعة المسموعة والمرئية (التلفاز)، والصحف والكتب، وما وقع في إطارها، بل أصبح هناك تنافس مكشوف تشهده المجتمعـات العالمية اليوم بين النظامين (التربوي) و(الإعلامي). وأقطار الخليج ليست استثناءً »[1].

ولبيان أثر وسائل الاتصال، وبخاصـة الراديو والتليفزيون اللذين ينتشران في منطقـة الخليج بسبب نسبة الأميـة التي تتراوح بين ٣٠ إلى ٦٠ في المائة من عـدد السكان، كما يقول الـرميحي، وكذلك بسبب طبيعة الحياة الحديثـة التي وفرها النفط والجو الاجتماعي العام. بسبب ذلـك، يقول الكاتب إن محطـات الإذاعة المرئيـة في الخليج بـدأت في التـوسع في الستينـات، وأصبحت أكثـر انتشـاراً في السبعينـات والثمانينـات، وهي في طـريقهـا للتـــوسع الأكثـر من حيث عـدد سـاعـات البث وقنـوات الإرسال، ونتيجـة لظـروف التشغيل فإن عـدة أقطـار خليجية تستطيع أن تشـاهد على شـاشات تلفـازاتها محطات أقطـار خليجية أو قريبـة أخرى، ممـا يوسع دائرة المشـاهد خـارج إطار الحـــدود السياسيـة للقطر الواحد[2].

ويؤكد محمد عباس إبراهيم العلاقة الوثيقة بين الثقافة والتنمية في دول مجلس التعاون، ويرجع في بحثه [3] رجعة تاريخية يبين لنا فيهـا أصول التنمية الخليجية

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٣) محمد عبـاس إبراهيم : الأبعـاد الاجتماعية والثقـافية للتنميـة الحضرية في مجتمعـات الخليج العربي، التعاون، العدد ١٤، ذو القعدة ١٤٠٩هـ - يونيو ١٩٨٩م، ص ص ١٨ - ٣٢.

في الأعمال التي كان يقوم بها أهل الخليج في بدايات القرن وما قبله، من الغوص بحثا عن اللؤلؤ، وزراعة قليلة محدودة، وتجارة بين مراكز تجمع السكان، كما يلمح إلى أن «ضعف الوعي الاجتماعي، وعدم وجود تعليم **قد ساعد على انتشار بعض الخرافات التي كانت جزءًا من البناء الإنتاجي**(؟؟). وهكذا فقد أفرز الواقع الاقتصادي واقعًا اجتماعيًّا لم ينته بانتهاء الكفاف، وإنما لا زالت مجتمعات الخليج تحمل منه الكثير، خاضعة في ذلك لقانون اجتماعي معروف، هو أن التغيرات في العلاقات والقيم والمفاهيم لا تتناسب سرعتها مع التغيرات في الواقع الاقتصادي، فهي تبقى لفترة أكبر، وتؤثر لمدة أطول»[1].

وبعد أن يبين الكاتب التحولات الكبيرة التي جرت في مدخولات البترول، نتيجة تصحيح أسعاره، وكيف أن العائدات منه عام ١٩٨٠م تعدت أكثر من خمسين ضعفًا لقيمتها من عشر سنوات، موردا الجدول التالي لها :

(١) المرجع السابق، ص ١٩.

جدول رقم (٢)

العائدات البترولية خلال السنوات ١٩٧٠ - ١٩٨٠م

(بمليارات الدولارات) (١)

الدولة	العائدات		
	١٩٧٠م	١٩٧٥م	١٩٨٠م
الإمارات العربية المتحدة	٠,٢	٠,٦	١٩,٣
المملكة العربية السعودية	٠,٢	٢٥,٧	١٠٢,٢
العراق	٠,٥	٧,٥	٢٦,٠
قطر	٠,١	١,٧	٥,٤
الكويت	٠,٨	٦,٤	١٨,٠

والكاتب إذ يقدم للقارئ هذه الإحصاءات يستدرك قائلا إن «تلك القفزة الفلكية في الأرقام والعائدات لم تأت عن تطور مقابل في قوى الإنتاج في الاقتصاديات البترولية وإنما هي في المقام الأول نتيجة لتصحيح أسعار البترول، والتي قد ينظر إليها بعض الاقتصاديين على أنها تمثل ريعا، **وإنما للدقة فهي تمثل استنضاباً أو إهلاكًا طبيعيًّا لجزء من أصل رأسمالي يتحول إلى صورة نقدية بمجرد بيعه، ومن ثم لا يبقى الأصل الرأسمالي المنحل للريع كله في حالة الأرض الزراعية والعقارات»** (٢).

(١) المرجع السابق، ص ٢٠.

(٢) المرجع السابق.

ويعقب الباحث على الوضع الاقتصادي في دول الخليج العربية، منذ دخلتها **تلك الثروات الهائلة مبينا أنها مرت بدور معكوس في التنمية، حيث أصبحت في مصاف الدول الصناعية الكبرى بالنسبة للدخول والاستهلاك، ولكنها لم تمر بالأدوار التي كان ينبغي أن تمر بها كي تصل إلى هذا المستوى؛** «فمذ بدأت الثروة الجديدة تتحرك في مجتمع الخليج، عملت قبل كل شيء على قطع الصلات بالماضي، وخصوصًا في جوانب النشاط الاقتصادي (وهذا بعد ثقافي خطير).

وخلال سنوات قليلة، ودون المرور بمرحلة انتقالية، وصل الوضع الجديد في مجتمعات الخليج العربي إلى مرحلة استهلاكية كبيرة، فحققت نوعاً من النمو الاقتصادي، دون المرور بالأدوار التقليدية المعروفة لعملية التنمية، ودون المرور أو معايشة ظواهرها الاقتصادية والاجتماعية، ودون أن تعرف البواعث والتوقعات والعقبات التي ستواجه التنمية. لذا يبدو أن صورة التنمية أخذت مفهوما معاكسا في المجتمعات الخليجية، لا سيما وأن الانقلاب الاقتصادي الذي حدث هو الذي قاد ودفع إلى قيام المؤسسات، ومع أن المجتمعات الخليجية قد وصلت سريعاً، وبدون الصناعة فيها إلى نفس مستوى حياة الدول الصناعية، وإلى بلوغ معدلات للنمو مشابهة لمعدلات النمو الاقتصادي في الدول الكبرى، وتحقيق كثير من الإنجازات في المجالين الاقتصادي والاجتماعي، إلا أنه ليس من المنطقي أن تصنف تلك المجتمعات الخليجية وتضع نفسها في مصاف الدول المتقدمة صناعيا، حيث لعب التصنيع ـ وهو ما تحتاج إليه المجتمعات الخليجية ـ دورًا أساسيًّا في عملية التنمية التي تتطلب اشتراكا فعليا من قبل قوى السكان، مع تنظيم جديد للمؤسسات التربوية والعائلية، وإنتاج سياسة جديدة في إعداد وتأهيل وتدريب قوة العمل [(١)].

---

(١) المرجع السابق ص ص ٢٠ - ٢١.

وينتقل الكاتب بعد ذلك للحديث عن التنمية الاقتصادية في دول الخليج، مستفيدة من عائدات البترول، ثم يصل إلى أهم بعد في قضية التنمية، ونقصد به الإنسان، وليس هناك أهم من التعليم في هذا المجال، وهو يبين لنا من خلال الأرقام والنسب الزيادة التي حدثت في ذلك المجال، بالإضافة إلى «التوسع في بناء إقامة المدارس، والتوسع في إنشاء الجامعات الخليجية والكليات التخصصية، وفيما يلي بيانات أكثر تفصيلا حول السياسة التعليمية وتطورها في بعض المجتمعات العربية الخليجية. ففي المملكة العربية السعودية بلغ عدد المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية بحلول العام الدراسي ٨٤/ ١٩٨٥م أكثر من ٩٠٠ ,١٣ مدرسة، ووصل عدد الطلبة والطالبات إلى ٢ مليون طالب وطالبة، منها أكثر من ٧٠٠٠ مدرسة ابتدائية للبنات، أي نحو ٣٧٪ من مجموع المدارس (*)؛ كما وصل عدد الطالبات بالمرحلة الابتدائية في العام نفسه إلى نحو ٤١٪ من إجمالي عدد الطلاب، إضافة إلى وجود مراكز ومعاهد إعداد المعلمين التابعة لوزارة المعارف، والتي يتوقع أن يتخرج فيها عام ٨٩/ ١٩٩٠م نحو ٥٨٦٠ معلماً [1].

أما عن التعليم الجامعي فقد زاد عدد طلبة وطالبات الجامعات من ٨ آلاف عام ١٩٧٠م إلى ٨٦ ألف عام ١٩٨٥م، موزعين على إحدى وستين كلية في ٧ جامعات، توفر للملتحقين بها أكثر من ٤٠٠ تخصص أكاديمي، وقد بلغ عدد الخريجين والخريجات من جامعات المملكة منذ إنشائها إلى أكثر من خمسين ألف خريج.

(*) هذه نسبة خاطئة بطبيعة الحال، لأنها - بالشكل الذي أوردها الكاتب تزيد عن ٥٠٪ .

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٧ - ٢٨ .

كما أن هناك إحدى عشرة كلية جامعية تابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات، وقد بلغ عدد المنتسبات إليها نحو ١٤ ألف طالبة ٨٤/ ١٩٨٥م، فضلا عن مدارس التعليم الفني الصناعي، وهي خمس مدارس مهنية ثانوية، بلغ عدد طلابها ١٥١١ طالباً عام ٨٢/ ١٩٨٣م، وأربعة معاهد فنية صناعية، وصل عدد الملتحقين بها ٥٨٢٨ طالباً عام ٨٢/ ١٩٨٣م (*)، إلى جانب معهدين عاليين للعلوم المالية والتجارية في الرياض وجدة.

هذا وقد قدرت الخطة الرابعة للتنمية في المملكة العربية السعودية (١٩٨٥ - ١٩٩٠م) نفقات التعليم العام في المملكة بحوالي ٨٥ بليون، ٢٣١ مليون ريال، بينما قدرت نفقات التعليم العالي بحوالي ٤٠ بليون، ٢٩٢ مليون ريال(١).

وقد سار الكاتب على هذا النمط في رصده لتطور التعليم في دول الخليج العربية الأخرى، على أساس أن التعليم رافد أساسي وعنصر قوي من عناصر الثقافة، ولكنه يبدي تخوفه من بعض الأمور فيقول إنه «من الواضح أن الاقتراب من مناقشة التعليم كوسيلة أساسية ومهمة في نقل القيم الثقافية المحلية والعالمية يحذوه بعض المحاذير التي ما زالت وستظل من المعضلات الكبرى أمام المناقشين لهذا المدخل، ولا سيما أن هناك قضايا لم تحل بعد، وخصوصًا إذا أردنا تحليل أسلوب التعليم ورؤيته من الداخل كوسيلة فعالة في التنمية، ومن تلك القضايا التعليم ودوره في التقليد والاقتباس، والتعليم بين الجهود والتجديد، والتعليم بين إعمال النقل وإعمال العقل (٢).

(*) يلاحظ القارئ بطبيعة الحال أن هذه الإحصاءات قديمة، سواء وقت كتابة الباحث لهذه الورقة ونشرها عام ١٩٨٩م، أو وقت إعداد دراستنا هذه عام ١٩٩٣م.

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٢٨ - ٣٢.

ويؤكد كاتب آخر أهمية التعليم في مجتمعات الخليج وأثره في الثقافة، بل إنه يقول إن «التطور الثقافي في بعض معانيه قد يعني تطوراً في التربية والتعليم» [١]. وفي رأيه «أن التعليم وسيلة مهمة لنقل القيم الثقافية الوطنية والعالمية» [٢]. ولكن الرميحي يلاحظ «أنه لا توجد كليات متخصصة في مجالات ثقافية وعلمية مهمة كالفنون الجميلة والتربية الرياضية أو التربية الموسيقية» [٣]. وإن كان رأي الرميحي هذا يحتاج إلى دليل. ففي الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية توجد كلية للتربية الرياضية، كما أن جامعة الملك سعود بها قسم للفنون في كلية التربية، ولعله يكون تحت مسمى «التربية الفنية»، بالإضافة إلى أن هناك تدريسًا لهذه التربية للطالبات أيضًا.

ويدخل بنا الرميحي في دوامة معضلة يفترضها، ويحاول جمع الآراء من حولها.. لمناقشتها، يقول: «وأحسب أن المعضلة هي في كيف يساعد التعليم على تمثل المعارف والعلوم والتكنولوجيا لدى شعب أو مجتمع، دون المساس بمعتقدات ذلك الشعب وقيمه، تلك لعمري معادلة صعبة، حاول بعض المفكرين العرب الاقتراب منها، ولا يزالون. فطه حسين – في الثلث الأخير من الثلاثينات ـ يتحدث عن التعليم في مستهل الثقافة فيقول:

(التعليم عندنا على أي نحو قد أقمنا صروحه، ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي على النحو الأوروبي الخالص، ما في ذلك من شك ولا نزاع، نحن نكوّن أبناءنا في مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكوينًا أوروبيًّا لا تشوبه شائبة).

---

(١) محمد الرميحي، الخليج ليس نفطاً، مرجع سابق، ص ٢٠١.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٠٣.
(٣) المرجع السابق، ص ص ٢٠١ - ٢٠٢.

ولا شك أن طه حسين كان واعيا لوجهات النظر الأخرى، فهو يبرر دعوته في صورة، تتكرر لدى مفكرين عرب آخرين في محاولة المواءمة بين الدين والعقل، وأن خلافهما في أوروبا كان ناتجاً عن مصالح الطبقة الدينية المسيحية. . (فالإسلام لا يعرف الإكليروس ولا يميز طبقة رجال الدين)، ويذهب طه حسين للتدليل على رأيه فيقول: (إنه من السخف أن ندعو إلى عدم الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية، وقد دخل الراديو في الأزهر الشريف، وقام صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر يتحدث به إلى المسلمين في أقطار الأرض جميعاً).

ترى لو قدر لطه حسين اليوم أن يسمع - حتى لا نقول يشاهد - نقل مشاعر الحج في التلفاز الملون، لأضاف إلى وجهة نظره إضافات جديدة. يقول طه حسين في محاولته حل المعادلة الصعبة:

(إن حياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوروبية، نظام الحكم أوروبي. . وحتى نظام الحكم المطلق نتلقاه من أوروبا، نظام الإدارة والتشريع نسير سيرة الأوروبيين فيه، وحتى نظام التعليم. .)(١).

ولا زال التعليم العربي ـ الكلام الآن للرميحي ـ وامتداد التعليم في الخليج بكل مراحله، وبخاصة التعليم العالي، يبحث عن حل لهذه المعادلة الصعبة. لا زال التعليم العالي العربي مشروعاً غير مكتمل، وكذلك التعليم العالي في الخليج.

السؤال: هو كيف نوائم بين الحقيقة التي مؤداها أنه بغير الثورة العقلية والصناعية التي شهدها ويشهدها الغرب - بكل اجتهاداته السياسية ـ إن صح

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٤

التعبير – وثورتـه العقلية التي زادت فكـر الإنسان انضبـاطا، وزودتـه بمفاهيم وأدوات بحث واستقصاء أكثـر دقة في سبيل خـدمة الإنسـان ؟ كيف نوائم بين **واقع التخلف والتبعية التي نعيشها** ؟ وبسؤال آخر : كيف نتمكن من استيعاب العلوم والتكنولوجيا مع مواءمتها بمعتقداتنا وقيمنا . . ؟ [١].

هـذه هي إذن مشكلـة بعض مفكـرينـا أو مثقفينـا . . إنهم يضعـون العلم، ولنقل العلم الحديث أمام الدين وأمام قيم المجتمع ومعتقداته، وفاتهم أن الدين الإسلامي ـ بالتحديـد ـ لو أنهم فهموه الفهم الصحيح لما قـالوا بذلك، بل ولما اقتربوا من هذه المقولة أصلاً، وسوف نعود لهذه النقطة حالا إن شاء الله، ولكن ومن خلال الـواقع المعاصر نوجه نظـرهم إلى مثل حي يعيشه العالم كلـه ويشعر به، وهـو تجربة اليابـان المعاصرة التي نقلت العلم الأوروبي وطورتـه تكنولـوجيًّا وأذهلت الأوروبيين أنفسهم في الـوقت الـذي لم تتخل فيـه عـن قيمهـا، ومعتقداتها، بل ولا حتى عاداتها وتقاليدها [٢].

الدين الإسلامي.. والعلـم :

أمـا جانب الـدين الإسلامي، الـذي هـو دين أهل منطقة الخليج العـربي، وكـذا أهل المنطقـة العـربيـة فـلا تعـارض بينـه على الإطـلاق وبين العلم، ولا نتحـدث ـ كما تحدث الـرميحي ـ عن رجـال الدين المسيحي في الغـرب، **فلدينا «علماء» في الدين وليس «رجال دين»** . . .

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

(٢) يمكن لمن أراد التزود حـول هـذا الموضوع أن يقرأ كتـاب «التربيـة في اليابـان المعاصرة» تـأليف إدوارد د. بـوشـامب، ومن تـرجمة الكـاتب، وإصـدار مكتب التربيـة العربي لـدولـة الخليج، الـريـاض، ١٤٠٧هـ.

نقول إن الدين الإسلامي الذي نزل وأول آياته، بل حتى أول كلماته ﴿اقرأ﴾ والذي به مئات الآيات الداعية والحاثة على طلب العلم... العلم بكل أنواعه وأصنافه، هذا الدين لا يمكن أن يكون فيه تعارض مع العلم أو مع العقل، ويوم فهم المسلمون دينهم حق الفهم، وطبقوه في حياتهم خرج منهم علماء عباقرة غزوا ميادين العلم المختلفة، وكانت لهم فيها فتوحات مبدعة، توجت حضارة المسلمين التي عمت العالم المعروف ـ آنذاك ـ فنهل منها، ولقد أقامت أوروبا حضارتها على علوم المسلمين التي كانت مزدهرة في جنوب أوروبا، وخصوصًا في جنوبها الغربي... في الأندلس(١).

يقول الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي: «لقد أمر الله رسوله ﷺ بالقراءة منذ نزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بالوحي، وتدافع الصحابة وتسابقوا إلى تعلم القرآن وحفظه، وحفظ أقوال الرسول ﷺ والاقتداء بأفعاله، ثم أعقب ذلك الانفتاح على مختلف العلوم الإنسانية النافعة. وقد أسهم علماء الإسلام بجهد كبير في الحضارة العالمية، والكشف العلمي، وكانوا مشاعل ضياء وإرشاد لرواد النهضة وإرشاد النهضة الحديثة، في كل العلوم والمعارف، وهذا ما يشهد به العلماء والباحثون المنصفون الذين ينشدون الحقيقة، فقد تلقوا حضارات من سبقهم من الأمم ودرسوها، وصححوا ما فيها من الأخطاء، وطوروا الكثير منها(٢).

---

(١) محمد عبد العليم مرسي: ميسرات البحث العلمي عند المسلمين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٨هـ.

(٢) من مقدمة معالي الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، قبل أن يصبح وزيرًا للشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد. الكتاب السابق، ص ٥.

إن العرب أصحـاب نهضة علميـة لـم تعرفهـا الإنسانيـة من قبل، وإن هذه النهضة فـاقت كثيراً ما تـركه اليونـان والرومان. . . إن العـرب ظلوا ثمانيـة قرون يشعّون على العالم علماً وفنًّـا وحضارة وأدباً، كما أخذوا بيد أوروبا وأخـرجوها من الظلمات إلى النور، وهكذا نجد السبق لعلماء العرب ومفكريهم. (لقد كان لا بد من ظهـور ابن الهيثم والبيروني وابن سينـا والخوارزمي والـرازي والغـافقي وابن يـونس والكنـدي وابن رشـد وابن زهـر. . ومن إليهم، كي يتسنى ظهـور كبلـر وكوبرنيق ونيوتن ودالتن وأينشتاين. . ومن إليهم.

لقـد حفظ المسلمون القـرآن والحديث، وكانـوا هم منشأ علومهما المختلفـة، وبعد أن تفقهوا في أمور الدين، وفهموا أحكامه واستنبطوا، بدأ التبحر في العلوم والمعـارف الأخـرى، فبـدأت تـرجمة الكتب اليونـانيـة وغيرهـا في أواخـر العصر الأمـوي، وتـرسخت في العهد العبـاسي، أيـام الـرشيد، وازدهـرت وتـوسعت وعمت مختلف الحضارات واللغات، وبلغت أوجهـا أيام المأمون. وهكذا تيسّر للعرب أن يقفـوا على ما لـدى الأمم السابقـة من العلوم والمعـارف المختلفة، ثم بدأوا في بحثها ودراستهـا وتصحيح معلوماتها، والإضافة إليهـا، والإبداع فيها. وعندها بـرزت أسماء المئات من العلماء المسلمين الذين كانت كتبهـم ومؤلفاتهم وأبحـاثهم المختلفـة أسـاسـاً لكل مـا ظهـر من تطـور وتقـدم في علـوم الطب والكيمياء والرياضيات والفلك وغيرها من العلوم والفنون [1].

إن هذه المعركة التي يفتعلها البعض في عـالمنا العربي، بين الدين. . والعلم، معركـة لا وجود لها إلا في أخيلتهم هم، فليس كالـدين الإسلامي في مجال الحث على طلب العلم وعلى المنفعـة فيه. يقـول الشيخ يـوسف القرضـاوي «لم تعرف

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٥ - ٦.

البشرية ديناً مثل الإسلام عُني بالعلم أبلغ العناية وأتمها : دعوة إليه، وترغيبا فيه، وتعظيماً لقدره، وتنويهاً بأهله، وحثا على طلبه وتعلمه وتعليمه، وبيانًا لآدابه، وتوضيحاً لآثاره، وترهيباً عن القعود عنه، أو الإزورار عن أصحابه، أو المخالفة لهدايته، أو الازدراء بأهله»[1].

والذين يحاولون افتعال معركة بين دين أهل المنطقة ـ الإسلام ـ وبين العلم والفكر، والمنهج العلمي الذي يقولون بأنه أتانا من الغرب المتقدم، عليهم أن يقرأوا ما جاء به الإسلام «قرآناً وسنّة» من أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، عليهم أن يقرأوا . . وأن يفتحوا أعينهم ويقارنوا : «إنك تقرأ الأسفار المقدسة» في العهد القديم أو الجديد، فلا تكاد تقع عينك على هذه الكلمات «العقل» أو «الفكر» أو «النظر» أو «البرهان» أو «العلم» أو «الحكمة» أو ما اشتق منها، أو تفرع عنها، أو كان له قرابة بها. فإذا قرأت القرآن وجدت فيه ـ كما يذكر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» ما يلي : كلمة «علم» نكرة ومعرفة ذكرت (٨٠) ثمانين مرة، أما مشتقاتها : علم يعلم ويعلمون وعلَّم ويعلِّم وعليم وعلام . . . إلخ فقد ذكرت مئات ومئات من المرات.

كلمة «عقل» لم ترد اسماً أو مصدراً في القرآن، وورد بديلا عنها «الألباب»، وتكررت ١٦ مرة (ست عشرة)، وكلمة «النهي» بمعنى العقول أيضا مرتين.

أما مشتقات «عقل» فقد تكررت في القرآن (٤٩) تسعا وأربعين مرة.

وكذلك مشتقات «فكر» (١٨) ثماني عشرة مرة.

ومشتقات «فقه» (٢١) إحدى وعشرين مرة.

---

(١) يوسف القرضاوي : الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، ص ٣.

وكلمة «حكمة» (٢٠) عشرين مرة.

وكلمة «برهان» مضافة وغير مضافة (٧) سبع مرات.

وهذا عدا كلمات أخرى لها صلة بالعلم والفكر مثل «انظروا» و «ينظرون» ونحوها. وإذا طالعت كتب الحديث النبوي وجدت في جميع الكتب المصنفة حسب الموضوعات والأبواب ـ أو بتعبير ذلك العصر: الكتب ـ كتابا حافلا موضوعه «العلم».

ففي «الجامع الصحيح» للإمام محمد بن إسماعيل البخاري نجد - بعد أحاديث بدء الوحي، وكتاب الإيمان ـ كتاب العلم، وقد اشتمل كما يقول الحافظ ابن حجر في «الفتح» من الأحاديث المرفوعة على مائة حديث وحديثين، منها ستة عشر حديثاً مكرراً، وفيه من الآثار الموقوفة على الصحابة ومن بعدهم اثنان وعشرون أثرا.

وفي صحيح مسلم وباقي الأصول السبعة (الموطأ وسنن الترمذي وأبي داود والنسائي وابن ماجة) كتاب أو أبواب للعلم، تقصر أو تطول.

وحسبنا أن نذكر هنا أن كتابا مثل «الفتح الرباني» في ترتيب مسند الإمام أحمد قد ضم في كتاب العلم (٨١) واحدًا وثمانين حديثًا، وأن كتاب «العلم» في «مجمع الزوائد» للحافظ نور الدين الهيثمي قد بلغ ٨٤ صفحة، في كل صفحة عدد من الأحاديث. وفي «المستدرك» للحاكم النيسابوري بلغت أحاديث العلم ٤٤ صفحة، وأن كتاب «الترغيب والترهيب» للحافظ المنذري جمع في كتاب العلم ١٤٠ حديثا. وأن كتاب العلم من «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد» للعلامة ابن محمد بن سليمان قد ضم ١٥٤ حديثا.

ولا يخفى أن قـدراً كبيرا من الأحـاديث في كل كتـاب من هـذه مكـرر مع أحاديث الكتب الأخرى، ولكن ليس معنى هذا أن هذا العدد من الأحاديث في هذا الكتاب أو ذاك هو كل ما يتعلق بـالعلم، فالواقع أن هناك عشرات ومئات أخرى من الأحاديث لها صلة بالعلم، ولكنها وضعت في مظان أخرى من أبواب الكتاب، حيث يظهـر للحديث الواحـد أكثر من دلالة، ويستفاد منـه في أكثر من حكم[1].

ونصل إلى نقطـة الصراع التي يفترضهـا البعض بين الـديـن والعلم، والتي رسخت في أذهانهم للأسف الشديـد مما جرى في أوروبا بين العلم والكنيسة، أو بالتعبير الأصح من رجال الكنيسة في حق العلم وأهلـه، وهذا لا علاقة لـه على الإطلاق بالإسـلام. إن «العلم في نظر الإسلام ليس مقابـلا للإيمان، فضلا عن أن يكون معاديا له، كما شاعت هـذه الفكرة في أوروبا في القرون الوسطى، حين وقفت الكنيسة في تلك العصـور تؤيد الخرافة، وتحارب العلم، وتنـاصر الجمود والتقليد، وتقاوم التفكير الحر والابتكار المبـدع، وتدافع عن القوى المتسلطة من حكام وإقطاعيين، وتقف في وجه الشعوب والفئات المسحوقة».

الإسلام لـم يعرف هذا الصراع بين العلم والإيمان في تاريخه؛ لأن هذه الفكرة لا مجال لهـا في تعاليمه، لا نصا ولا روحا.

أما النصرانيـة، فتقوم أسـاسا على أن الإيمان قضية لا عـلاقة لها بـالفكر، بل هي ضـده، فهي لا تـدخل في دائرة العقل والعلـم، بل في نطـاق الـوجـدان والقلب، وليس من شرط العقائد أن تكون مقبـولة، بل يحسن بها أن تكون شيئاً فوق العقل، ولهذا كان من الشعارات المرفـوعة عند النصارى «آمن ثم اعلم» أو «اعتقد وأنت أعمى»!!

وآخر يقول على لسان القسيس «أغمض عينيك ثم اتبعني».

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٤ – ٥.

وذلك لأن العقيدة النصرانية مؤسسة على قضايا يرفضها العقل المجرد مثل التثليث والتخليص والفداء، وما يتفرع عنها، وما يلحق بها، حتى قال بعض فلاسفة النصارى في بعض معتقداتهم «اللامعقولة» وهو القديس (أوجستين) : أومن بهذا . . . لأنه محال . . !!

وهذا على عكس الإسلام الذي يرفض في بناء العقيدة «التقليد» و«التبعية»، كقول من قالوا : **﴿حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا﴾** [المائدة : ١٠٤] أو **﴿إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾** [الأحزاب : ٦٧] أو «أنا مع الناس»(*).

ويرفض أيضا الظن، حيث لا يغني في شأن العقائد إلا العلم واليقين، ولهذا أنكر على النصارى عقيدتهم في الصلب بقوله : **﴿ما لهم به من علم إلا اتباع الظن﴾** [النساء : ١٥٧]. وقال في شأن المشركين وآلهتهم المزعومة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى : **﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾** [النجم : ٢٣].

ويأبى القرآن الكريم إلا أن تبنى العقائد على أساس البرهان القائم على النظر العميق، والتفكير الهادئ، ولأجل هذا صاح القرآن في أصحاب العقائد الباطلة : **﴿قل هاتو برهانكم إن كنتم صادقين﴾** [البقرة : ١١١](١).

ولا عجب أن تكررت في القرآن هذه العبارات الموقظة للفكر من غفلته، والمحررة للإنسان من ربقة تقليده وجموده، مثل **﴿أفلا تعقلون﴾** ، **﴿أفلا تتفكرون﴾** ، **﴿أفلا ينظرون﴾** ، **﴿أولم ينظروا﴾** ، **﴿أولم يتفكروا﴾** ، **﴿لقوم يعقلون﴾** ، **﴿لقوم يتفكرون﴾** .

(*) كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي : «لا يكن أحدكم إمّعة يقول : أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت، وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم».

(١) المرجع السابق، ص ص ١٢ - ١٣.

وحسبك أن تقرأ هـذه الدعوة القـوية الصريحة إلى التفكير ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** ﴾ [سبأ : ٤٦].

وهذا ما دعا الأستاذ عباس العقاد ـ رحمه الله ـ أن يخرج كتابا عنوانه «التفكير فريضة إسلامية»، وهذا تعبير صحيح، فالإسلام كما فرض على الناس أن يتعبدوا، فرض عليهم أن يتفكروا. فالعقيدة في الإسلام تقوم على العلم، لا على التسليم الأعمى، يقول القرآن الكريم : ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ [محمد : ١٩]، ﴿ **اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم** ﴾ [المائدة : ٩٨]، ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، واعلموا أن الله غفور رحيم** ﴾ [البقرة : ٢٣٥].

لم يخش القرآن عواقب الدعوة إلى النظر والتفكر والعلم أن تأتي بنتائج تناقض الحقيقة العقلية ـ وهنا مربط الفرس. ولب القضية فيما نناقشه بشأن قضية الثقافة والعلم في الخليج ـ فالحق لا ينقض الحق، واليقين لا يعارض اليقين، إنما يعارض اليقين الظن، وتنافي الحقيقية الشك أو الوهم أو الافتراض.

ومن هنا لا يمكن بحال مناقضة صحيح المنقول لصريح المعقول، وإذا بدا لنا في بعض الأحيان تناقض ظاهري، فلا بد أن يكون المنقول غير صحيح، أو المعقول غير صريح . . . وهذا يقع كثيرًا : أن يظن ما ليس من الدين دينا، وأن يحسب ما ليس من العلم علما، **فليست كل أفهام أهل الدين دينا، كما أنه ليست كل نظريات أهل العلم علمًا**

إن القرآن يعد العلم الحق داعية إلى الإيمان، ودليلا عليه [١].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٣ - ١٤.

وفي هذا الكفاية وزيادة، فلا تناقض بين الدين الإسلامي - بالتحديد - وبين الصحيح من نظريات العلم، ولا تعارض على الإطلاق بين أحكام الشريعة، وما جرت به السنة النبوية المطهرة وبين قوانين العلم، والأيام دائما تدور وتدور وتثبت أن ما جاء به القرآن الكريم منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة هو الصحيح، وهو الثابت، وهو الصدق كل الصدق، وتتغير النظريات وتتصارع، وتختلف وتتناقض، والثبات في القرآن العظيم طود لا يتزحزح؛ لأنه ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ وصدق الله العظيم.

وقد يتبادر إلى الذهن، ذهن البعض على الأقل، أن الحديث عن العلم في القرآن الكريم حديث عن العلم الشرعي دون غيره، ولكن ذلك خطأ؛ فلفظ العلم جاء عاما وشاملا، فهو يضم العلم الشرعي إلى العلم الحديث بمعناه الذي نعرفه اليوم، وهو العلم المادي القائم على المشاهدة الحسية والتجربة. فلا ننكر أيضا قيمته - والحديث للقرضاوي - وحاجة الناس إليه؛ لأن العلم المادي مطلوب للإنسان ولا شك، ولكنه مطلوب طلب الوسائل.. لا طلب الغايات، وهو يعين الإنسان على الحياة، وييسر له سبلها، ويختصر له الزمان، ويطوي له المكان، فيقرب البعيد، ويلين الحديد، **ولكنه وحده لا يستطيع إسعاد البشر**، كما لا يمكنه وحده أن يضبط سير البشر، أو يقاوم أنانية الإنسان ونزعات نفسه الأمارة بالسوء.

ولهذا كان الإنسان في حاجة ماسة إلى «العلم الديني» الذي ينمي الإيمان، ويحيي الضمائر، ويغرس الفضائل، ويقي الإنسان شح نفسه، وطغيان غرائزه على عقله، وهواه على ضميره، وهذا هو الذي يعصم «العلم المادي» من الانحراف، ويحول دون استخدامه في التدمير والعدوان[1].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٣ - ١٥.

ويضرب لنا العالم المسلم المثل من القرآن الكريم، ومن القصص القرآني العظيم حتى يتعظ الناس من أحداث التاريخ.

«ولقد ضرب لنا القرآن مثلا بسليمان عليه السلام، والذي آتاه الله ملكاً لم يؤته أحدا من بعده، فقد أُحضر إليه عرش بلقيس من سبأ باليمن، إلى مقره بالشام، قبل أن يرتد إليه طرفه، بفضل ذلك الذي وصفه القرآن بأنه ﴿ **عنده علم من الكتاب** ﴾ وهنا تجلى الإيمان حين أرجع سليمان الفضل إلى الله، لا إلى نفسه، فلم يركبه الغرور، أو يستبد به الطغيان ﴿ **قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربي غني كريم** ﴾ [النمل: ٤٠].

وكذلك كان موقف ذي القرنين الذي فتح الفتوح غربًا وشرقًا، وتوج حكمه بإقامة سوره العظيم، مستخدما ما يسَّرَه له علم عصره من وسائل وأدوات، فلما أتم البناء قال في تواضع المؤمنين: ﴿ **هذا رحمة من ربي، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقًّا** ﴾ **[الكهف: ٩٨]** [(١)].

ويصل الشيخ ـ حفظه الله ـ إلى الثنائية التبادلية الحقة الرائعة التي ينبغي أن نعيها في حياتنا ونحن نحاول أن نقترب من العلم على أساس متين من الإيمان، يقول: «ألا إن العلم الحق هو الذي يهدي إلى الإيمان، والإيمان الحق هو الذي يفسح مجالا للعلم، فهما إذن شريكان متفاهمان، بل أخوان متعاونان.

وهذا هو العلم الذي يريده الإسلام أيا كان موضوعه، ومجال بحثه. يريده علما في ظل الإيمان، وفي خدمة مثله العليا، وإلى ذلك أشار القرآن الكريم حين

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦.

قـال في أول آية أنـزلت ﴿ **اقرأ بـاسم ربك الذي خلق** ﴾ والقراءة عنـوان العلم ومفتاحه ومصباحه، فإذا كان أول أمر إلهي نزل به القرآن : «القراءة»، كان ذلك أوضح دليل على مكانة العلم في الإسلام.

ولكن القـرآن لـــم يطلب «مطلق قـراءة»، وإنما طلب قـراءة مقيـــدة بقيـد خاص، وهـو أن تكون . . . «بـاسم الله». وإذا كانـت القراءة باسـم الله، فقد وجهت إلى الحق والخير والهداية؛ لأن الله تعالى هو مصدر هذا كلـه.

ولا غرو أن نشأ العلم في الإسلام في أحضـان الدين، وأن نشأت المدارس في صحون المساجد، وبدأت الجامعات الإسـلامية العريقة تحت سقوف الجوامع، بل سمي كل منها جامعا : جامع الأزهر، جامع القرويين، جامع الزيتونة. . . وهكذا.

وكانت هـذه الجوامع أو الجامعات تدرس علـوم الدين، وعلوم الدنيـا معا، وكان كثير من العلماء التجـريبيين في الوقت نفســه علماء دينٍ، مثل القاضي ابن رشد الحفيـد مؤلف «بـداية المجتهـد ونهاية المقتصـد» في الفقه المقـارن، ومؤلف «الكليات» في الطب. ومثل الخوارزمي الذي ألف كتابه الفريد، الذي أسس به علم الجبر، ليحل به مشكلات في الوصايا والمواريث من أبواب الفقه (1).

واقـع الخليـج :

ونترك التنظير، وننـزل إلى أرض الـواقع لنسأل إخـواننا أصحـاب الإشكـاليـة الثقافية التي حشروا أنفسهم فيهـا، وهي هل يمكن الدخول إلى العلم الحديث مع المحافظة على العقيدة والقيم؟ ألم تدخل المملكـة العربية السعودية إلى مجال العلم الحديث، وهي الدولـة التي تطبق الشريعة أكثر من أية دولـة أخرى، ألا

(1) المرجع السابق، ص ص ١٦ - ١٧.

توجد بها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في المدينة نفسها . . الرياض التي توجد بها مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية ؟ ألا تدرس علوم التاريخ والجغرافيا والتربية وعلم النفس والاجتماع والخدمة الاجتماعية وعلوم المكتبات في جامعة الإمام نفسها التي اشتهرت بكلياتها الدينية : الشريعة وأصول الدين والمعهد العالي للقضاء ؟ ألا توجد كليات الطب والصيدلة والهندسة في جامعة الملك سعود مع كلية التربية حيث يوجد بها قسم عريق للثقافة الإسلامية ؟

وأمثلة كثيرة يمكن للإنسان أن يضربها للتزاوج العصري الأصيل بين الدين والعلم، من جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، حيث علوم العصر كأحدث ما تكون، وحيث التجارب كأدق ما تكون، وحيث تطبيقات العلم كما يحب كل مسلم غيور أن توجد في كل جامعاتنا، مع «العلم الديني» في جامعتي أم القرى بمكة المكرمة، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

ما هي الإشكالية إذن في ثقافة الخليج التي تخترع أو تُدَّعى بين العلم والدين، بين الأصالة والمعاصرة، بين القديم والحديث ؟ إن كل ذلك يسير بشكل طبيعي، ودون عوائق تذكر، وإذا كانت هناك عوائق من نوع ما، ذات يوم، فلقد تغلب عليها في الخليج، واندفعت مجتمعاته نحو الأخذ بالعلم الحديث من أوسع أبوابه . . وهي الجامعات، وبقي أن تحافظ تلك المجتمعات على قيمها وتقاليدها، ولا يعميها بريق الحديث عن أصالة ما عندها، بل وعن أهميته، حتى يعصمها من أن تنجرف في تيار «التحديث» دون وعي، وتكون النتيجة هي مما لا تحمد عقباه. ولكن يطمئن النفوس أن هناك رجالاً من أهل المنطقة يعون المخاطر، ومؤسسات تحافظ على الدين، فتحفظ للأمة اتزانها بعون من الله، وفضل منه جل وعلا.



بعض التحديات التي تواجه الثقافة في الخليج

بعض التحديات التي تواجه الثقافة في الخليج

على الرغم من الظروف المشتركة والمتشابهة للثقافة في دول الخليج العربية إلا أن هناك عدداً من التحديات التي تواجه تلك الثقافة والتي لا يمكن التغاضي عنها أو إهمالها، ويمكن إيجاز هذه التحديات أو معوقات الثقافة الخليجية في النقاط التالية :

أولاً :

تؤكد الخطة الشاملة للثقافة العربية على أن من أهم التحديات التي تواجه الثقافة العربية بصفة عامة - **التخلف وعدم الوعي (لدى كثير من المواطنين)**، بطبيعة الحال، ولا نحتاج إلى الحديث عن نِسب الأمية العالية التي لا زالت الدول الخليجية - مثلها مثل باقي الدول العربية - تكافح ضدها، في الوقت الذي دخل عدد كبير من الدول في مجال مكافحة الأمية الحضارية، وبعضها - وبخاصة الدول الصناعية - يعمل في مجال مكافحة الأمية التكنولوجية [١].

ثانياً :

يعد أدب الأطفال في معظم الدول العربية، والدول الخليجية من بينها، متوسطاً أو ضعيفاً [٢] ويهمنا أدب الأطفال هنا جدًّا؛ لأن العناية به معناها العناية بالثقافة في المجتمع من البداية، أي هناك عند المنبع، ولو بدأنا من هناك فلن نحتاج إلى بذل جهود أكبر مع الكبار والناضجين في المجتمع.

---

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الرابع، مرجع سابق، ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٧٦.

ثالثاً :

إن وسائل البحث العلمي محدودة، وتفتقر إلى الوسائل الحديثة، في معظم الدول العربية [1]، وقد يمكن استثناء دول الخليج بصفة عامة من هذا الجانب. ولكن يجمع الكل (الدول العربية والخليجية) قلة الإنفاق على البحث العلمي وندرة الاهتمام بمشروعاته، وعدم الاستجابة لحاجات الباحثين والعلماء المادية [2]، وكذا عدم الاهتمام بطموحات العلماء، أو بتنفيذ توصياتهم العلمية التي يخرجون بها من مؤتمراتهم وندواتهم.

رابعاً :

إن قضايا التعريب والترجمة تكاد تكون في وضع لا يتناسب مع حاجات الدول الخليجية، ولا مع طموحات وآمال أبنائها، وليست هناك جهود كافية في سبيلها، كما أن التمويل الكافي يعوزها، ولو نظرنا إلى دولة مثل اليابان التي تترجم إلى لغتها الأصلية كل ما ينشر في الخارج، وخصوصًا في دول العالم المتقدم لعرفنا المعنى الذي نتحدث عنه. فعلى فترات منتظمة أو شبه منتظمة تصل الأعمال العلمية (خاصة) والأدبية إلى اليابان فتوزع فور وصولها، دون حواجز بيروقراطية إلى جهات الاختصاص التي تقوم بترجمتها فوراً وإتاحتها للناس للعلم والاطلاع.

خامساً :

الكتاب العربي محدود الطباعة، وتدفقه عبر الحدود العربية تواجهه صعوبات ترجع إلى ارتفاع الأسعار حينا، ثم إلى عقبات الجمارك حينا آخر،

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٧.

(٢) محمد عبد العليم مرسي : البحث العلمي عند المسلمين بين ميسَّرات الماضي ومعوقات الحاضر، عالم الكتب، الرياض، ١٤١٠هـ

بالإضـافة إلى عنصر الـرقابـة، وكذا سوء التـوزيع، وقلة الـدعم من قبل بعض الحكومـات[1].

سادساً :

هبـوط أو تـدهور بعض القيم التـي كانت سـائدة في مجتمعـات دول الخليج العربية، مثل قيمة العمل اليدوي والحرفي، والتي كـانت جزءًا أساسيًّا من ثقافة أبناء الخليج، قبل ظهور البترول ووفرة الثـروة في أيديهم، ويطالب أحد الباحثين في شؤون الخليج بإعـادة اعتبار قيمة العمل اليدوي الـذي يعد المنطلق الحقيقي لأي تنمية حقيقية تقوم على تنمية الإنسان وبنائه [2]. وبطبيعة الحال كلنا نعلم أن جزءاً كبيراً من تراث الخليج الثقافي يعود إلى الأيام التي كان فيها أبناؤه يعملون ويكدون، ويتغنون بالعمل وقيمته.

سابعاً :

بعد كثرة الأمـوال في أيدي أبناء الخليج وإقبال أعـداد كبيرة منهم على أشكال الإبـداع الثقافي تبينت ظـاهرة جـديدة خطيرة نقـرأ عنها. . لقـد صاحب هـذه الدفقـة في الإقبال الاجتماعي على الأشكـال الإبداعية المتعـددة ولوج طـائفة من الأدعياء الـذين لا يطيقون إبداعا، فـانتحلوه اشتراءً بغية الشهرة (لعلـه يقصد بغيـة اشتراء الشهـرة) وتحقيق الـذات، حتى برزت في مجالات الإبـداع ظـاهـرة شائهـة : "شعراء لا يفقهـون في الشعر معنى ولا مبنى، وقصـاصون لا يـدركون

---

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص ٨١.

(٢) محمد عباس إبراهيم، مرجع سابق، ص ١٨.

معنى الحبكة، ومـؤلفون هم أقـرب إلى النسَّاخين منهم إلى مـؤلفين، وكان ذلك جـزءًا من سلبيـات التحـول الاقتصـادي الـذي ارتـد وبـالا على الثقـافـة والإبـداع»(١).

ثامناً :

«لم تستقبل أشكـال الإبداع الثقـافي المستحـدثة بـالترحيب من مجتمعـاتها، بغض النظر عما تنطـوي عليه من أصـالة أو زيف، فـالمسرح قد خطـا خطوات قصيرة في بعض الأقطـار، ثم مـا لبث أن تعثـر. أمـا النحت والموسيقـى فقـد لاحقهما الاضطهاد من المجتمع الـذي انقاد للدعـاوي التراثية وما إليهـا، وامتد ذلك حتى فترة قليلـة سابقـة، وفي بعض أقطارنـا ما زالت النظـرة الاجتماعية إلى أشكال معينة من الإبداع الثقافي واقعة في نطاق المحرمـات» (٢).

هذا هـو رأي الدكتور محمد الـرميحي، ولكنه في حقيقة الأمر يحتـاج إلى وقفة متأنية ومناقشـة، فهو هنا يعيب على مجتمعات الخليج أنها لـم تستقبل أشكال الإبداع المستحـدثة بالترحيب، وكان الأولى بـه أن ينحو باللائمـة على المبدعين الذين حاولـوا إدخال «مستحدثات ثقافية» لا تنـاسب مجتمعاتهم، وكان ينبغي على هؤلاء المثقفين المبدعين أن يتحسسوا أوضـاع ونفسيات تلك المجتمعات، إذ أن رفض المجتمع للعمل «المستحدث» ترمومتر لا يخطئ عن ذلك العمل، ولا ينبغي أن نطالب المجتمع بتقبل أمور ثقافية وهضمها رغم أنفه، إنما العكس هو الصحيح حيث ينبغي مطـالبة «المبـدعين» بتحسس مشـاعر جماعير مجتمعـاتهم والإتيان بما تتقبله هذه الجماهير وتستسيغه، لا فرض المستحدثات غير المقبولة - اجتماعيًّا - عليهم !!

---

(١) محمد الـرميحي : الإبداع الثقافي ومعـوقاته في أخطـار مجلس التعاون، مجلة التعـاون، العدد الأول، ١٤٠٦هـ، ص ١١٣

(٢) المرجع السابق.

هـذا جانب، أمـا الجانب الثـاني فهو تعبير الكـاتب بأن «النحت والموسيقى لاحقهما الاضطهـاد من المجتمع الـذي انقـاد «للدعـاوي التراثيـة» ومـا إليهـا.
وتتمثل الخطـورة في هذه العبارة في جـانبين: الجانب الأول أنه ألغـى شخصية المجتمع ككل وتحدث عنه باعتباره منقاداً لآخـرين، وأنه لا رأي لـه ولا موقف، والثاني ما أطلق عليه «الدعاوى التراثية» وهو يقصد المتدينين الذين قالوا بتحريم النحت والموسيقى، والذين استنـدوا إلى أحاديث للرسـول ﷺ واستجاب لهم المجتمع، وهـو يعـد ذلك «دعاوى» بمعنى أنـه غير مقتنع بها ولا راض عنهـا.
وهذا شأنـه أن يؤمن بها، أو لا يؤمن، ولكن ليس لـه أن يفرض على المجتمع أو يعيب عليـه إن اقتنـع بـرأي العلماء من أبنـائه ووافقهم على مـوقفهم الصحيح ورفض ما يمس عقيدته بصراحة ووضوح.

كـذلك فإنـه ينعى على المجتمع ـ مجتمع الخليج ـ أنـه يحرم بعض الأمـور الثقـافيـة.. أو بمعنى أصح الأمـور الفنية، فيقـول إن «النظـرة الاجتماعيـة إلى أشكال معينة من الإبداع الثقافي واقعـة في نطاق المحرمـات» ولا ندري ما الذي يغضبه من هـذا، أي أن يكون للمجتمع قيم يتمسك بها، ومعـايير يطبقها على ما يتقبله وما لا يتقبله، وفي حدود علمنا فإن مجتمعات الخليج الإسلامية لم تقف في وجـه، ولم ترفـض الأدب من شعر ونثـر وقصـة، كما أنها تقبلت التمثيل على المسرح، أو التليفزيـون، فما «الأشكال المعينة» من الإبداع الثقـافي التي رفضتها تلك المجتمعـات إن لم تكن الـرقص الفـاضح والتمثيل الهابط وغيرهما؟ وهل نلوم المجتمع مرة ثـانية.. أم نلقي باللوم على أولئك «المبـدعين» الذين يحاولون تقديـم أمور يرفضها المجتمع، بل ويصر على رفضها..؟؟!!

تاسعاً:

ضمن التحديات للثقافة يأتي المعوق الإداري كمعوق للإبداع الذي يمكن أن نعده الطـرف الثاني مـن الثقافة، وهـذا المعوق يسميـه الرميحي «الفهـم المتدني

لقيمـة الأعمال الإبـداعيـة الثقـافيـة وغمط قـدرهـا ، فبعض المسـؤولين «البيروقراطيين» يهيْمنون على إجراءات النتاج الثقافي ومراحله (كالطباعة وغيرها) أو مرحلـة الفحص (كالرقابـة على المصنفات الفنية) أو مرحلـة التوزيع والنشر، فنجد من هؤلاء من قصر وعيـه عن إرسال قيمة الثقافة وأثرهـا في حياة الشعوب فلم يعطها حقها من الإكبار. ومن المعوقات أن الموكلين بوضع اللوائح والقوانين للإبداع يقفون بها عند مستوى فهمهم وتفسيرهـم ، فيقفون بذلك حجر عثرة في وجه الذين ينطلقون إلى آفاق رحيبة ومستويات رفيعة لا يدركها غيرهم» (١) .

عاشراً :

هنـاك عائق أو تحد آخـر يـواجه الثقـافة في دول الخليج ، وبخـاصـة الثقافـة المستوردة عبر الحدود السياسية المعروفـة ، وهذا التحدي يمنع الانتشار الثقافي ، أو على الأقل يحد منـه «حيث يعامل النتـاج الثقافي على بعض حـدودنا معـاملة المهربات والممنـوعات» ، ولو فكرنـا قليلا في المواد الثقافية التي تـدخل إلى بيوتنا وعقولنا من خلال أجهزة الراديو والتليفـزيون ، لتوقفنا قليلا أو كثيراً أمام الكتب والمطبوعـات الأخرى لأن ما فيهـا ليس أخطر مما تحمله هـذه الوسائل الإعـلامية الحديثة ، وخصوصـا في عصر البث المباشر الذي لا نستطيع له رقـابة ولا منعاً ، وكذلك في عصر «الفاكس» الذي ساد المنطقة .

حادي عشر :

يحدثنا كاتب آخر عن معوق اجتماعي يقول إنه يقف في وجه الإبداع الثقافي ، ومن ثم في وجه الثقافة ، وهو «صغـر حجم بعض مجتمعاتنا (مجتمعات الخليج)

---

(١) المرجع السابق، ص ١٤٨ .

قد يكون معوقاً في حد ذاته للإبداع الثقافي، فالخبرة في هذه المجتمعات الصغيرة هي خبرة ضيقة ومحدودة، كما أن الأفراد يعرف بعضهم بعضا معرفة وثيقة، ويضيق هذا النوع من المجتمعات بالأشكال الحسية في النقد، وبخاصة النقد للإبداع والمبدعين، وما زال النقد في منطقتنا طفلا يحبو وتشوبه العلاقات الشخصية، وما تفرضه من محاباة لذوي العلاقات الودية، وشطط وغلو مع الذين لا نرضى عنهم، أي اللجوء إلى النقد غير الموضوعي مما يؤدي إلى تشويه الإبداع والنقد معاً [1].

ثاني عشر :

تعد الثقافة الغربية - بوصفها الأقوى والأخصب - تحديًا للحضارات الأخرى، وثقافة الخليج من بينها «ولكن ثمة فرقاً شاسعاً بين استيعاب فكرها الإنساني الاجتماعي، وبين استيعاب فكرها العلمي التقني، **فمنظومة الفكر الإنساني - الاجتماعي الغربي** من (الفلسفة إلى الفنون والآداب والسياسة) تيارات لا تحصى، وهي منسجمة مع القيم الغربية الخلقية والروحية والجمالية والاجتماعية، بوصفها جزءاً منها، كما أنها قابلة للجدل، أي للقبول والرفض.. كليا أو جزئيا، باعتبار أنها لا تحمل أي قانون حتمي أو نهائي، ثم إنها قد تحمل الخطر إلى منظومة القيم العربية الإسلامية، وتغير من جوهر الهوية الحضارية العربية» [2].

---

(١) المرجع السابق، ص ١٢٠.

(٢) شاكر مصطفى : التخطيط الثقافي في دول مجلس التعاون والخطة الثقافية الشاملة، التعاون، العدد ٤، ١٤٠٧هـ، ص ١.

ويستدرك الكاتب الواعي السابق ـ شاكر مصطفى ـ ليقول : «لكن الحاجة إليها في حياتها الثقافية ليست حاجة حياتية ملحة، وتستطيع الاستغناء عنها، كلها أو بعضها، دون أن يظهر أي نقص في هذه الحياة، كما أن في تراثنا الطارف والتليد، وفي تراث غيرنا بدائل عديدة لها قد تغني عنها أو عن بعضها، و إذا كانت معرفتها تضيء العصر فإنها غير أساسية في التطور الثقافي.

وينبه المفكر المسلم أمته «أما منظومة الفكر العلمي الحديث، ومدى تباعدنا عنها فهما التحدي الحقيقي، لا في الأبعاد العميقة، ولكن في الأخطار المصيرية الناجمة عنها، فالحاجة إلى استيعاب العلم والتكنولوجيا الحديثة حاجة أساسية بوصفها تقدمًا إنسانيًا لا مجال للتراجع عنه، كما أنها أقل ارتباطاً بالقيم الغربية؛ لأنها تنتمي إلى عالم القوانين العلمية و إلى حتميتها المطلقة، فلا مجال للجدل فيها، ولا بدائل لدينا أو في الثقافات الأخرى. فحاجة الثقافة العربية الحديثة - والخليجية جزء منها - إلى استيعابها أمر حتمي. وإذا كانت الحاجة إليها ضرورة ملحة فإن أثرها على الهوية الحضارية قابل للتطويق»[1].

ثالث عشر :

وينطلق بنا شاكر إلى تحدٍّ من نوع خاص، لا بد من مواجهته ومحاولة استيعابه؛ لأنه لا غناء لنا عنه، هذا التحدي هو «الفجوة التكنولوجية» بيننا وبين الآخرين المتقدمين (أمريكا وأوروبا واليابان بالتحديد[*]).

---

(١) المرجع السابق.

(*) لمن يريد الاطلاع على الفرق الكبير بين اليابان وغيرها - حتى أمريكا - في هذا المجال عليهم أن يقرأوا الكتاب الحديث والرائع لمؤلفه الياباني Shintaro Ishihara بعنوان The Japan that can Say No. وقد قدمت له عرضا وافيا في مجلة الفيصل في العدد (١٦٦)، شوال ١٤١٣هـ ـ أبريل ١٩٩٣م، والكتاب ترجم إلى الإنجليزية، وصدر في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٠م، وأثار ضجة هائلة لا زالت مشتعلة هناك.

يقول الكاتب : وتتشكل هذه الفجوة التكنولوجية من فجوتين مشتبكتين معا تتعلق إحداهما بعجز المعرفة، والأخرى بالقصور الصناعي، ونعبر عن ذلك باسم نقل التقنية، وهي أعقد من ذلك بكثير، فمنذ ثلاثة عقود تطورت الصناعة الإليكترونية محدثة نقلة نوعية في التقدم البشري، قدرة وتغييرا. لقد تطور (الكمبيوتر) في الحجم والذكاء والذاكرة والسرعة، وكذا في نوعية البيانات والمدخلات والمخرجات، وعناصر المعالجة، وفي لغات التعامل وبنية الأنظمة ومجالات التطبيق، وذلك في أجيال سريعة متعاقبة بلغت ستة أجيال حتى الآن (*)، وحقق بذلك طفرة هائلة في تقدم البشرية لم يسبق لها مثيل، وامتدت تطبيقات الحاسب الآلي إلى كل ميادين الحياة، حتى الطب والقانون والتعليم والإدارة.

ووافق ذلك كله ثورة أخرى في مجال تقنيات الاتصال والأقمار الصناعية، بعد زيادة طاقاتها باستخدام الألياف الضوئية، وبنقل الصوت والصورة، وأسلوب الفيديوتكس في تبادل الرسائل بين المستخدم لها ومراكز المعلومات، في الوقت الذي يزداد شح البلاد المتقدمة بمعلوماتها، ويتطلب نقلها إجراء تغييرات في البنى الاجتماعية والاقتصادية للبلاد التي تنقلها، ولا تتوافر للبلاد العربية الأيدي الخبيرة بها، ولا معدات الإنتاج.

وإذا كانت هذه الأمور تشكل قضية الحاسب الآلي كأداة للثقافة فثمة قضية أخرى له وهي وضعه نفسه كقضية ثقافية، ويدخل فيها أمر تعريبه ولغته، والقضيتان تتطلبان تحركًا تربويًا - تثقيفيًّا سريعًا جدًّا لإيجاد البنى الأساسية

(*) كان هذا الكلام وقت كتابة المقال عام ١٩٨٦م ونحن الآن في عام ١٩٩٣م!

التحتيـة المتخصصة لتكـون قـاعـدة البناء للغـد، ولتحمي المواطن العـربي من الانسحاق الحضاري(١).

رابع عشر :

إن ثورة الاتصـالات التقنية، بالإضافـة إلى عوامل أخرى أعطت ثقافـة البلاد المصنعة قدرات هـائلة لم تتوافر لأية ثقـافة أخرى من قبل، وقـد سـاعدها ذلك **على فرض تبعيتها وأنماطها وقيمها على الثقافـات الأخرى. وهذا التنميط الثقافي أضحى جزءًا مكملا للاستعمار الاقتصادي - السياسي الحديث**، وهو يستخدم في ذلك مختلف الوسائل الثقافية. ومشكلة هذا الخطر أنه يقوم على عدم التكافؤ في القـوى، وعلى أسـاس التـدفق الـوحيـد الاتجاه من الغـرب إلى الشرق، وعلى أساس القيم الغربية والتنميط الاستهلاكي(٢).

خامس عشر :

من التحديـات المؤثرة عدم النظرة إلى الثقـافة النظرة الجدية، وعـدم اعتبارها أحد مكونات الحياة، وبعضها الآخر ناجم **عن هيمنة الغرب ونفوذه الكبير، فقد أوجـدت النظرة الماديـة لدى عـدد من الطبقـات والفئات حـالة من الاستهـلاك المفـرط اتجه إلى الجوانب السهلة من الحيـاة، ووصل إلى حـد التبذيـر، حتى على مستوى المشـاريع والأعمال الضخمة، بينما صدف تمامـا عن الجانب الثقافي، أو لنقل إنـه وضعه في المرتبـة الثانـويـة أو المهملة من الاهتمام، أو حسبـه نوعًـا من الإضافة التزيينية التي لا تقدم شيئًا في التكوين المجتمعي ولا تؤخر.**

---

(١) شاكر مصطفى، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦.

وثمة دون شك ترابط بين الثقافة الاستهلاكية وبين ضمور الوعي والإبداع الثقافي، **فتوافر الاستهلاك الهين من شأنه سد منابع الإبداع، والإحساس بالاكتفاء، كما أنه يؤدي إلى النظرة الدونية للثقافة،** باعتبار التكنولوجيا والعلم أساس التقدم، **وأما الأدب والشعر فأضغاث أحلام**. وإلى هذا وذاك **فالثقافة الاستهلاكية تدفع كالرمال المتحركة إلى مزيد من الاستهلاك وتصرف حتى المثقف إلى ما يدر عليه الربح، لا إلى ما يبدعه الفن والجمال**[1].

سادس عشر:

إن منطقة الخليج العربي تخضع لصراعات دولية متعددة الجوانب والدوافع والأهداف، كما أنها متعددة الوسائل والأساليب، وهذه الصراعات تجعلها عرضة «للغزو» بأشكاله المختلفة من أطماع بنفطها وثرواتها المالية، ومحاولة الاحتلال لمواقعها الاستراتيجية وفرض التبعية عليها. وأما التمهيد لذلك كله فإنما يتم بالغزو الثقافي. وهذا الغزو يجري فعليا في العالم الثالث كله، وبتخطيط مدروس منظم ضمن استراتيجيات الدول الكبرى، وتستعين هذه الدول عليه بتقدمها العلمي المطرد، وبتطورها التكنولوجي الساحق، وبسيطرتها على قنوات الاتصال ووسائله سيطرة كاملة، وهذا كله يجعل للأيديولوجيات الغربية اليد العليا في الوطن العربي، ومنه منطقة الخليج، **وإن ثورة المعرفة والتكنولوجيا، ووسائل الاتصال، بقدر ما هي وسائل خير للإنسان، هي في الوقت نفسه، وبسبب من استخدامها في خدمة مصالح الدول التي تملكها، وسائل سيطرة**

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٢.

وتبعية فكـرية ـ روحية ـ أيـديولـوجية ، لا تقل خطـرا عن استخدام الأسلحـة القاتلة ، لولا أنها وسائل كالسم تقتل وهي صـامتة ؛ لأنها تستهدف إلغاء الهوية الحضارية للأمم الأخرى في سبيل ثقافة غربية واحدة [١].

سابع عشر :

ويبين عبد الله العمـر مظهرًا آخر من مظاهـر التحديات الثقـافية في الخليج حين يقـول إن أبرز المظـاهر السلبيـة التي طرأت على حيـاتنا نتيجـة الكم الهائل الـوافـد علينا مـن علم وتكنولـوجيـا يتمثل في التهـافت على شراء الكماليـات ، والاندفاع السريع نحو اقتناء السلع الاستهلاكية ، فإذا كانت هناك خشية نبديها إزاء هذا المظهر المؤسف في نمط حياتنا فإنه يتعلق بأثر كل ذلك على أصالة الفن والإبداع في نتاجـاتنا ، فها نحن صرنا نشهد اليوم ألـوانًا من الأدب وأشكالاً من الفن كـالموسيقى والمسرحيـة يكون الهدف مـن ورائها الـربح المادي ، أو الشهـرة الزائفة ، لا الفن الرفيع ، أو الإبداع الراقي [٢].

ثامن عشر :

هنـاك تحدٍّ من نوع خطير يحدثنـا عنه الجلال ، وربما يمارس بـدون وعي ، **وهو يتمثل في «تكريس التجزئة السياسية – وربما عن خطأ تقدير – للتمزق الثقافي ، مما يهدد ببتر الـوشائج التاريخية القـائمة بين مجتمعات المنطقـة . وتعمل الأجهزة المشرفـة على الإعلام والثقـافة والتعليـم بوسـائلها المختلفـة من صحـافة و إذاعـة وتليفـزيون ومـدارس (؟؟) على التركيـز على التميـز والاختلاف ، بحيث يكـون هناك ثقـافة وفكر وأدب وفن لكل دولة من دول مجلس التعـاون ، وهكذا في كل المجـالات»** [٣].

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٤ .

(٢) عبد الله العمر، مرجع سابق، ص ص ٣٩ – ٤٠ .

(٣) عبد العزيز الجلال ، مرجع سابق، ص ٢٦ .

تاسع عشر :

تكريس الإقليمية والعزلة مقابل الرابطة القومية للعروبة، وترتبط هذه الظاهرة بنفس تيار التجزئة السياسية الممتدة عبر الوطن العربي الكبير، حيث تشهد الدعوة العربية انحساراً ظاهراً، بل واستصغارا لشأنها، وإلقاء اللوم عليها فيما وصل العرب إليه من تخلف وفرقة، مقابل تعزيز للإقليمية، والارتباط بجذور منبتة عن التيار السائد للثقافة العربية الإسلامية، أو مقابل إنكار للعروبة، وتذويب لها في إطار إسلامي مضاد للعروبة (؟؟!!) مع أن العروبة لم تكتسب معناها وعمقها التاريخي إلا في إطار الإسلام، وأن الإسلام مرتبط بالعروبة نبوة واحتضانًا ولغة وتاريخًا، بل ثقافة شاملة.

كما أن من سمات هذه الظاهرة سيطرة اللغات الأجنبية في التعليم والتعامل، وسيطرة اللهجات المحلية في التخاطب والإنتاج الفني في غالبه، مما يضعف أثر اللغة العربية في الرباط القومي للثقافة، ويسبب استمرارها شبه عاجزة عن المعاصرة ومواكبة متطلبات الحياة الحديثة في العلوم والتقنية والفنون، بالرغم من قدرتها على الصمود والخلود وإمكانية تطويرها تعزيزا للتراث الثقافي، ومساهمة أفعل في التنمية الثقافية الشاملة سواء بسواء [1].

عشرون :

ويتبنى الجلال موقفًا يطالب فيه بأن يشارك المواطنون في الخليج في الفكر والرأي المسيّر لشؤون الحياة، بحيث ينتج عن تلك المشاركة إبداع حر ينتج من شعور الإنسان بأهميته في مجتمعه، وفي بناء ثقافته [2].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧.

واحد وعشرون :

غياب التوازن الثقافي في التنمية، فقد سيطرت على المنطقة فترة ليست بالقصيرة ارتبطت فيها التنمية بمظاهرها المادية من مشاريع اقتصادية ومصانع وطرق ومزارع وعمران وما إليها، وبالرغم من وفرة ما تحقق للمنطقة في هذا المجال **فإنها تدرك أن ما حققته لا يزال بعيدًا عن التنمية الشاملة القادرة على الاستمرار وإسعاد الإنسان، إذ أن ما تحقق ما هو في غالبيته إلا مظاهر مادية منبتة تيسرت بفضل تدفق النفط، ويزول معظمها بزواله، ما لم يأخذ التوازن الثقافي في التنمية مكانه من خلال النظام الاجتماعي والتعليمي والإعلامي، (والثقافي)، في حال فصله عن تلك النظم.**

والتوازن الثقافي يعني القدرة على الفكر والإبداع والعطاء العلمي من قبل الإنسان ليوجد المادة ويسيّرها ويصونها ويجددها فتتجدد بذلك دورة الحياة للمجتمع، **فالتوازن الثقافي بهذا المعنى يتحقق من خلال الحرية والمشاركة السياسية، والنظام التعليمي المؤدي للتفكير والاستقلال والموضوعية في السلوك والحكم، ومن خلال النظام الثقافي والنظام الإعلامي المتفتح والموضوعي [1].**

ولا ندري حقًّا إن كان التوازن الثقافي قد غاب في التنمية في منطقة الخليج العربية، وما أشار إليه الجلال من المظاهر المادية للتنمية من مشاريع اقتصادية ومزارع وطرق وعمران، صاحبه - حقًّا - مشاريع أخرى عملاقة يفترض أنها في خدمة الثقافة بالدرجة الأولى، ونقصد بها الجامعات التي أنشئت في المنطقة بشكل متسارع، حتى بلغت قرابة العشرين جامعة في دول مجلس التعاون وحدها، بالإضافة إلى آلاف المدارس التي يتعلم ويتثقف فيها أبناء الإقليم

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٧.

وبناتـه، ناهيك عن الأنديـة الثقافيـة وشبكات الإذاعة والتليفـزيون، وعشرات الصحف والمجلات وغيرها.

صحيح قـد نختلف أو نتفق حول طبيعـة الأداء في هـذه المؤسسات العلميـة والثقافية، وقـد ننتقد أنواعًا من القصور فيها أحيـانًا، وأنها تعيش في معزل عن مجتمعاتها أحيـانًا أخـرى، ولكن ذلك لا يدفعنـا إلى تجاهل وجودهـا كلية أو إلى إلغائه من تفكيرنا أو كتاباتنا !!

اثنان وعشرون :

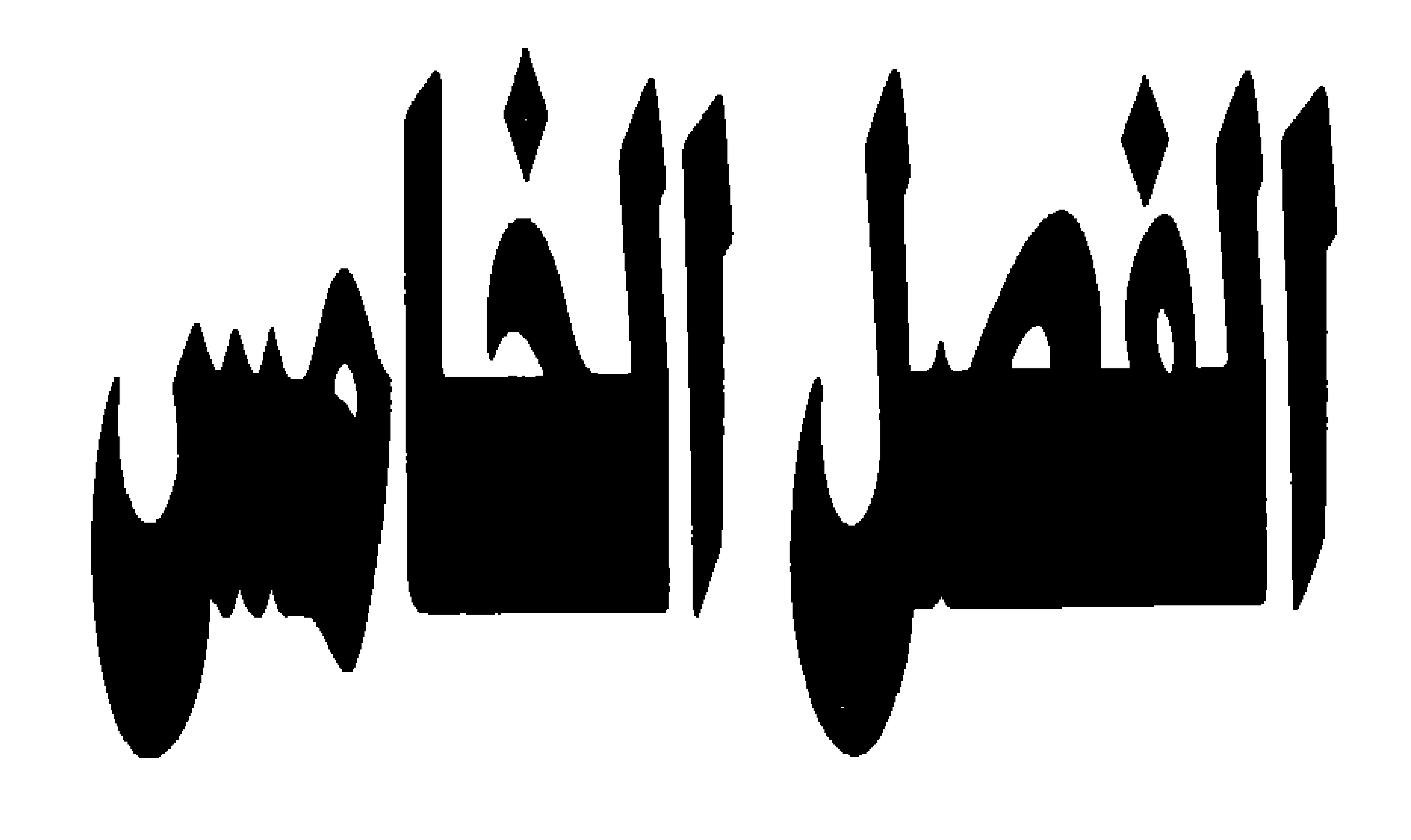
ورغـم أننـا أوردنـا قبل ذلك خطـورة الثقـافة الغـربية الصنـاعية على منطقـة الخليج العربية، إلا أن هناك باحثا يتحدث في هذا الموضوع من زاوية مختلفة تعد تحديًا حقيقيًّا للثقافة في المنطقة، وفي العالم العربي عامة، وهو تقبل بعض الناس لهذه الثقافـة الغربية والـدفاع عنها. يقـول أبو زيد : «وتظهـر خطورة التأثيرات الثقـافيـة الأجنبيـة التي تمثل تحديـا للثقـافـة القـوميـة في أنها تعبر عن تيـارات واتجاهات ومـذاهب ثقافيـة وفكرية تنتمي في الأصل إلى مجتمعـات أكثر تقـدمًا وتطورًا من المجتمعـات العربية ومجتمعات الخليج من بينهـا بطبيعة الحال، وأنها تحمل بين ثناياها بذور السيطرة الثقافية الأجنبية على الثقافة القومية.

ويبدو أن ثمـة استعدادا لدى بعض قطـاعات المجتمع العـربي لتقبل كل ما يقدمه الغرب خصوصا من آراء وأفكار وقيم وأنماط للسلوك، واعتناق هذه الآراء والأفكار والدفـاع عنها بغير دراسة أو تمحيص. وقد يكـون السبب في ذلك هو **الشعور الكـامن بالتخلف** العام أمـام الغرب في مجالات العلـم والتكنولـوجيا، وكذلك في **الجوانب السياسية الاقتصادية والعسكرية**، والاعتماد بأن هذا التفوق يستتبع بـالضرورة التفوق أو التقـدم والرقي الثقـافي، وأن ذلك يحتم من ثم تقبل حصـاد الفكـر الغـربي وثقـافتـه، مثلما نتقبـل نتـائج البحث العلمي والتقـدم التكنولـوجي. والنتيجة الخطيرة التي قد تترتـب على ذلك النوع من التفكير ومن

المنطق هي تعطيل الملكـات الإبـداعيـة، وشل القـدرات الفكـريـة، ومن ثم الخضـوع للفكر الغـربي، وللقيم الثقـافية الغـربيـة، والاستسلام الـذهني لكل إنجازات الغرب العلميـة ومذاهبه الفلسفية واتجاهـاته الأيديولـوجية، بل وأيضا محاكاته في أنماط سلوكه وقيمه الاجتماعية والأخلاقية» [1].

---

(١) أحمد مصطفى أبو زيـد : التحدي الثقـافي، ضمن بحوث النـدوة الفكرية الـرابعة لـرؤساء ومـديري الجامعات الخليجية، (الدوحـة - قطر) في الفترة من ٢٣ - ٢٦ ربيع الأول ١٤١٠هـ، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ص ١٩.



الفصل الخامس

الغــزو الثقــافــي

الغزو الثقافي

مـدخـل:

يعد الغـزو الثقافي، وهـو يشمل الغزو الفكـري بطبيعة الحال، أحـد أشكال الاستعمار الجديدة. ولعل عـودة تاريخية خـاطفة تكشف لنا الغطـاء عن جذور هـذا الغـزو الثقـافي، كما أثبتتـه الأحــداث، فعلى الـرغم من استمـرار الحروب الصليبيـة قرابـة قـرنين من الـزمان، إلا أن الخاتمة كـانت لصـالح المسلمين وفي صفهم حين استطـاع القـائد المسلم صـلاح الـدين الأيـوبي أن يجمع صفـوفهم ويـوحد كلمتهم ويضعهم على الطـريق، طـريق حماة الدين الأوائل.. طـريق الجهاد العظيم، فكـان أن هزمـوا ملوك أوروبا وأبـاطرتها وقـوادها، وردوهم على أعقابهم خاسرين يجرجرون أذيـال الهزيمة، ويلعقـون جراح الذل والـعـار [1].

ومرت ظـروف أخرى بـالعالم الإسلامي انهارت خـلالها الخلافة الإسـلامية في بغـداد تحت ضربات جحـافل التتـار الـذين قـدموا من أواسـط آسيا، يحرقـون ويخربون ويدمرون.. كالإعصار العاتي لا يجد من يصده أو يقف في طريقه.

وشـاء الله ـ جلت قدرتـه ـ أن تتوحد كلمة المسلمين تحت قيـادات إسلامية واعية رائعة مثل شيخ الإســلام أحمـد ابن تيمية، وشيـخ الإســلام العز بن عبد الســلام وقطـز... وغيرهم، فأوقفـوا اندفـاع ذلك الإعصـار العـاتي وردوه على أعقابه خاسرا، في معركة «عين جالوت» الشهيرة.

وفي الشمال الشرقي من العـالم الإسـلامي ظهـر الأتـراك العثمانيـون بـدولتهم الفتيـة، تلك التي حملت لـواء الإسـلام واجتازت بـه الفـاصل الضيق بين آسيـا

---

(١) يمكن لمن أراد التزود حول هذا الموضوع أن يعود لكتاب الدكتـور ماجد عرسان الكيلاني: هكذا ظهر جيل صلاح الـدين وهكذا عـادت القدس، الدار السعوديـة للنشر والتوزيع، جــدة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

وأوروبا، وتوغل مجاهدوهـا في قلب أوروبا الشرقي، مجاهدين في سبيل الله حتى دقوا أبـواب فيينـا عـاصمة النمسا. وصعقت أوروبـا حين وجدت نفسهـا وقد انحشرت كالبنـدقة في كسّارتها، فهؤلاء هـم المسلمون في شرقها يدقـون أبوابها، بينما إخوانهم في أقصى الغرب قد فتحوا بلاد الأندلس، وأقاموا فيها حضارة فتية ذات إنجـازات متميزة، وهم لم يكتفـوا بذلك، بـل أخذوا يسعـون لفتح فرنسـا كذلك.

ومـرت فترة من الوقـت تيقظت خلالها أوروبـا، في الـوقت الـذي أخلد فيـه المسلمـون للنوم العميق، والسبـات القاتل، وضـاعت أيـام عزيـزة غاليـة على المسلمين، وخصوصا حين عرفت أوروبا طـريقها إلى العلوم والكشوف، بعد أن أخذت أسسهـا ومبادئهـا من علوم المسلمين ومعارفهـم ومكتشفاتهم، بل ومن تطبيقاتهم العلمية في مجالات الحياة المختلفة [1].

وران صمت مريب على ميـاه البحر المتوسـط، تلك التي ارتادها المجـاهدون المسلمون فيما سبق، حتى حـولوها إلى بحيرة إسـلامية، ثم فزعت هـذه المياه في نهاية القرن الثـامن عشر الميلادي حين خرجت من شواطى فرنسا الجنـوبية حملة بحرية قوية متقدمة تحمل ضمن ما تحمل المدفع.. والبارود.. والمطبعة..!!

ووصلت حملة «بونابرت» إلى الشواطئ المصرية عام ١٧٩٨م، مفتتحة عصرًا جديـدًا بين الشرق المسلم، والغرب النصراني، ودفع المسلمـون غاليا.. وغـاليًا جدًّا.. ثمن نـومهم، وثمن بعدهم عن الدين، وثمن تركهم للجهـاد. وكذا ثمن بعـدهم عن العلم الـذي حثهم الإسـلام عليـه وعلى تحصيلـه والسعي في سبيله، وما زالوا منذ ذلك الحين يدفعون.. حتى اليوم..!!

---

(١) محمـد عبـد العليم مرسي: البحـث العلمي عند المسلمين بين ميسرات الماضي ومعـوقـات الحاضر، مرجع سابق.

وإذا كان «بونابرت» قد افتتح عصر الحروب الصليبية الجديدة بدخول خيله إلى ساحات الأزهر، فإن هذه الحروب لم تنقطع، ولم تتوقف منذ ذلك الحين، وهي تقترب الآن من نهاية قرنها الثاني، فلا يزال الحقد الدفين هناك وهو الذي جعل أحد قواد أوروبا النصرانية يقف في نهاية الحرب العالمية الأولى، أمام قبر صلاح الدين في دمشق، ليقول في شماتة لا تليق بالرجال الكبار: ها قد عدنا. . يا صلاح الدين، وما هكذا يفعل القادة الشرفاء أمام قبور الأعداء[1]!!

وعلى طريق هذه الغزوة الصليبية الجديدة دفعت شعوب إسلامية أخرى كثيرًا من دماء أبنائها ومن أرواحهم، ففي الجزائر دفعوا. . وبغزارة شديدة، وكذا في الشمال الأفريقي المسلم عامة حدث هذا، ولن ينسى التاريخ، ولا ينبغي للمسلمين أن ينسوا، ما فعلته إيطاليا النصرانية مع ليبيا المسلمة، ومع مجاهديها وعلى رأسهم الشيخ الشهيد عمر المختار، وفي مصر حارب المسلمون موجات الصليبية الجديدة التي تمثلت في الحملة الفرنسية، والحملة الإنجليزية الأولى على رشيد عام ١٨٠٧م، ثم الحملة الإنجليزية الكبرى عام ١٨٨٢م، والتي أذلت شعب مصر ونهبت مقدراته على مدار ثلاثة أرباع القرن، وما زالت الهجمة الصهيونية الصليبية التي اشتركت فيها إنجلترا وفرنسا وإسرائيل، عام ١٩٥٦م، ما زالت ماثلة في الأذهان.

وفي كثير من بلاد أفريقيا وآسيا دفع المسلمون. . وما زالوا يدفعون الكثير من دمائهم وأرواحهم ومقدرات أوطانهم. . فقط. . لأنهم مسلمون، وفقط. . لأن أعداءهم الصليبيين الجدد لا يريدون أن ينسوا أنهم هزموا ذات يوم على أيدي

---

(١) حسان محمد حسان: وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ.

المسلمين، كما أنهم يخشون أن تقوم للإسلام قائمة من جديد، وقد تعلموا من درس التاريخ أن المسلمين حين يتحدون، وحين يعودون إلى دينهم القويم يكون لهم شأن آخر.

وإذا كان بعضنا يتصور أن هذا الذي نقول هو مجرد تاريخ مضى وانقضى فإننا نحيلهم إلى ما يجري على أرض فلسطين اليوم، وما كان يجري على أرض أفغانستان فقط منذ بضع سنوات (*)، ولا زلنا نعيش ونرى، ومعنا العالم أجمع، مأساة المسلمين في «البوسنة والهرسك»، أو في يوغوسلافيا السابقة، ولا يتصورن أحد للحظة واحدة أن «الصرب والكروات» كانوا يستطيعون أن يصمدوا في هجومهم الإجرامي الصليبي على المسلمين في البوسنة والهرسك لولا أن أوروبا كلها والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة يقفون خلفهم يؤيدونهم في الأمم المتحدة ويناصرون قضيتهم، في الوقت الذي يمنعون فيه السلاح عن المسلمين، بينما يغدقون كل ذلك السلاح على الصرب والكروات ويمدونهم بالتدريب والتمويل. وما كل ذلك إلا ليمنعوا قيام دولة للإسلام في قلب أوروبا قد يغري وجودها ـ في المستقبل ـ أعدادا من الأوروبيين بالدخول في الإسلام. ومأساة شعب الشيشان نعيشها الآن والكل يرى ويسمع ما يجري لشعبها المسلم على أيدي الروس الكفار.

وإذا كان المصريون قد استطاعوا بعد كفاح طويل أن يكسروا شوكة الإنجليز ويخرجوهم من مصر، وإذا كان الجزائريون قد استطاعوا بتضحيات رهيبة أن يرغموا الفرنسيين على ترك الجزائر، وكذلك فعل الليبيون مع الإيطاليين المستعمرين، وإذا كان المجاهدون الأفغان قد مرغوا سمعة الاتحاد السوفييتي العسكرية في الوحل، وأذلوا جنرالاته وجعلوهم يغادرون التراب الإسلامي في

(*) يمكن مراجعة كتاب «أفغانستان المجاهدة أمانة في أعناق المسلمين»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٠هـ، للمؤلف.

أفغانستان مهزومين مدحورين، وإذا كـان شباب الانتفاضة الفلسطينية ما زالوا شوكة مؤلمة في جسد الكيان الإسرائيلي، أقول إذا كان ذلك هو الذي حدث، ولا يزال يحدث في بلاد المسلمين إلا أن قضية «البـوسنة والهرسك» لها وضع خاص؛ لأن رعب الصليبيين موجـه لموطئ أقدامهم، فرغم محاولاتهم حصـار الإسلام في بـلاده، ورغم جهـودهم التي لا تتـوقف في عمليـات التنصير إلا أنهم فـوجئـوا بظهور المسلمين كدولة في قلب أوروبا، بل وصمـودهم واستشهادهم دفاعًا عن دينهم، ومن هنـا فإن شعـوبهم لـم تثـر ضـد عجـز حكومـاتهم الظـاهـري، وتخطيطهم المفهوم، بل وكذلك مـؤسساتهم وبخاصة الفـاتيكان. . إنهم جميعًا ضـد الإسلام والمسلمين دون مـداراة أو حتى محاولة إخفـاء، ولن يستريحوا حتى يقضـوا على مشروع الدولـة الإسلاميـة في أوروبا، والله من ورائهم محيط وهـو - سبحانه وتعالى - غالـب على أمره.

الدرس الذي تعلمه الصليبيون:

وإذا كان هؤلاء الصليبيون الجدد قد خرجوا بدرس واضح تعلموه من حروبهم المتتـالية مع المسلمين فهـو أنه من الصعب، بل ربما من المستحيل، أن يخرجـوا المسلمين عن دينهم الحنيف، خصـوصـا في المنطقـة العربيـة التي كـانت مهـد الـرسـالة، ومبعث النبـي الأمين محمد بن عبـد الله ﷺ، ومن هنـا فلقـد تفتق فكرهم الشيطاني عن بديل خطير للحرب المباشرة. . وكذا للتنصير الواضح أمام الناس.

ولقد تمثل هذا البديل في محاولات «التغريب» و«الغزو الفكري والثقافي» عامة لبلاد المسلمين. وإذا كانت الحروب العادية قد استخـدمت فيها الدبابة والمدفع والطـائرة والبندقيـة، فإن السـلاح الجديـد تمثل في استخـدام المدرسة والكتـاب المدرسي والمنهج المنحـرف، والصحيفـة والمجلـة، والسينما وشرائط الفيـديـو والكاسيت والبث المباشر. . وغيرهـا.

وإذا كانت الصليبية - في صورتها القديمة - قد احتاجت ذات يوم إلى تجنيد الضباط والجنود من أبناء أوروبا ترسلهم إلى بلاد الشرق المسلم، **فيقتلون ويؤسرون حتى قوادهم وملوكهم، فإن الصليبية في صورتها الجديدة أخذت تدرب قساوستها ومعلميها وفتياتها على التعامل الهين اللين والخادع مع شباب المسلمين في بلادنا، وقد أرسلت كل أولئك ليحتموا خلف أسوار سفاراتهم ومدارسهم الخاصة في بلادنا، تلك التي أنشأوها تحت دعاوى التعليم والتثقيف «والتبادل الثقافي»، وهو صورة واضحة للامتيازات الأجنبية السابقة.**

ولنقرأ لواحد من كتابنا الواعين عن «تعدد أشكال الهجوم» على بلاد المسلمين، يقول حسان «إذا كان الهجوم لم يقتصر على جانب واحد، فإنه أيضا لم ينحصر في شكل واحد؛ فتارة يأتي من الخارج، وتارة من الداخل، تارة يهجم بأساليب مباشرة، وتارة يتسلل بأساليب خفية، تارة يتحلق علينا من علٍ، وتارة يتسرب إلينا من أسفل، تارة يتصدره رجال دين، وتارة يقوده سياسيون وعلماء، تارة يرتدي رداء الكهنوت، وتارة مسوح الأطباء، تارة بالهجوم على ديننا، وتارة باصطناع مذاهب ونسبتها إلى الإسلام لتدميره من الداخل. تارة بتصيفة قيادات، وتارة بتصعيد أخرى، تارة بشراء الذمم، وتارة بتوزيع القمح واللبن، تارة بالتهديد، وتارة بالتهويد، تارة بالتمييع، وتارة بالتجويع، تارة بالفكر المضلل، **وتارة بالمدفع المهدد. تارة بالمساعدات، وتارة بقطع العلاقات**، تارة بالتحالف مع المسلمين، وتارة باحتلال المسلمين، تارة بزرع الفتن، وتارة بالتدخل لقمع الفتن، تارة بالتنكيل، وتارة بالتضليل. تارة بالاتفاق مع أقليات، وتارة بتصدير أقليات، تارة بالتسرب إلى منظمات، وتارة بصناعة أخرى، تارة بإعداد انقلابات، وتارة بالانقلاب على ثورات. تارة

بإنشاء كيانات، وتارة بتصفية أخرى. تارة باحتلال القدس، وتارة بادعاء العمل على تحرير القدس، تارة باحتلال أفغانستان، وتارة بالمطالبة بالتحالف لتحرير أفغانستان. تارة بالمهادنة، وتارة بالمقاطعة، تارة بتسريب السلاح، وتارة بمنع السلاح، تارة بإنشاء إسرائيل، وتارة بالدعوة للاعتراف بإسرائيل. تارة بالفرنسة وتارة بأنجلترة. تارة بالأمركة، وتارة بالمركسة»[1].

وإذا كانت الصليبية في صورتها قد فشلت في مواجهة أبطال المسلمين في ساحات الوغى ومعارك الجهاد فإن الغربيين فتحوا أبواب دولهم على مصاريعها يدعون إليها الشباب من جامعاتنا كي يتعلموا هناك، فيذهبون ليضيع منهم جزء في مجتمعاتهم الفاسدة وليعود إلى قومه مسخًا نسي دينه.. وربه.. وقومه، وجاءهم بأخطر مما يجيء به الصليبي الواضح، حيث يطالب بالانفتاح على الغرب بكل ما فيه من حرية وإباحية وانحراف.

إن الصليبية الجديدة.. أو الغزو الفكري والثقافي ـ أو التغريب ـ أيًّا كان المسمى – كانت أذكى بكثير وأفعل من تلك القديمة، حيث أن الأخيرة قد استثارت المسلمين ودعتهم إلى التوحد والمقاومة، وإلى الوقوف خلف قيادات إسلامية مؤمنة داعية. أما الصليبية الجديدة فقد التبست على الكثيرين بسبب أساليبها الجديدة، وبسبب وسائلها المتعددة وبريقها وخداعها وتنوع ميادينها... كل هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن المشكلة الكبرى هي أن الذين حملوا تلك الصليبية ونادوا بها كانوا – في معظم الأحيان – من أبناء الأمة الإسلامية الذين خُدعوا،

---

(١) حسان محمد حسان، مرجع سابق ص ١٢.

إذا أحسنًا بهم، أو من الذين جعلوا من أنفسهم طابورًا خامسًا لأوروبا المسيحية عن سوء قصد وفساد تدبير

إن خطورة الغزو الجديد أنه لا يركز على احتلال مساحات من الأرض يندفع أهلها فورا للدفاع عنها محاولين جهدهم إخراج الدخلاء المهاجمين، وتطهيرها من رجسهم، إنما الغزو الجديد ميدان مبتكر من ميادين الاستعمار المتلونة بألف لون ولون، فمن خلاله تحتل مساحات في العقول والأرواح، وهذه - لعمري - أخطر آلاف المرات من احتلال مساحات الأرض. إن احتلال مساحات من الأرض يجعل الناس متحمسين للدفاع عنها، أما إذا احتلت العقول، وبلبلت الأفكار والمفاهيم فمن سيدافع عن أصحابها ؟؟!! (١).

إن الإنسان إذا انهزم داخليًّا فإنه يصبح مسلوب الإرادة، عديم الفائدة، إنهم يحاولون محو الشخصية العربية والإسلامية، بحيث يصبح الإنسان المسلم تابعًا لا كيان له، سواء في ذلك الكيان الوطني أو القومي أو الديني، ولا يهم أن يظل اسمه محمدًا، وجنسيته من أي بلد إسلامي، إنما الذي يهم هو أن يكون محمد هذا مستلب الفكر عديم الشخصية (٢).

ويذهب كاتب آخر إلى أن الغزو الفكري هو أن تتخذ أمة من الأمم مناهج التربية والتعليم لدولة بين الدول الكبيرة، فتطبقها على أبنائها وأجيالها، فتشوه

---

(١) محمد عبد العليم مرسي : التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، ص ١٨.

(٢) عبد الكريم غلاب : التعريب ودوره في حركات التحرر في المغرب، المستقبل العربي، العدد ٣٦، فبراير ١٩٨٢م، ص ٨٩.

بذلك فكرهم، وتمسخ عقولهم، وتخرج بهم إلى الحياة، وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم شيئًا واحدًا . . هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية .

كذلك فإن الغزو الفكري هو أن يحول العدو بين أمة من الأمم ـ وخصوصًا الأمة الإسلامية ـ وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدولة الكبيرة الغازية وسير أعلامها وقادتها، فيشب المثقف من أبناء تلك الأمة المقهورة، وليس في نفسه مثل إلا ما يقرأ عنه في تاريخ الدولة الغازية، فيذهل عن تاريخه، وعن سير الصالحين من أسلافه، يذهل عن حاضره ومستقبله، ويضل عن معالم طريقه[١].

أما الدجاني فيعتبر أن «الانغماس في تيار القبول المطلق للحضارة الغربية، في مجتمعنا العربي على مدى القرنين الماضيين قد استقطب قلة (مؤمنة) متعصبة قابلة، عبرت عن نفسها جيلا بعد جيل في محاولات تحويل مجتمعها إلى مجتمع غربي . . مبنى ومعنى، شكلا ومضمونًا، ولم تفتر في دعوتها إلى التغريب . ونلاحظ حرص دعاتها على استخدام مصطلحات الغرب ولغاته، وكذا الاستشهاد بتاريخه، كما نلاحظ انبهار أصحاب هذا التيار بكل ما هو غربي، مستشعرين عجزهم عن التعبير بلغتهم، وملصقين هذا العجز بها، كما يلفت النظر أن (التخريب الحضاري) كان كبيرًا حين تولى السلطة مستغربون أرادوا فرض أفكارهم بالقوة، ونكتفي بالإشارة إلى تجربتي أتاتورك وبهلوي المجاورتين للوطن العربي»[٢].

---

(١) علي عبد الحليم محمود : الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، دار البحوث العلمية، الكويت، (بدون تاريخ)، ص ١١ .

(٢) أحمد صدقي الدجاني : الفكر الغربي والتغيير في المجتمع العربي، المستقبل العربي، العدد ٦٩، نوفمبر ١٩٨٤م، ص ٩٤ – ٩٥ .

والجديد هنا في هذا الرأي هو محاولات فرض التغريب على بعض أوطان العالم الإسلامي من خلال أفراد في السلطة. وبطبيعة الحال فإن استخدام صلاحيات المناصب الكبرى، مثل تلك التي أشار إليها الكاتب تكون ذات أبعاد أوسع في حياة مجتمعاتهم، حتى وإن قاومت تلك المجتمعات، وحاولت دفع تلك الأغلال.

ومن ناحية أخرى ينبغي أن نتوقف عند هذا المعنى، فأصحاب السلطان الذين يميلون بدفة قوارب مجتمعاتهم ناحية التغريب لا شك أنهم لم يتربوا التربية الإسلامية الصحيحة، وإنما ربما يكون العكس هو الصحيح، بل إن بعضهم ربما يكون من خريجي بعض المدارس الأجنبية(١).

بعض تعريفات ومعاني الغزو الثقافي :

١ - يقول أبو زيد إن «الثقافة الأجنبية الغازية تمثل تحديًا للثقافة القومية؛ لأنها تعبر عن تيارات واتجاهات ومذاهب ثقافية وفكرية تنتمي في الأصل إلى مجتمعات أكثر تقدّمًا وتطورًا من المجتمعات العربية، وأنها تحمل بين ثناياها بذور السيطرة الثقافية الأجنبية على الثقافة العربية. ويبدو أن ثمة استعدادًا لدى بعض قطاعات المجتمع العربي لتقبل كل ما يقدمه الغرب، خصوصا من آراء وأفكار وقيم وأنماط للسلوك، واعتناق هذه الآراء والأفكار والدفاع عنها بغير دراسة أو تمحيص.

وقد يكون السبب في ذلك هو الشعور الكامن بالتخلف العام أمام الغرب في مجالات العلم والتكنولوجيا، وكذلك في الجوانب السياسية والاقتصادية والعسكرية، والاعتماد بأن هذا التفوق يستتبع بالضرورة التفوق أو التقدم والرقي

---

(١) محمد عبد العليم مرسي، التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ص ٢٣ - ٢٤.

الثقافي، وأن ذلك يحتم من ثم تقبل حصاد الفكر الغربي وثقافته، مثلما نتقبل نتائج البحث العلمي والتقدم التكنولوجي (١).

٢ - أما كشك فيقول إن «التغريب» الذي هو ناتج من نواتج الغزو الثقافي والفكري «فيبدأ من إقناع الأمة الشرقية بأنها متخلفة في جوهرها، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها، ومن ثم فلا بد من انسلاخها تماما عن كل ما يربطها بماضيها، وعن كل ما يميز ذاتها، وإعادة تشكيل المجتمع على الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر السلوكية، مع إبقائه متخلفًا عاجزًا عن إنتاج سلع الغرب . . عاجزًا عن اكتساب بعض أفراده هذه المعرفة، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم، فيضطرون إلى النزوح إلى عالم المتفوقين» (٢).

ثم يحدثنا الكاتب عن المجتمع المغرّب، أي الذي تم غزوه ثقافيًا وفكريًا بأنه «هو ذاك المجتمع الذي تزدحم طرقاته بأفخر وأحدث السيارات المستوردة، وتضم مدنه أفخم دور عرض الأفلام المستوردة، ويرتدي أهله أحدث المنسوجات المستوردة، وعلى أحدث الموضات الغربية، ويثرثر مثقفوه في قاعات مكيفة بأجهزة أمريكية أو روسية في مشاكل المجتمع الغربي وآلامه، ويملأون صفحات من ورق مستورد، تطبع بحبر مستورد، وبآلات مستوردة، حول قضايا الوجودية ومسرح اللامعقول، والجنس الجماعي، وتطور حركة الهيبيز، على

---

(١) أحمد مصطفى أبو زيد : التحدي الثقافي، بحث شارك به الكاتب في الندوة الفكرية الرابعة لرؤساء ومديري الجامعات الخليجية (الدوحة - قطر) ربيع الأول ١٤١٠هـ - أكتوبر ١٩٨٩م، ص ١٨ .

(٢) محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر، الدار العلمية، بيروت، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م، ص ١٤ .

بعد خطوات من كهوف مواطنيهم حيث البلهارسيا والتراخوما . . وكل تراكمات التخلف، منذ القرن السابع عشر (١) .

٣ - وعند أنور الجندي في (شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي) نجد أن مفهوم التغريب يعني «خلق عقلية جديدة تعتمد على تصورات الفكر الغربي ومقاييسه، ثم تحاكم الفكر الإسلامي والمجتمع الإسلامي من خلالها، بهدف سيادة الحضارة الغربية، بل وتسييدها على حضارات الأمم الأخرى، ولا سيما الحضارة الإسلامية (٢). وإذا كان المستشرقون والمبشرون (المخربون) قد ذكروا أهدافًا لهم في خلق أجيال جديدة من العرب والمسلمين «تحقر كل مقومات الحياة الإسلامية، بل الشرقية، وإبعاد العناصر التي تمثل الثقافة الإسلامية عن مراكز التوجيه، فقد عملت حركة التغريب في موالاة عجيبة ودأب بالغ على تدمير الشخصيات العربية الإسلامية الباهرة، والتشكيك في عظمتها» (٣).

٤ - أما جدعان فهو يبين لنا الخطوات أو الأسس التي اعتمد عليها هؤلاء الغزاة بمنتهى الوضوح، فهي تعتمد على :

أ - نبذ الشرق والعرب والإسلام، ومحاولة اللحاق بالغرب والمدنية الغربية، بل والفكرة الغربية، بكل حسناتها وسيئاتها .

ب - تحرير العقول (؟؟) من كل سلطة عقلية سابقة، والنظر إلى موضوعات المعرفة والمجتمع الإنساني نظرة غربية، على أساس النظرة العقلية المتفردة، المدعومة بالفكر الوضعي الخالص.

---

(١) المرجع السابق .

(٢) في : علي خليل أبو العينين : أصول الفكر التربوي الحديث بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه التغريبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ص ٢١٠ - ٢١١ .

(٣) المرجع السابق .

جـ - تأسيس الدولة، وكافة تنظيمات المجتمع، على أساس علماني، أي على قواعد وأسس غربية. . لا دينية، ليس للإسلام فيها أي توجيه أو دور، وبمعنى آخر فصل الدين عن الدولة والسياسة والمجتمع، وحصره في دائرة شخصية جدًّا(١).

٥ - أما علي عبد الحليم محمود فيرى أن الغزو الفكري «هو أن تزاحم لغة الغالب لغة المغلوب، فضلا عن أن تحل محلها، أو تحاربها بإحياء اللهجات العامية والإقليمية، وما دام الإنسان لا يفكر إلا باللغة - كما يجمع على ذلك العلماء - فإن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها، وإحلال لغة أمة محل لغة أمة أخرى هو إجبار للأمة المغلوبة على أن تفكر كما تفكر الأمة الغالبة، وأن ترى من العادات والتقاليد مثل ما ترى الأمة صاحبة اللغة الغازية، وما سكتت أمة غازية في تاريخنا المعاصر عن لغة أمة مغزوة (*)، وإنما تخطط لحربها بالضراوة نفسها التي تخطط بها للاستيلاء على مقدراتها الاقتصادية (٢).

ويوسع الكاتب السابق مفهومه للغزو الفكري فيقول إن القضية أوسع من اللغة ومن الفكر ومن الثقافة، ومن كل هذه الأشكال. «إن الغزو الفكري

---

(١) فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩م، ص ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

(*) لعل القارئ الكريم يتذكر أن فرنسا حينما احتلت الجزائر فرضت لغتها على الجزائريين المسلمين، وحاربت لغة القرآن الكريم على مدار ١٣٢ سنة هي فترة احتلالها لها، ولا زالت قضية التعريب تحتل جزءًا كبيرًا من جهود الإخوة الجزائريين، كذلك فإن انجلترا حاولت أن تفرض التعليم باللغة الإنجليزية ولو في بعض المقررات في مصر، ويذكر أن كلية الطب التي أنشئت في مصر في عهد محمد علي كان التدريس فيها باللغة العربية، وكلنا نعلم الآن أن تدريس الطب في الجامعات العربية يتم باللغة الإنجليزية. . !! اللهم إلا في القطر السوري الشقيق.

(٢) علي عبد الحليم محمود: الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ١٣٩٦هـ، (القسم الأول)، نشرته عام ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ١٠٠٩.

لـلإسلام والمسلمين - في حقيقـة الأمـر - يستهدف الجذور لا القشـور، ويحاول القضاء على الجوهـر لا العرض، ويركـز على تشويه الأصـول لا الفروع. . ومن هنا تركز الغزو الفكري ضد الإسـلام في حرب ضارية ضد أمرين خطيرين هما : **القرآن الكريم** أصل الشريعـة، وما شرحـه وفصّلـه من سنة رسـول الله ﷺ، في الـعالم الإسـلامي كله. **واللغة العربية**، لـغـة الـقرآن والإسـلام، وذلك في العالم العـربي بالـدرجـة الأولى، وفي كل مكـان يمكن أن يعنى باللغة العـربية بعد ذلك.

وكل عمل وكل خطة يقوم بها أعداء الإسلام والمسلمين في الفكر أو الثقافة أو المبدأ أو المذهب أو العـادات والتقاليـد، أو الأدب والفن، أو الزي أو الشكل، إنما يعد معركـة جانبية فرعيـة تخدم المعركة الكبرى، معركـة حرب أصل الإسلام وجذوره، وهو القـرآن الكريم، وحرب لغـة القرآن. . اللغة العربيـة، وما أكثر المعارك الجانبيـة، وما أخبث خططها، إذ تتنـاول مظاهر حيـاة المسلمين كلها، ابتـداءً من تغيير الـزي، وتغيير العـادات، إلى تغيير الخلق والسلـوك، وانتهـاء بتغيير المنهج والشريعة، ومرورًا بإفساد اللغة و إقصائها عن ألسنة المسلمين، أي إقصاء القرآن الكريم عن ألسنتهم وقلوبهم وحياتهم[1].

ويحدد الكاتب مظـاهر الغزو الفكري وتيـاراته في حملات التشويه لـلإسلام، كتابـه وسنة رسوله ﷺ وشخصـه الكريم المعصوم، وحملات التشويـه للتاريخ الإسلامي، ونظام الحياة الإسلامي، وللتراث الإسلامي كلـه.

كما نستطيع أن نـدرك مظـاهـر هــذا الغـزو في حملات التغـريب للحضـارة الإسلاميـة، وللمسلمين أنفسهم، كتغريب التعليم والثقـافة والنظم الاجتماعية

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١٠ - ١١.

والسياسية والاقتصادية، وتغريب الأخلاق والآداب، ثم تكون قمة التغريب بتغريب اللسان، لقطعه عن لغة القرآن الكريم، اللغة العربية الفصحى.

ولقد قامت على نشر هذا الغزو الفكري وترويجه مؤسسات عديدة، ومراكز خطيرة، منها الصهيونية والتبشير والاستعمار والمبادئ والنظريات المعادية للإسلام، مثل الديمقراطية والشيوعية والاشتراكية والقومية، ومنها الفلسفات الهدامة كالوجودية والفوضوية، واتخاذ العري مذهبا، واتخاذ التخنث للرجال، والترجل للنساء أسلوبًا في الحياة.

ومنها وسائل التخريب التي توجهها الصهيونية في الغالب لهدم القيم الخلقية، كالسينما والمسرح والملاهي والنوادي والجمعيات الهدامة كالماسونية و«أندية الروتاري»، وغيرها. وهذه كلها ركائز للغزو الفكري، ونقط انطلاق تتحرك منها الحملات، وتنطلق لتغزو، ثم تعود بكل خبيث هدام من وسائل حرب الإسلام والمسلمين (١).

٦ – ويحدثنا «سعيد» كيف أن «الغزو الفكري» تعبير دقيق بارع، يصور خطورة الآثار الفكرية التي قد يستهين بها كثير من الناس؛ لأنها تمضي بينهم في صمت ونعومة، مع أنها حرب ضروس لا تضع أوزارها حتى تترك ضحايا بين أسير وقتيل، أو مسيخ، كحرب السلاح، أو هي أشد فتكًا.

وهذا التعبير على حداثة مبناه إلا أنه قديم المدلول والمعنى، وتتفاوت الأمم والجماعات فيه، من حيث الدرجة لا النوع، ذلك أن الجماعات البشرية تعيش أبدًا متنافسة في سبيل هدف ما، كالاعتقاد حقًّا أو باطلاً، وكالتفوق المادي أو الأدبي وحب السيادة، والاستئثار بالمنافع، ونحو ذلك مما عبر عنه القرآن الكريم في إيجاز وإعجاز ﴿ **أن تكون أمة هي أربى من أمة** ﴾ [النحل : ٩٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٣ – ٢٤.

ومن ثم تبذل كل أمة غاية جهدها لكسب هذا الصراع باليد والسلاح، أو بالفكر واللسان، أو بأي من أنواع المؤثرات الأخرى التي زينت للناس، كالمال هدية أو رشوة . . . إلخ . «فالغزو الفكري» واحد من شُعَب الجهد البشري المبذول ضد عدو ما، لكسب معارك الحياة منه، ولتذليل قياده، وتحويل مساره، وضمان استمرار هذا التحول حتى يصبح ذاتيًّا إذا أمكن، وهذا هو أقسى مراحل الغزو الفكري بالنسبة للمغلوب، وإن كان في الوقت نفسه، هو أقصى درجات نجاح الغزاة .

وسلاح هذا الغزو : الفكرة، والكلمة، والرأي، والحيلة، والنظريات والشبهات، وخلابة المنطق، وبراعة العرض، وشدة الجدل، ولدادة الخصومة، وتحريف الكلم عن مواضعه، وغير ذلك مما يقوم مقام السيف والصاروخ في أيدي الجنود، والفارق بينهما هو الفارق نفسه بين وسائل وأساليب الغزو الفكري قديمًا، وحديثًا .

ويتميز الغزو الفكري بالشمول والامتداد، فهو حرب دائمة دائبة، لا يحصرها ميدان، بل تمتد إلى شعب الحياة الإنسانية جميعًا، وتسبق حروب السلاح، وتواكبها، ثم تستمر بعدها لكسب ما عجز السلاح عن تحقيقه، فتشل إرادة المهزوم وعزيمته حتى يلين ويستكين، وتنقض تماسكه النفسي حتى يندب كيانه، فيقبل التلاشي والفناء في بوتقة أعدائه أو يصبح امتدادًا ذليلاً لهم، بل ربما تبلغ حدًّا من الإتقان يصل إلى أغوار النفس، فتقلب معاييرها ومفاهيمها، وتشكل لها أنماطًا جديدة في السلوك، والأخلاق، والأذواق إلى الدرجة التي تجعل المهزوم يفخر فيها، ويراها شرفًا خليقًا بالرضا والشكران[1].

---

(١) عبد الستار فتح الله سعيد : الغزو الثقافي والتيارات المعادية للإسلام، (القسم الثاني) ضمن بحوث المؤتمر السابق، ص ص ١٧٩ - ١٨٠ .

٧ – أما الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني فيحدثنا عن خطط «الغزاة» التفصيلية في أعمال الغزو الفكري، فيقول إنهم اتخذوا عددًا وافرًا وفعالا من الخطط، منها :

أ – إثارة الشبهات حول القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأحكام الإسلام وتشريعاته.

ب – دس الأفكار الفاسدة، وإغراء بعض ضعاف النفوس، أو ضعاف العقول من المسلمين باعتناقها على أنها من تعاليم الإسلام ومفاهيمه، ثم محاربة الإسلام بها.

جـ – اختلاق الأكاذيب والافتراءات على الإسلام وتاريخ المسلمين، وتشويه غايات الفتح الإسلامي.

د – مقابلة بعض أحكام الإسلام وأركان تشريعاته بالاستهزاء والسخرية والازدراء، ووصف المستمسكين بها بالرجعية والتآمر والتعصب والجمود، ونحو ذلك من العبارات التي تضعف حماس المتدينين للتمسك بدينهم، وتفت في أعضادهم، وتسوقهم في ركب المتحللين من الدين.

هـ – احتقار علماء الدين الإسلامي وازدراؤهم، وإلجاؤهم إلى أضيق مسالك اكتساب الرزق لتنفير المسلمين منهم ومن طريقتهم، ثم تقديم جهلة منحرفين إلى مراكز الصدارة ليعطوا صورة مشوهة سيئة عن التطبيق الإسلامي، توصلا إلى تشويه الإسلام نفسه عن طريقهم.

و – متابعة تركيز الهجوم ضد الإسلام، وتكراره بإلحاح، أملا في حدوث الغفلة من الدعاة المسلمين الذين ينشرون المفاهيم الإسلامية، ويحذرون من دسائس الغزاة. ونحن نعلم ما للتكرار من تأثير في نفوس الناس، ولو كان مضمونه كذبًا وباطلاً، وهذا هو ما تلجأ إليه وسائل الإعلام الحديثة المضللة للجماهير.

ز – بث النظريات والأفكار والمبادئ الإلحادية، والنظريات والأفكار والمبادئ المناقضة والمخالفة لأسس الإسلام، وتعاليمه، وشرائعه، وأحكامه في مختلف المجالات الاعتقادية والأخلاقية، والعلمية، مما يتعلق بأحكام العبادات المحضة، أو أحكام المعاملات.

وتبرز هذه النظريات في الفلسفة، وفي العلوم الإنسانية، كعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وفي علم التاريخ وتفسير ظواهره، وفي علوم القوانين الوضعية وتعليل نظرياتها، إلى غير ذلك.

ح – استدراج فريق من أبناء المسلمين لجامعاتهم، لمنحهم الشهادات العليا في علوم الشريعة الإسلامية، وعلوم اللغة العربية، والعلوم الإنسانية، ومحاولة التأثير فيهم، وتشويه صورة الإسلام والتاريخ الإسلامي والعلوم الإسلامية في أفكارهم وفي نفوسهم، ليكونوا جنودًا مقنّعين لهم، يحققون أغراضهم داخل شعوبهم المسلمة.

ط – تفريغ أفكار الأجيال الناشئة وقلوبهم ونفوسهم من محتوياتها ذات الجذور العقلية والعاطفية والوجدانية والأخلاقية، وانتزاع كل آثار لها، وهو ما يسمى بعملية «غسيل الدماغ». ثم ملء فراغ هذه العقول والقلوب والنفوس بمخترعات فكرية وعاطفية مزورة، تخدم غايات العدو الطامع الغازي، وتهدم كيان الأمة الموضوعة هدفًا للغزو، ثم من بعد ذلك تسخير طوابير الجيش الجديد الذي تصطنعه أيدي العدو في هدم كل مقوم من مقومات أمته، ومحاربة كل ما يتبقى لها من فكر وعقيدة، أو خلق وسلوك، أو تاريخ ومجد.

٨ – ويحدد التركي مفهوم «الغزو الثقافي» بأنه «كل فكرة، أو معلومة، أو برنامج، أو منهج، يستهدف ــ صراحة أو ضمنا ــ تحطيم مقومات الأمة الإسلامية: العقدية، والفكرية، والثقافية، والحضارية، أو يتحرى التشكيك

فيها، والحط من قيمتها، وتفضيل غيرها عليها، وإحلال سواها محلها، في الدستور، أو مناهج التعليم، أو برامج الإعلام والتثقيف، أو الأدب والفن، أو النظرة الكلية للدين والإنسان والحياة» (١).

وكما نلاحظ فإن الكاتب هنا أورد نظرة شمولية متكاملة لكل ما يتعرض لمقومات الأمة ومؤسساتها، في العقيدة.. أهم ما تحرص عليه الأمة وتتمسك به، بل وتعض عليه بالنواجذ، إلى مقومات الأمة الفكرية والثقافية والحضارية، وهي التي تبين هوية الأمة وما يميزها من غيرها من الأمم، وليس فقط من يتعرض لها، ولكن حتى كل من يحاول التشكيك في تلك المقومات، أو الحط من قيمتها وقدرها، ومعنى تفضيل غيرها عليها وإحلال سواها محلها أن أولئك الذين يعيشون بيننا يستوردون دساتير من الخارج نحكم بمقتضاها، أو مناهج تعليمية نعلم أبناءنا على أساسها، أو يستوردون برامج تليفزيونية وإذاعية ينشرونها بين مجتمعاتنا وهي لا تناسب قيمنا وعقيدتنا وتقاليدنا، كل هؤلاء - على وجه اليقين - من دعاة الغزو الثقافي، بل إن الذين يعيشون بيننا منهم أخطر علينا من الأعداء الواضحين الصريحين؛ لأنهم يلتبسون على كثيرين منا، وفي بعض الأحيان يصعب إقناع الناس بالحكم عليهم؛ لأنهم شديدو التلون والتخفي.

٩ - أما حنفي بن عيسى، وهو أحد المفكرين الجزائريين فيربط بين الغزو العسكري، والغزو الثقافي مبيناً أن الأمة العربية والإسلامية تعرضتا على مدار تاريخهما الطويل لمعارك طاحنة.. معارك عسكرية، وأنهما ما زالتا تتعرضان

---

(١) عبد الله بن عبد المحسن التركي: تحديد مفهوم الغزو الثقافي، ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر، بجاية - الجزائر، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٣.

لمعارك الغـزو الثقافي، فهو إذن قد وضع معـركة الغزو الثقـافي على نفس مستوى معركة الغزو العسكري المسلح، وهذا هو الفهم الصحيح للأمور.

وفي هـذه المعـركـة، معـركـة المصير، نجـد الشعب العـربي، من المحيط إلى الخليج، صامدًا كـالطود الشامخ، واقفًا بالمرصاد أمـام كل المناورات؛ لأن الأمة العربية، منذ أن برزت للوجود وهي على مـوعد مع التاريخ في صناعة الأحداث الكبرى التي قدمت تغييرات نوعية في الحضارة الإنسانية. ولكن رغم أن الأقطار العـربيـة تحررت من ربقـة الاستعمار، فـلا يجوز مع ذلك أن نكـون غـافلين عما يهددنـا مـن غـزو ثقـافي، بكل مـا يحملـه من دسٍّ في التراث، وتشكيك في العقائد، وزعزعـة للنفوس، وسلب لمقومـات الشخصية، كما لا يجوز أن نكون غافلين عن خطـر الغزو العسكري الذي لا يزال يهددنـا في كل حين من طرف الصهيونية والإمبريالية : فالأسـاطيل الأجنبية ترابط غير بعيد من شواطئ البحر المتوسط، تحصى علينا حركاتنا وسكناتنا، والأقمار الصناعية تجوب الفضاء فوق أراضينـا، وتترصد بنـا الدوائر، وتستكشف وتستجمع المعلـومات عما تـزخر بـه أراضينا من موارد وثروات، تمهيدًا لوضع الخطط العدوانية، ويكفي أن أستشهد في هذا المقـام بما صرح به القـائد العسكري الصهيـوني «أرييل شـارون» في شهر ديسمبر ١٩٨١م، من أن «منطقـة النفوذ العسكـري لإسرائيل سوف تتـوسع في الثمانينيات إلى مـا وراء العالم العربي، وسوف تشمل بلـدانًا أخرى، مثل تـركيا، وإيران، وباكستان، بل حتى شمال إفريقيا، وإفريقيا الوسطى» (١).

---

(١) حنفي بن عيسى : الثقـافة العـربيـة في معركـة المصير - خطر الغـزو الثقـافي، ضمن بحوث الخطـة الشاملة للثقافة العربية، مرجع سابق، المجلد الثالث، ص ص ٦٧٧ - ٦٧٨.

١٠ - ويفصل «العالم» أشكالاً متنوعة للغزو الثقافي «تتم بشكل غير مباشر، عبر وسائل الإعـلام والثقافـة، وتتمثل في برامج الإذاعة والتليفـزيون السيـاسية والاجتماعيـة والترفيهيـة والتثقيفيـة، فضلاً عن الأفـلام السينمائيـة والمسرحيـات والكتب، بل مظاهر الحياة الاستهلاكية البذخية.

إن الـدول الرأسماليـة الكبرى هي التي تسيطـر أسـاسًـا على وسائل الإعـلام والاتصال الفكري والعملي، بما يتيح لهذه القوى الـرأسمالية السيطرة على ثروات وطاقات الشعـوب، وبخاصة شعوب البلدان النـامية (اسمًا. . !!) والمتخلفة، فضلا عن المسيطـرة على عقولهم ومشاعـرهم، وأذواقهم وقيمهم، سيطرة تشيع روح التسطح واللاعقـلانية واللامبالاة واليأس والاستهـلاك البذخي والاغتراب والتفسخ»[1].

وحتى نتأكـد من المقـولـة السـابقة، أي سيطـرة الـدول الكبرى على وسـائل الإعـلام نقـرأ : «إن الولايـات المتحـدة أكثـر الـدول الأجنبية تصـديـرًا للبرامج التليفـزيـونيـة إلى دول الخليج . . . ولعل الغــزو الثقـافي، من خـلال جهـاز التليفزيـون، لا يقتصر على منطقتنا، ففي دراسـة نشرت في السبعينات بيّنت أن برامج التليفزيون الأمـريكي تبيع للعالم الخارجي من ١٠٠ ألف ساعة إلى ٢٠٠ ألف ساعـة سنويا، ثلثهـا تقريبًا إلى أمـريكا اللاتينيـة، والثلث الآخر للشرقين الأقصى والأوسط، والباقي لأوروبا الغربية.

هذا وتعمل شركات الإنتاج التليفزيـوني في أمريكا لبيع برامجها حتى بأقل من أسعار التكلفة إلى الخارج؛ لأنها تكون قد حصلت على أرباحها من البيع الأول

---

(١) محمود أمين العالم : الغزو الثقافي والتخطيط المستقبلي للثقافة العربية، ضمن بحوث الخطة السابقة، ص٢١٧.

في السوق الأمريكيـة، وهذا بحد ذاته يعطل من محاولات الإنتـاج المحلية للدول النامية، ويفقـدها المنافسة، كل ذلك من أجل تسويق نمط الحيـاة الأمريكية. ونجـد أن الـدراسـات تشير إلى أن المثقفين (المتعلمين) في العـالم الثـالث أكثـر استهـلاكًا للبرامج الأمـريكية والغـربيـة على السواء من الفـلاحين وأبناء القـرى عديمي التعليم. وهنا نجـد أن هناك ارتباطًا طرديًـا بين التعليم الغربي والإعلام الغربي، لقد أصبح الاتصال الجماهيري في العـالم يخضع لصناعة ضخمة يمكن أن تسمى الصنـاعة الثقـافية، تملكهـا شركات عبر وطنيـة **Multi-National**، في ثقافة تسيطر عليها التكنولوجيا المتقدمة(١).

وحتى نرى أثر التليفزيون كأحـد أقوى عناصر الغزو الثقافي في الخليج، إن لم يكن أقواها جميعًا، نقرأ ما يقوله أحد المسئولين في الخليج «ويساعد التليفزيون في الخليج - رغم كل المحـاولات التـي تجري لضبط مستخـرجـاتـه (لعلـه يقصـد مخرجـاته) - على إشـاعة الثقـافـة الاستهلاكيـة بطـريق غير مباشر، أو بطـريق مباشر. . . إن الكثير من محطات التليفزيون والإذاعـة في المنطقة تساهـم مساهمة كبيرة في ترسيخ هـذه التبعية، عن طريق عرض الإعـلان التجاري. . . إن آخر الصيحات في عـالم موديـلات الملابس والسيارات والتليفـزيونـات والمسجلات وآلات الفيـديـو والألعـاب الإليكترونيـة تشهـد على ذلك التحـول الـدائم عبر القـارات، ومعـارض الألماس والأزيـاء تـؤكـد أننـا نتجـه إلى الآثـار الجانبيـة للحضارة»(٢).

---

(١) محمد الرميحي : الثقافة في الخليج، مرجع سابق، ص ٥٨.

(٢) المرجع السابق.

أفكار حول الغزو الثقافي

كما سبق القول فإن هذا الغزو الثقافي قد التبس على كثيرين من أبناء الأمة الإسلامية، وأبناء الخليج من بينهم بطبيعة الحال، وهذه هي خطورته، ولعلنا نمس عددًا من النقاط التي توضح قضيته، وتبين مخاطره على الأمة الإسلامية، كما تبين بعض التناقضات التي تصاحبه في مجتمعاتنا.

أولاً :

أصبح من المسلم به الآن أن بلاد المسلمين كلها، تقريبًا، واقعة تحت مطرقة الغزو الثقافي، بصورة أو بأخرى، سواء شعر به المسلمون وتنبهوا له، أو غفلوا عنه ولم يتيقظوا بعد لمخاطره، أو أنهم ربما عرفوا بوجوده بينهم، ولكنهم يخدعون أنفسهم ويتعامون عن نتائجه، أو أنهم - كذلك - يدرون به ولا يعرفون كيف يواجهونه أو يتعاملون معه.

ومن بلد إسلامي لآخر تختلف الصور وتتفاوت، ففي بعضها يتضح هذا الغزو في مظاهر السير وراء الغرب في العادات والتقاليد، وفي الملابس والموضات، وفي بعضها الآخر اقتبست القوانين الوضعية للدستور، وأهمل العمل بدستور الأمة المفترض، الذي هو القرآن الكريم، ودرّست القوانين الوضعية لطلاب كليات الحقوق بكثافة شديدة، وذرا للرماد في العيون، أو خداعا للنفس، وضعت ساعة أو ساعتان في مقررات للشريعة الإسلامية.

وفي البعض الثالث اتضح الغزو وآثاره في مناهج التعليم وخططه، حتى إن اللغة الأجنبية ـ الإنجليزية عادة ـ طغت على مقررات الهوية الإسلامية واللغة العربية، حتى لمدرسي اللغة العربية ولطلاب أقسام الإعلام، ومعروف أن المعلمين والإعلاميين هم الذين يتولون توجيه الأمة صغارها والكبار.

وفي جميع الدول الإسلامية، بلا استثناء، طغت البرامج التلفزيونية المستوردة على البرامج المحلية، بكل ما فيها من قيم غير قيمنا، وعادات غير عاداتنا، وتقاليد غير تقاليدنا، وحتى حينما حاولت بعض بلادنا إنتاج بعض البرامج وجدنا أن ما أنتجوه جاء في معظمه تقليدًا ممسوخًا لما استوردوه، فانصرف الناس عنهم وأصبحوا أسرى لذلك المستورد الخطير.

ثانيًا :

من الأمور العجيبة أن بلاد العالم الإسلامي هي التي تستدعي ذلك الغزو الثقافي إلى أبنائها، فهو ليس مفروضًا عليها بالقوة، كما كان الغزو المسلح قبل ذلك، وإنما هي التي تجلبه إلى ديارها . . . وباختيارها، ويصف التركي هذه الظاهرة بأنها «جد عجيبة وغريبة ومذهلة»، أي ظاهرة «استدعاء الغزو الثقافي»، وبسخرية لاذعة ومعبرة يطلق عليها «دفع الإيجار للغزاة مقابل غزوهم لنا» (!!!)، إذ من المعروف أن معظم المجتمعات الإسلامية تستورد أكثر من ٧٠٪ من مادتها الإعلامية، سواء كانت هذه المادة برامج أم مسلسلات أم أفلامًا، أم تقارير إخبارية . ومن المعروف أن منتجي ما يستورده العالم الإسلامي ليسوا على ديننا ولا على عقيدتنا أو ثقافتنا، ومن ثم علينا أن نتوقع، بل ونعرف ما ينتجون .

إن لهؤلاء المنتجين والمصدرين عقائدهم وأفكارهم وثقافتهم، ومن العسير أن نحملهم على أن يفكروا كما نفكر، ونفي قدرتنا على ذلك يترجم ــ لفوره ــ إلى مسلمة لا مراء فيها وهي : أن أولئك المنتجين إنما يخدمون فكرهم وثقافتهم وغرضهم السياسي والتجاري وهم يكتبون القصة، وهم يخرجونها في هذا الشكل الإعلامي أو ذاك، وهم يصدرونها إلى المجتمعات الإسلامية .

وهذه الصادرات ضرب من الغزو الثقافي، سواء أقصد المصدر الغزو وتحراه أو عبّر - تلقائيًا - عن ثقافته وفلسفته وواقعه، فالمريض قد لا يتعمد أن يؤذيك بما فيه، بيد أن ما يحمله من مرض معدٍ سيلحق بك الأذى بطريقة تلقائية، كما يقول التركي[1].

ثالثاً :

من مخاطر الغزو الثقافي أنه لا يمكن نسبته إلى جهة واحدة تقوم به أو تخطط له، وإنما هناك عشرات وعشرات من الجهات والمؤسسات «فعشرات الأجهزة، كما يقول حسان، شرقية وغربية، سرية وعلنية، حكومية وأهلية، دينية وإلحادية، عسكرية ومدنية، تجمع صفوفها، وتحشد قواها، لغزونا من الداخل، بعد انحسار مرحلة الغزو من الخارج، ومع أن الغزو من الخارج ليس مستحيلا - وأفغانستان خير دليل على ذلك وشاهد [*] - إلا أن الغزو الثقافي أكثر استقرارًا، وأرسخ دعائم، وأعتى نفوذًا، بدون إبرار جوي، أو إحراج دولي[2].

رابعًا :

إن البعض - للأسف الشديد - يربط بين الحضارة والتقدم والمدنية، وبين البعد عن الدين، وعن الجذور الأصيلة، وعن تقاليد الماضي العريق، فالتدين عندهم رجعية، والتمسك بالتقاليد والجذور الأصيلة تخلف.

---

(١) عبد الله عبد المحسن التركي، تحديد مفهوم الغزو الثقافي، مرجع سابق، ص ص ٦ - ٧.

(*) حينما كتب د. حسان محمد حسان هذا الكتاب عام ١٤٠١هـ كان الغزو الشيوعي لأفغانستان على أشده، أما اليوم، وبعد نحو اثنتي عشرة سنة، فالأساليب هي هي لم تتغير، بل إنها زادت اتضاحًا، وما عاد هناك إحراج أو حياء، بل صراع صريح واضح وضوح الشمس، ويكفي أن ننظر لما يجرى على أرض البوسنة والهرسك من مذابح مروعة للمسلمين على أرضهم، زاد ضحاياها حتى كتابة هذه السطور عن ثلاثمائة ألف، وأوروبا وأمريكا وروسيا تتفرج، بل وتمد الصرب والكروات بالسلاح والتدريب بينما تحجبها عمدا عن المسلمين، وقضية الشيشان نعيشها جميعًا وندري مأساويتها.

(٢) حسان محمد حسان، وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، مرجع سابق، ص ٧.

أمـا الجري وراء التافـه من قشـور الحضـارة الغـربية، والاقتبـاس والانغماس في تفاهات المجتمعـات هناك فحداثة وتجديـد وتقدم!! إن بعضهم يتصور أن مجرد إقامـة الحفلات الراقصـة الماجنة والصاخبـة يجعل منهم متحضرين ومتقدمين، والبعض يدعو لإقامة حفلات اختيـار ملكات الجمال وتتويجهن لإزالة الحياء من بنات المسلمين، وهم لا يعلمون، ولعلهم يعلمـون، أنهم بذلك إنما يدعون إلى تخريب مجتمعاتهم وهـدمها من الجذور. وكثيرون منهم يتصـورون أن مجرد التشبه بهذه القشور السطحية إنما يقربهم من مدنية أوروبا وأمريكا !!.

ولقد فات هـؤلاء - تمامًا - أن المسلمين لم يكونوا متقـدمين، ولم يكن لهم ذكر في العـالم، ولا إسهـام رائع في صنع حضـارة تليـدة مشرقـة إلا يـوم أن كـانـوا متمسكين بدينهم، عاملين بأوامره ونواهيـه، وأن العالم من حولهم والذي أذهله تقدمهم، قـد وقف حيرانًا أمـام هذا الانقلاب المفـاجئ الذي أصـاب «العربي الجاهل» فحوله إلى عالم متفقه يسهر الليل، ويصله بالنهار. طلبًا للعلم الذي حثه عليه الإسـلام، وجعله فريضة لا هوادة فيها، ولا تنـازل عنها، وأمام ذلك المجاهد العظيم الذي باع دنياه واشترى بها آخرة وعده الله بها ـ سبحانه وتعالى ـ هنا وقفت تلك الشعوب موقف المتعلم من ذلك الإنسان المسلم .. المبدع .. المنتج .. العـالم .. العامل .. والمجـاهـد، وتلك هي بعض صفحات الـذين يبنـون الحضارات، ويقيمـون صرح المدنيـات، ويـدفعون بشعـوبهم في طـريق التقدم.

ولو أن اليابان، في عصرها الحديث، أخذت في اقتناء قشور الحضارة والمدنية من أوروبـا - كما تفعل بعـض مجتمعـاتنـا الآن - لما تعـدت مـرحلـة العصـور الوسطى، عصـور الإقطاع التي كـانت تعيشها منـذ نحو مائتـي عام. إنما هي كرَّست حياتها، وبخاصة حياة أبنائها المبتعثين إلى الخارج، للبحث عن سر قوة

أوروبا، وعن بواعث تقدمها، منذ مطلع القرن الماضي، فكان الجهد المكثف والجري المحموم وراء العلم والتكنولوجيا، ومحاولات اقتفاء آثارها في كل مكان يظن أن فيه أثرًا لها على سطح الأرض، تطبيقًا لكلمات إمبراطورهم الواعي الداهية «ميجي» عام ١٨٦٨م، حين نادى بذلك في خطابه يوم جلس على العرش.

ويذكر التاريخ أن أبناء اليابان كانوا يركعون تحت أقدام عمال إنجلترا وألمانيا يخدمونهم، بصبر عجيب، وتفان أعجب، في سبيل أن يتعلموا منهم «سر الصنعة» وأن يتشربوا هذا السر حتى يعودوا به إلى مجتمعهم الياباني المتعطش للعلم، والباحث عن التقدم، بل إنهم في اليابان، حين علموا بوجود دولة عربية إسلامية متقدمة - آنذاك - أرسلوا بعثة سريعة من أبنائهم إلى تلك الدولة . . مصر . . كي يقفوا على سر تقدمها، ولقد كان ذلك عام ١٨٦٣م !!

ويكفينا في هذا المجال أن نذكر، ونحن نقارن حال مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، مع حال اليابان، في مجال العلم والتكنولوجيا، أقول يكفينا أن نذكر عبارة مفكرنا الإسلامي الشهير «مالك بن نبي» - رحمه الله رحمة واسعة - فلقد قال الرجل الحصيف : «لقد وقفت اليابان من الحضارة الغربية موقف التلميذ، ووقفنا نحن منها موقف الزبون»، وشتان بين «التلميذ» . . طالب العلم، والباحث عن التعلم والاستفادة، وبين «الزبون» طالب المتعة والاستهلاك . . والساعي بقدميه إلى الكسل والخمول والذل.

إن الأول يبحث عن علم، وعن تطبيق علم، وهما الأساس المتين في صناعة الحضارة ، وفي تمهيد الطريق للتقدم، ومن بعدهما يأتي الغنى والازدهار والقوة والمنعة والهيبة بين الدول، أما الثاني فهو يبحث عن البريق الزائف، واللمعان في القشور، بينما يغيب عنه الأصل، ويعمّى عليه الجوهر، وما عرف التاريخ أمة

اكتسبت قوة أو مناعة أو حتى احترامًا بين الشعوب بكثرة استيرادها، وبضخامة إسرافها، بل العكس هو الصحيح؛ إذ أن ذلك كله مؤدٍّ للخضوع، آخذ برقاب تلك الشعوب إلى مهاوي التبعية والذل، وليس هناك من نتائج أخطر من هذه فيما يتعلق بالغزو الثقافي.

خامسًا :

ويبين «التركي» الأثر الخطير للإعلام في حياة الأمة، في مجال الغزو الثقافي، وكيف أنه يحاصرها، ويأخذ بتلابيبها، ولا يترك لها مجالاً إلا السقوط في أحابيله، إلا من عصم الله، يقول : «إن المجتمعات الإسلامية بوغتت وهي متلبسة بأغلال الغزو الثقافي وآثاره، بما زاد المشكلة سعة وعمقًا وتعقيدًا وحدة. . فقد بوغتت المجتمعات الإسلامية بتدفق إعلامي ضخم الحجم، بالغ التأثير، متواصل الطَّرْق والدق والإلحاح، فخوطب الطفل المسلم بما يتعارض مع فطرته، ومقومات تكوينه الإسلامية، وخوطبت المرأة المسلمة بما يجعلها نسخة مشوهة من المرأة الغربية، وخوطبت الأسرة المسلمة بما يقوِّض أواصر التواد والتراحم، ويهدم الصلة السوية بين الأجداد والأبناء والأحفاد، وخوطب المجتمع الإسلامي كله بما يضرب وحدته الفكرية، وبما يورثه فتنة في الدين، وشكًّا في المقومات، وبما يزلزل أمنه الثقافي وطمأنينته النفسية [1].

ولا يحتاج الكلام السابق إلى كثير تفسير، ولا إلى عميق توضيح، فالأوضاع من حولنا تفسره وتدل عليه، في بيوتنا، وشوارعنا، ومدننا، ومحلاتنا، وعلى حدودنا، في علاقاتنا ببعضنا، في تنافرنا ومعاركنا، معاركنا الشخصية في العمل، ومعارك دولنا في خلافات تافهة مصطنعة على الحدود، في شكنا في

---

(١) عبد الله عبد المحسن التركي، تحديد مفهوم الغزو الثقافي، مرجع سابق، ص ٦ .

بعضنا وثقتنا في الأجنبي، في سوء فهمنا وشكنـا في أهلنا بينما ثقتنا في الأجنبي بلا حدود، في انغـلاقنا على بعضنا وادعـــاء السرية في بعض التافـه من الأمور، بينما بلادنا وأحـوالنا وأوضاعنا كتاب مفتوح مكشـوف ومفضوح أمام الأجنبي. وليس هناك من أوضـاع مترديـة أكثر من هـذه بالنسبة لآثار الغـزو الثقافي، في تقديـرنا للغير، وفي عدم احترامنا لأنفسنا وذواتنا بما يجعلنـا أمة خيرها لغيرها، ومستقبلها لا تمتلكه ولا تخطط له، ما دامـت تابعة لمن لا يدينون بدينها، مع أننـا طولبنا من ربنا بغير ذلك ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾.

سادسًا:

من أخطر ما توصل إليه من فكروا في الغزو الثقافي أنهم ركزوا على الإنسان.. من داخله، بحيث تزلـزل شخصيته، ولا يعرف صاحبها رأسـه من قدميه، كما يقول المثل. لقد جرب الاستعمار حرب السلاح، والاستيلاء على الأرض، فوجد المسلمين ينتفضـون يـدافعون بقـوة وحمـــاس عن الأرض والعـرض والشرف، في مصر فعلوا، وكذا في الجزائر وأفغانستان، وهم لا يزالون يفعلون في فلسطين وفي البوسنة والهرسك والشيشان، والنتيجة المحتملة والنهائية هي هزيمة الاستعمار، والخروج من الأرض، مهما بلغت التضحيات.

ومن هنـا تمخضت حيلهم وأفكـارهم عن الشكل الجديـد من الاستعمار، ألا وهـو تذويب شخصيـة أو شخصيات هـؤلاء المجاهـدين والمقاومين الـرافضين لوجودهم على أرضهم، وحينما تذوب الشخصية تضيع الأهداف، أهداف الأمة الإسـلاميـة، بينما تتحقق أهـداف المستعمـــرين أعـداء الإسـلام. إن احتـلال الشخصيـة أهم من احتلال منـابع النفط «... والسيطرة على العقـول.. أهم من السيطرة على الأسواق»[1].

---

(١) حسان محمد حسان، مرجع سابق، ص ١٦.

ولننظر حولنا لنرى ماذا فعل بنا الوضع الجديد، أي بعد طرد الاستعمار العسكري المسلح، وبعد تذويب الشخصية الإسلامية، وتمكُّن الغزو الثقافي من عقولنا ونفوسنا وجماع شخصيتنا.

أيام الاستعمار المسلح كان الأجنبي بغيضًا إلى نفوسنا، محتقرًا في بيوتنا، لا يستطيع أن يسير في مدننا وشوارعنا، ومن هنا كان يحتمي في مناطق خاصة تعزله عن مجتمعاتنا (في منطقة قناة السويس.. في حالة مصر)، وفي معسكرات يحيطها بأسلاك شائكة، ويضع على حدودها حراسات، وأضواء كاشفة، وأسلاكا مكهربة عازلة. ورغم كل هذا وصل إليه الفدائيون الإسلاميون، ونالوا منه، وأسالوا دمه، وأقضُّوا مضجعه. أما اليوم - وبعد الاستقلال - فقد خرج الجندي المدجج بالسلاح، وعاد إلينا بشكل آخر، عاد سائحا.. وعاد خبيرا.. وعاد أستاذا.. ندعوه نحن، ونلح في الدعاء، ونستضيفه ونكرمه، ونبالغ في الحفاوة والتكريم، نحجز له في أفخم الفنادق، ونرتب له برامج للزيارة، ونحجز له ما هو أخطر.. نحجز له مكانًا آمنًا في عقولنا ونفوسنا، ونطلب من أبنائنا أن يتعلموا من (حكمته)، **وإذا رجوناه أن يبقى عندنا للعمل منحناه أضعاف ما نعطي النجباء من أبنائنا، وتمكنت منا عقدة الخواجة، وأصبحت دالة على إحساسنا بالنقص، وعلى استشعارنا الدونية والمهانة... على أرضنا!!**

أيام الاستعمار المسلح كانت فينا عزة، وكانت لدينا كرامة، وكان الوطن يعنينا، فخرجت من بيننا فئات مؤمنة واعية تنادي بمقاطعة الأجانب، ومقاطعة بضائعهم حتى تبور في الشوارع والمحلات، وحتى يعلموا أننا لا نقبل أن نشتري، ومن ثم نربِّح، ممن يقتلون أبناءنا، ويدنسون تراب أوطاننا. وفي الوقت نفسه ارتفعت صيحات واعية بتشجيع الإنتاج الوطني، والوقوف خلف الصناعة الوطنية.

واليوم . . . وبعد الاستقلال، وبعـد الغزو الثقافي، أين نحن من هذا . . ؟؟ شركاتنـا الوطنية (والمثـال من مصر كذلك)، وبخـاصة شركات القطـاع العام، خسائرها السنوية بمئـات الملايين من الدولارات، بينما الشركات الأجنبية تصول وتجول في أسـواقنـا، وأذواق المصممين عنـدهم تسيطـر على عقـول نسـائنـا وفتياتنـا . . بل وشبابنا والرجـال، وهي تحصد الأموال من أيدينـا لتذهب بها إلى مـواطنيهم هناك في الخارج، ويكفي أن نـذكر أن مصر حينما قـامت فيها الثـورة منذ نيف وأربعين عامًا كانت تدين إنجلترا بنحو خمسين مليون جنيه استرليني، نتيجـة عمل الفلاحين والعمال المصريين، ونتيجـة جـودتهم وإتقانهم !!! أمـا اليوم فديوننا . . ومعنا الغالبيـة العظمى من دول العالم الإسلامي علامة دالة على كسلنا وإهمالنـا، وتمكن الغزو الثقافي منـا بحيث أصبحنا نجلس أمام الفيـديو والتليفزيون بأكثر مما نمكث في الحقل أو في المصنع . . !!(*).

سابعًا :

على الرغم من أن جـامعاتنا في العـالم العربي بها النخبة المثقفـة ذات المستوى العـالي إلا أن الغـزو الثقـافي قـد وصل فيهـا إلى النخـاع متمثـلا في إهمال اللغـة العربيـة، لغة القرآن الكـريم، وخصوصًا في الكليـات العلمية، وبالتحـديد : الطب والصيدلة والهنـدسة، وأحيانا العلوم، حيث يجرى التدريس فيهـا باللغة الإنجليزية، **وكأنما ضـاقت لغـة القـرآن الكـريم عن استيعـاب المصطلحـات العلمية الحديثة، وهي التـي كانت لغة العلم . . . العالمية، فحتـى القرن السابع عشر الميلادي كـانت جامعـات أوروبا القـديمة ما زالـت تستخدم كتب العلماء**

(*) يمكن لمن أراد زيادة حول هذا الموضـوع أن يرجع لرسالة الماجستير الخاصة بـالكاتب، وهي بعنوان: دور التربية في مواجهة الآثـار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على كهربة الـريف، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم أصول التربية، كلية التربية، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٥م.

المسلمين، وتعتمد عليها في شتى فروع المعرفة المختلفة. بل ويكفينا هنا أن نذكر أن محمد علي باشا، والي مصر في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، حين أنشأ كلية الطب في مصر، وترأسها عالم فرنسي، هو «كلوت بك»، كان التدريس فيها آنذاك باللغة العربية، وكان ذلك عام ١٨٢٧م، أي منذ أكثر من ١٦٥ (مائة وخمسة وستين) عامًا!!

لقد كان محمد علي باشا، عليه رحمة الله، واعيا جدًّا لأهمية اللغة العربية في المعاهد التي أنشأها، بل وذهب في بعد نظره لهذا الأمر مذهبا لا أبالغ إذا قلت إننا قصرنا عنه هذه الأيام في الجامعات، لقد كان يطلب من كل طالب مبتعث حين عودته للوطن أن يترجم أطروحته التي حصل عليها بالخارج إلى العربية، حتي يعم نفعها أبناء وطنه، ولا تظل حبيسة الأدراج لا يستفاد منها، وما من أمة تركت لغتها وهجرتها إلى غيرها إلا ضاعت وأصبحت تابعة لغيرها.

ويكفي هنا أن نشير إلى أن اليابان رفضت بإصرار غريب أي تعديل في لغتها من جانب الأمريكيين، حتى بعد ضربها بالقنابل الذرية في هيروشيما ونجازاكي، ولقد خضعت للأمريكيين في كل شيء عند توقيع معاهدة السلام، وقبلت بكل شروط الاستسلام التي فرضت عليها كأمة منهزمة، ولكنها حين وصل الأمر إلى ميدان تعديل اللغة اليابانية... رفضت وأصرت على الرفض، لأنها كانت تعلم أن اللغة هي ضمير الأمة، وهي عقلها، بل هي كيانها وذاتها.

ويقيني أنه لو كانت اليابان قد وافقت على تعديل لغتها، إرضاء للأمريكيين، لكانت شخصيتها قد محيت من الوجود، ولما كانت قد تقدمت هذا التقدم الهائل، بل التقدم المعجز في مجالات العلم والتكنولوجيا الرائعة والمذهلة التي اعترف ويعترف به الجميع في شرق وفي غرب. ويكفي أنها تفوقت على الذين انتصروا عليها في الحرب، وأصبحت وهي تغزوهم بمنتجاتها في

ديـارهم، وتضربهم بقنـابل اقتصـاديـة لا يستطيعـون لها اتقـاء، بل أن تـدينهم بعشرات المليـارات من الـدولارات . ومن بضع سنوات والميـزان التجـاري يميل لصالح اليابـان ضد الولايات المتحـدة الأمريكية، ويعترفـون ويقـرون في اليابان بأن الفضل يعود للتربية اليابانيـة، والتي عمادها لغة مجتمعها بطبيعة الحال. إن هذه التربيـة اليابـانية خـرَّجت للأمـة اليابـانية علماء ومخترعين ومهنـدسين قفزوا بمجتمعهم خطوات رائعة على طريق التقدم ، مما جعله يسبق مجتمعات الدنيا، بل وجعل المسافـة بينهم وبين غيرهم من المجتمعات تتسع أكثر وأكثـر، والذي يملك السبق ـ في مجال التكنولوجيا ـ يصعب اللحاق به، كما يقول مؤلف كتاب «اليـابـان التي تستطيع أن تتمـرد» [1]، والذي أثـار ضجة هـائلة في الـولايات المتحدة الأمريكية منذ بضع سنين، وحتى الآن (١٩٩٥م).

ثامنًا :

إذا كـان المستعمرون يخططـون لأنفسهم ولنـا في قضيـة الغـزو الثقافي هـذه، بـدعوى أنهم أصحـاب الثقافـة الأقوى والأرسخ، وهـم معتمـدون في ذلك على تفـوقهـم العلمي والتقني، إلا أن المسلمين أصحـاب عقيـدة هي الأعظم عبر التاريخ، وهي التي ينبغي أن تسـود بين الأمم والشعوب، وهـذه العقيدة ينبغي أن تستتبعها ثقافة على المستوى نفسه من العظمة والرسوخ. وإذا كان المسلمون قد فرطوا في العلوم فترة معينة في حياتهم، وهـم يدفعون ثمن ذلك الآن، نقول إذا كان ذلك قد حدث فإنه لا ينبغي عليهم أن يخضعوا أو يذلوا، ولكن – للأسف الشديـد – فإن طائفـة كبيرة منهم فقدت حسهـا الإسلامي السليم فهـانت على نفسها، ومن ثم على الناس، وكـان ذلك نتيجة الانبهار الشديد بثقـافة الغازي

---

(١) Shintaro Ishihara : The Japan that Can say No, Op. Cit.

وفكره، يقول التركي : «ونأسف إذ نقول : إن الحضارة الغربية أطريت بإسراف في العالم الإسلامي، والإطراء أسلوب يفقد الإنسان توازنه العقدي أمام من أو ما جرى إطراؤه. لهذا السبب - ولأسباب أخرى - نهى الرسول ﷺ أن يطريه المسلمون، وذلك لأن أقوامًا أطروا رسولهم، ففقدوا - من ثم - توازنهم العقدي، وجعلوا رسولهم إلهًا أو بعض إله، ولكن مادحي الحضارة الغربية - في العالم الإسلامي - جعلوا لها ما ليس لرسول الله ﷺ».

إن الانبهار بغير المسلمين حالة نفسية وفكرية لا تدل بحال من الأحوال على قوة العقيدة ونقاء التوحيد. ثم إن للانبهار الشديد مقتضيات في مقدمتها التقليد والمحاكاة، وقد نهي المسلمون عن تقليد غير المسلمين. ولكن حين نسيت هذه المعاني، استمر المطرون في إطرائهم للحضارة الغربية فحصل الانبهار الشديد بها، وكان هذا الانبهار أحد مداخل الغزو الثقافي[1].

تاسعًا :

من مآسي الغزو الثقافي، ومن مسبباته أيضا أن المجتمعات المغزوة يحس أفرادها بالدونية أمام أبناء المجتمعات الغازية «أي أن يحس المرء بأنه ينتمي إلى حضارة أدنى قيمة وأقل وزنًا من حضارة الغازي. ومما لا شك فيه أن هذا الإحساس نشأ ونما في غياب الانتماء الحقيقي والمستنير لحضارة الإسلام. ومما لا شك فيه أيضا أن المسؤول عن هذا الغياب هو مناهج التربية والتعليم، وبرامج التوجيه والتثقيف»[2].

---

(١) عبد الله بن عبد المحسن التركي، مرجع سابق، ص ص ١٥ ـ ١٦.
(٢) المرجع السابق، ص ص ١٥ - ١٦.

ولو ترجمنا هذا الكلام السابق ترجمة عملية وقمنا نستعرض مناهج التعليم في بلادنا العربية والإسلامية لوجدنا عجبا حقًّا، وقد سبقت الإشارة إلى هذا الموضوع في ثنايا هذا الكتاب، ولكن للتذكرة فقط نضع بعض الحقائق عن أوضاع المناهج في بعض بلادنا «إن خريجي كليات الحقوق في بعض جامعاتنا لا يفهمون كتابا عربيا واحدا في المواد التشريعية؛ لأن خطة الدراسة فيها تخصص عشرين ساعة في الأسبوع للقوانين الأوروبية (الفرنسية في الغالب في حالة مصر)، بينما تخصص ساعتين اثنتين فقط للشريعة الإسلامية !!! ترى لو أنشئت هذه الكليات في فرنسا أو إنجلترا أكانت تفعل أكثر من ذلك ؟؟ !!

إن إحدى كليات الآداب في عالمنا العربي (في جامعة بغداد بالعراق . . تحديدًا) تقول خطط الدراسة بها في قسم اللغة العربية إن هناك مقررًا بعنوان : البلاغة . . والقرآن . . والحديث»، وأن مدته أربع ساعات، وهو يدرس في السنة الأولى الجامعية فقط، أي بواقع ساعة وثلث الساعة لكل علم من هذه العلوم التي بها فروع لا تكفيها على وجه اليقين أضعاف هذه الساعات الأربع !!(1).

المهم أنها أربع ساعات، ويدرسها الطالب في السنة الأولى . . ثم ينساها بعد ذلك - على وجه اليقين - عند التخرج، أو حتى قبل ذلك التخرج؛ لأنه لا يجد لها متابعة في السنوات الثلاث التي تلي ذلك، هذا بينما يدرس للطالب نفسه في القسم نفسه «اللغة الإنجليزية» بواقع ثلاث ساعات في السنتين الأولى والثانية، فيصير المجموع ست ساعات للغة المستعمرين البريطانيين الذين يحلو لبعضنا

---

(1) محمد عبد العليم مرسي : التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

أن يسبهم ويلعنهم، وذلك مقابل ساعة وثلث للغة القرآن الكريم، وذلك لمن؟ لطالب اللغة العربية الذي سيتخرج ليعمل مدرسًا !!

وفي قسم الصحافة، بالكلية نفسها (آداب جامعة بغداد) والذي سيتولى خريجوه توجيه الرأي العام في مجتمعهم ـ أو هكذا يفترض ـ لم نجد مقررًا واحدًا ذا هوية إسلامية، مجرد مقرر واحد على مدار السنوات الأربع للدراسة في قسم الصحافة[1]، فهل جاء ذلك مصادفة ؟؟ أم أن التغريب قد تمكن من واضعي تلك المقررات، وأن الغزو الثقافي قد تمكن منهم لدرجة أذهلتهم عن هويتهم الإسلامية التي يدّعون الانتماء إليها ؟! هل لو كانت جامعة بغداد دعت لجنة خبراء من الأجانب لوضع الخطة الدراسية لذلك القسم، هل كانوا سيفعلون غير ذلك ؟؟ أعتقد أنهم كانوا سيضعون مقررًا في الإسلام، من أي نوع، ولو من جانب العلم بالشيء، ومحاولة منهم لفهم - مجرد فهم - ثقافة المجتمع الذي يعلمون طلابه !!

عاشرًا :

ولا يقتصر الأمر على مجرد خلو خططنا الدراسية، في بعض جامعاتنا من مقررات الهوية الإسلامية فحسب، وإنما وصل إلى حد السماح بإقامة «مدارس أجنبية» على ترابنا الإسلامي. إن هذه المدارس معاول هدم حقيقية، وهي تعمل في عقول أبنائنا الذين يدخلونها، سواء وعينا ذلك أو غاب عنا.

إنها تعمل على تغريب أجيال كاملة من أبناء الأمة الإسلامية، والمجتمع الذي يسمح بوجود هذه المدارس على أرضه يعطي القائمين عليها سلاحًا من أخطر ما يمكن، ومن أفظع ما نتصور، إنهم يتمكنون من خلال مناهجها

---

(١) المرجع السابق.

وبرامجها، من تشكيل عقول الناشئة وتوجيههم الوجهة التي يريدون، حتى وإن كانت ضد مصالح مجتمعهم، وضد عقيدته وأمنه.

ومهما تكن الدعاوى حول السماح لهذه المدارس بأن تعمل على أرض بعض بلادنا الإسلامية فهي بلا شك تنبئ عن ضعف فادح، بل وفاضح من جانبنا، وعن قوة وتجبر وتسلط من جانب أعدائنا. قوة وسيطرة في التأثير بحيث نوافق على إعطاء هؤلاء الأجانب حق تقرير مصير أطفالنا. وقد يقال إنها أنشئت أصلا لتعليم أبناء الجاليات الأجنبية، ولكن الواقع يقول إن خطرها قد امتد إلى أبناء المجتمع الأصلي الذي سمح بوجودها على أرضه، وأنها بدأت تنشر سمومها وتنفثها بين أبناء المجتمع كله.

إن أحد المجتمعات العربية الإسلامية القليلة العدد جدًّا به أكثر من خمس وعشرين مدرسة أجنبية، وقد ارتفعت صيحات المصلحين في ذلك المجتمع في عدد غير قليل من صحفه ومجلاته، منبهة إلى خطورة أوضاع تلك المدارس على مستقبل الأبناء ومستقبل الوطن، إن نسبة أبناء العرب المسلمين في هذه المدارس الأجنبية بالكويت أعلى من نسبة غيرهم من الأجانب، والتي أنشئت ـ أصلا ـ من أجلهم، أو هكذا قيل، تبريرًا للسماح بافتتاحها، وقد كتب أحد أبناء ذلك البلد يحذر قومه من المصير المنتظر، فما طمحت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد ما، أو إقليم في الشرق، إلا وسبقت إليه بافتتاح المدارس الأجنبية بمرسليها الدينيين، ومن تخلق بأخلاقهم كي يمهدوا السبيل للاستعمار. . . الاستعمار الثقافي والفكري بطبيعة الحال[1].

ولمن يهوّن من أمر المدارس الأجنبية، أو لمن لا يعي خطرها، نسوق إليه ـ وبالأرقام ـ رأي واحد من دعاة الاستعمار في الغرب، يقول الجنرال «بيتر كيللر»: «في بداية حرب ١٩١٤م (الحرب العالمية الأولى) كان أكثر من ٥٢,٠٠٠ (اثنين

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٧.

وخمسين ألف تلميذ) يتلقون تعليمهم في مدارسنـا ، وكان بين هؤلاء فتيان وفتيان ينتمون إلى عـائلات إسلامية عـريقة ، مما جعل الجمعيـة المركزية السـورية التي تألفت في باريس (لعلنا نتنبه . . !!) تعلن عام ١٩١٧م أن ميول جميع السوريين وعـواطفهم تتجـه نحـو فـرنسـا . . . بعد أن تعلمـوا لغتهـا وخبروهـا على مـر الأجيال»[١]. ألـم نقل - في بـدايـة هذا البحث - إن احتـلال مسـاحـات في العقول والأفهام أخطر من احتلال مسـاحات من الأرض يهب أصحابها للدفاع عنها ضـد المستعمرين . . ؟! إن احتلال العقـول والأفهام يحول طائفـة من أبناء الأمة مـن الدفاع عـن وطنهم ومواطنيهم إلى الـدفاع عن المستعمـر ومصالحه . . وليس بعد ذلك من كارثة ، والفضل في ذلك ـ إن صلح التعبير في هذا الموضع ـ للغـزو الثقافي والفكـري الذي حـول هـذه الطائفـة من أبنـاء الأمة من صفـوف إخوانهم وأشقائهم إلى صفوف أعدائهم .

ولعل التـوقف عنـد حـالـة مصر، فيما يخص هـذا الموضـوع ، يعطينـا صـورة واضحـة تغني عن البحث في حالـة كل بلد عـربي على حدة ، خــصوصًا وأن مصر كانت - دومـا - مفتاح الدول العـربية ، كما كـانت تجربتها في التعليم هي التجربـة الـرائدة في العالم العـربي ، وقد نقلـت بكاملهـا - أو كادت - إلى دول الخليج .

إن محمد علي باشا ، الذي تولى حكم مصر بمساعدة مشايخ الأزهر وعلمائه ، عاد فـانقلب عليهم وضايقهم ، بل وضايق الأزهر نفسـه وضيّق عليه ، ولم يكن عجيبا بعـد ذلك أن ينحـو خلفاؤه منحاه مـن بعده ، وأن يـوسعوا على المدارس الأجنبية ، وأن يمنحوها كل ما تريـد وأكثر . أرضا . . ومالاً . . وصلاحيات . . واستثناءات ، ولنقرأ كيف كان يدار بلد من بلاد المسلمين لحساب النصارى من

---

(١) عبد الستـار فتح الله سعيد : الغزو الفكـري والتيارات المعادية لـلإسلام (ضمن بحوث مـؤتمر الفقه الإسلامي ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ١٤٠٤هـ ، ص ١٩٩ .

كل بلـد أوروبي أراد أن يكـون لـه موطـأ قدم في أرض الكتـانـة، فحصلـوا على امتيـازات لا يمكن للعقل أن يصـدقها، إلا أن يكون الـذين منحوها قـد فقدوا عقـولهم !! وكأن هـذا البلـد - مصر - كانت بـلا أصحـاب، وبـلا أهل، ولا عجب، فلم يكن حكـامه من أبنـائه فعـلا، ولا كان يعنيهم أمـره حيث أعطى «سعيـد باشـا» راهبـات الراعي الصـالح آلاف الفـرنكات، وآلاف الجنيهـات للمدرسـة الإيطالية، كما وهب للمدرسـة الأخيرة ٨٠٠٠ (ثمانية آلاف) ذراع من الأرض في أحسن جهات الإسكندرية»[١].

وكذلك «منح إسماعيل باشا راهبات الإحسان ٣٥٠٠ (ثلاثة آلاف وخمسمائة) ذراع لبناء مـدرسة عليهـا في الإسكندرية، ومقـادير هـائلة من القمح سنـويًّا، وأيضـا للراهبـات اليسـوعيات، ومـدرسـة الأوروبيين في بـورسعيد، والمدرسـة اليونانية والعازاريين والفرير بالإسكندرية، كذلك منح الإرسالية الأمريكية أرضا بالقرب من فندق شبرد - بالقاهرة - ليقيموا عليها مركزا، بالإضافة إلى هبة مالية (تصـوروا. . . نحن في مصر . . في عهـد إسماعيل المدين لشوشتـه، أو الـذي تسبب في استـدانة مصر. . نمنح الأمـريكيين. . هبـة ماليـة. . !!!) مقدارهـا ٧٠٠٠ (سبعة آلاف) جنيهـا ذهبيا. . للبنـاء، كمـا كـان يطلب إلى الهيئـات الإداريـة والمحلية مـد يـد المسـاعدة للقـائميـن على أمـر هـذه المـدارس الأجنبيـة» !![٢].

ولعلنا لا ننسى هنا مقولة د. عبد الله التركي من أن الأمر المذهل في أمر الغزو الثقافي هو أن المغـزو. . . أي المعتدى عليه. . . هو الـذي يستدعي الغازي إلى

---

(١) سعد مرسي أحمد، سعيد إسماعيل علي: تاريخ التربيـة والتعليم، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٨م، ص ص ٢٩٦ - ٢٩٧.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٧.

دياره، وأكثر من ذلك أنه هو الذي يدفع له ثمن مجيئه، وثمن بقائه على أرضه، ومن ثم ثمن تخريبه لعقول وشخصيات أبنائنا وناشئتنا، أليس هذا من نكد الدهر أن يكون بيننا حكام من هذا النوع ؟؟

ثم لعلنا نتابع الإيقاع السريع لإنشاء المدارس الأجنبية في مصر، لنرى ذلك الحِمى الذي استباحه الأجانب ببشاعة وإجرام، في بلد الأزهر والذي ترتفع فيه المآذن بالمئات، أو حتى بالآلاف، ولكن وحتى نكون منصفين. . هل كان ذلك خطأ الأجانب؟؟

- في عام ١٨٧٦م تأسست إرسالية راهبات الرسول Notre Dam Das Spotres، كما أسست مدرسة لها في طنطا عام ١٨٨١م.

في عام ١٨٨٠م أسست مدرسة بواسطة إرسالية راهبات المير دي ديو La Mere de Dieu، وذلك في حي بولاق بالقاهرة، كما قامت الإرسالية نفسها بتأسيس مدرسة في الإسكندرية عام ١٨٨٢م.

- أنشئت مدارس الفرير Saint Joseph بالقاهرة عام ١٨٥٤م، ومدرسة أخرى بها، أطلق عليها الملحقة، كما أنشئت مدرستان أخريان في الإسكندرية في عامي ١٨٧٣م - ١٨٨٨م.

- بدأت إرسالية الجزويت بإنشاء مدرسة للبنات بحي المنشية بالإسكندرية عام ١٨٥٦م، ثم أتبعت ذلك بمدرسة للبنين عام ١٨٥٧م، وفي عام ١٨٦٨م توجت الإرسالية عملها بإنشاء الكنيسة الأسكتلندية في ميدان إسماعيل.

- في عام ١٨٥٥م افتتحت الجالية اليونانية مدرسة للبنات بالإسكندرية، وفي عام ١٨٦٠م افتتحت مدرسة أخرى تضم قسمين للبنين والبنات.

- في عام ١٨٥٤م أنشأت الجالية الأرمينية مدرسة بجوار كنيسة السيدة العذراء بالقاهرة.

- وفي الفترة نفسها أنشئت مدرسة تابعة للجالية الألمانية.

- وفي الفترة نفسها أنشئت مدرسة تابعة للجالية الإيطالية(١).

إن كل ذلك النشاط النصراني المحموم جرى لتغريب المجتمع المصري الذي سبق أن هزم الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع، ملك فرنسا، وقد أذله ومعه جنوده وضباطه، فكأنهم جاءوا ينتقمون، خصوصًا وقد وجدوا من يمنحهم امتيازات ما كانوا ليحصلوا عليها في أي مكان آخر، بهذا الكرم (السفيه)، خصوصًا حين نعلم أنه كان من بين هذه الامتيازات - بخلاف الأراضي والأموال والمعونات والهبات - أن يعفى الطلاب المصريون الذين يذهبون إلى مدارس الإرساليات (النصرانية طبعا) من الجندية!!! أو من الاشتغال بإقامة السكك الحديدية والطرق العامة. كما كانت هذه المدارس مستقلة تماما عن ديوان المدارس أو نظارة المعارف، كما كان يطلق عليها(٢).

وقبل أن نترك هذا الجانب الخطير، جانب المدارس الأجنبية، من جوانب الغزو الثقافي، لعلنا نورد بعض الملاحظات التي نعتقد أهميتها:

١ - في غمرة الحماس الغبي من جانب حكام مصر آنذاك لمنح الدول الأوروبية كل ما قرأناه، كانت إنجلترا تعد العدة لغزو مصر عسكريا واحتلالها وإذلال أهلها، فلم يغن عنها كل ما فعل حكامها، ولا كل ما قدموه للغرب النصراني..!!!

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٠١.

٢ – كانت هـذه المدارس تدار بعيـدًا عن أية رقـابة من نظـارة المعارف (وزارة المعـارف)، ومعنى ذلك أنهم في هـذه المدارس كـانـوا يضعـون من المنـاهج مـا يشاءون، ويدربون الطلاب والطالبات على كل ما يهدفون، ومعروف أن الهدف النهائي لهم كان إخراج فئة معينة من أبناء مصر عـن دينها، وتربية أفرادها بعيدا عن قيم ذلك الدين.

٣ – الامتيازات التي كانت تمنحهـا هذه المدارس للملتحقين بها من الطلاب كـانت تمثل عزلا لفئـة من أبنـاء المجتمع عن بقيـة زملائهم، بحيث يتربـون في أحضان النصارى، ومن ثم يكونون طابورًا خامسًا لهم فيما بعد.

٤ – توجـت دائما جهود الأوروبيين في مصر بإنشـاء كنائس في أعقـاب إنشاء المدارس.

٥ – النتيجة الحتميـة لتربية فئة من أبنـاء الوطن الـواحد في ظل تعليم أجنبي مختلف عن تعليم ذلـك الـوطن هـــو انقســام المجتمع إلى فئتين متصـــارعتين، إحداهما تحب الوطن وتدافع عنه، وأخرى تشعر بالفضل تجاه الأجنبي، فهو ولي النعمـة والفضل، ومن ثم تعمل لصـالحه، ولصالح تـرسيخ وجـوده على أرض ذلك الوطن.

٦ – في هذه المدارس الأجنبية ظهرت بدعـة الاختلاط بين الفتيان والفتيات، في مراحل التعليم المختلفة، بـاعتبار أن ذلك صيحة حضاريـة جاءت إلينا من بلاد الغرب المتقدم!! ولقد بدأ هـذا الأمر مع أطفالنا الصغار في المدارس بحيث يشبون عليـه وكأنه هـو الوضع الطبيعي، وغيره شاذ، هـو الأمر التقـدمي، وما عداه متخلف.

وبهذا السلـوك المنحرف في مـدارسنا نـزعنا جـانب الرجـولة الـذي اشتهر بـه المسلمـون الأوائل في تربيتهـم لأولادهم، وأحللنا بـدلا منـه ألوانًـا من السلـوك

المنحل والهابط، بل والمتخنث أحيـانًا، في أبنائنـا الذين يفترض أنهم سيكـونون رجــال الغد. كما أننـا ـ بهذا السلـوك أيضا ــ نزعنـا الحياء من سلـوك فتياتنـا، أمهـات المستقبل الــلاتي من المفترض أن يحملن الأمـانــة، وأن ينقلن السلـوك السوي الذي أمر به الإسلام إلى أبنائهن وبناتهن.

وعن ظاهــرة الاختلاط بين البنين والبنات هذه يقول واحـد من الغيورين على هــذه الأمــة وعلى دينهـا : «لقـد حـرص التعليم العلماني على إدخــال البنـات المسلمات إلى مدارسـه، وساعـد على ذلك أن المسلمين لم ينتبهوا إلى فتح معـاهد التعليم الديني للبنات المسلمات، بل لقد كان كثير من مدارس البنات في بعض البـلاد الإسلاميـة، بل وفي دولة الخلافـة الإسلاميـة، تابعـة لمؤسسة دينيـة غير إسلامية، ويباشر فيها «المبشرون» تنصير المسلمات، وكانت الخطوة الأخطر هي إحداث الاختلاط بين الطلبة والطالبات داخل الجامعات العلمانية في أكثر البلاد الإسـلامية، بل امتـد إلى الاختلاط في مـرحلـة الدراسـة الابتدائيـة، وأحيانًـا في المرحلتين الإعداديـة والثـانوية في فورة المراهقة وثورتها» [1].

عاشرًا :

وهذه هــي النقطة الأخيرة في هــذه السلسة من الأفكـار حول الغـزو الثقافي، وهي تتعلق بمحصلته الخطيرة التي يخرج بها الإنسـان المسلـم عن المجتمع الذي تمكن منه ذلك المرض الخطير، ونقصد به الغزو الثقافي.

إن النتيجــة المحزنـة والمؤلمة في آن واحد هي «التسليـم بالأستـاذية للحضـارة الغربيـة، والتسليم بالأستـاذية موقف ــ كما يقـول التركي ــ ينشئه الـذهول عن الرسـالة الإسـلامية العـالمية التي تورث صـاحبها أو حـاملها الإحسـاس القوي

---

(١) علي جريشة، مرجع سابق، ص ص ٣١٠ - ٣١١.

العميق بأنـه أستـاذ العـالم في العقائد والمبـادئ والشرائع والأخـلاق، كما ينشئـه الخلط بين صحـة العقيـدة والتفـوق المادي، إذ يظـن الظـانـون بأن المتفـوق في الفيـزيـاء متفوق - بـالضرورة - في كل شيء، حتى في الاعتقـاد !! وهـذا ليس صحيحًا، فـرجل عادي في واحـة من واحـات الجزائر، يحمل عقيدة التـوحيد، يعد - في ميـزان الله عز وجل - أكمل وأرشـد ملايين الدرجـات من جراح كبير لامع غير مسلم، يعيش في عاصمة دولة كبرى» [١].

---

(١) عبد الله بن عبد المحسن التركي، تحديد مفهوم الغزو الثقافي، مرجع سابق، ص ص ١٥ - ١٦.

الفصل السادس

أمثلــة على الغــزو الفكــري
من صميــم الخليــج

أمثلة على الغزو الفكري من صميم الخليج

مدخل :

كما يقول المثل فإن أهل مكـة أدرى بشعابها ، ولذا فإننا سـوف نعتمد في الجزء التالي من هذا البحث على جهود واحـدٍ من أبناء الخليج الـذين حفزتهم غيرتهم الإسـلامية على أمتهم أن يبحثـوا في قضية «الغـزو الفكري» في منطقـة الخليج . والباحث الذي نقصـده هو سعيد بن عبد الله حارب الذي كـان مستشارًا ثقافيا لرئيس دولـة الإمارات العربية المتحـدة حين سجل رسالته للماجستير في جـامعة الإمام محمـد بن سعود الإسلامية بـالرياض ، والـذي أصبح - بعد ذلك - أمين عام جامعة الإمارات العربية المتحدة (*)، ثم هو مديرها الآن .

وبعد أن يتتبع الباحث - تـاريخيًّا - محاولات الغزو الفكري - الـذي هو جزء من الغزو الثقافي - في الوصول إلى منطقـة الخليج العربي، يقول إنه بعد أن تمكن من ذلك «بدأ يرسخ عمله من خلال مجموعة كبيرة من المؤسسات التي تمثلت في المدارس والكنائس والإرساليات والمستشفيات ، التي تبدو في ظاهرها مؤسسات ثقـافية أو تعليميـة أو صحية . . ولكنهـا تستغل هـذا النشاط في القيـام بأعمال الغزو الفكري [1]».

ورغم أن ذلك الغـزو الفكري لمنطقـة الخليج صـاحب الـوجود البريطـاني في المنطقة من القرن الماضي ، واستفاد من وجـوده ، واعتمد على نفوذه إلى حد كبير،

(*) سعيد عبـد الله حارب المهيـدي : الغزو الفكري في الخليج العـربي ، رسالـة ماجستير، قسم الثقـافة الإسـلامية ، كليـة الشريعة ، جـامعة الإمـام محمـد بن سعـود الإسـلامية ، الـرياض ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م .

(١) المرجع السابق ، ص ص ٥٢١ .

إلا أن الإنسان يلحظ ظاهرة عجيبة، وهي التركـز الشديد لمؤسسات ذلك الغزو خـلال الستينـات والسبعينـات الميـلادية من هـذا القـرن، فلقـد ظهـرت حُمى متسارعـة في إنشاء مـؤسسات ذلك الغـزو، من **مستشفيات ومـدارس وكنائس وإرساليات، فهل كان ذلك معناه أن رحيل الاستعمار بشكله المعروف وبتواجده البغيض واكبه إحـلال النوع الجديد من الغزو، بحيث يبـدو المستعمرون وكأنهم تركوا** المنطقـة لحالها، وصار أمـر شؤونها في أيـدي أبنـائها، بينما الـواقع الحقيقي يقول إنهم تركوا تلك المؤسسات التنصيرية تفعل فعلها في عقول الناس ونفوسهم وفي جماع شخصياتهم ؟؟

لعلنـا لو نظـرنا إلى تلك المؤسسـات، وإلى تواريخ إنشـائها لتبينـا ذلك، كما يتضح من خلال الجدول الآتي :

جدول رقم (٣)

المدارس الأجنبية ذات النشاط التنصيري

وتواريخ إنشائها على أرض الخليج العربي [١].

العدد	اسم المدرسة	مكان وجودها	تاريخ الإنشاء
١	مدرسة القديس يوسف ST. Joseph.	أبو ظبي	١٩٦٧م
٢	مدرسة الخبيرات.	أبو ظبي	١٩٦٨م
٣	مدرسة راهبات الوردية.	أبو ظبي	١٩٦٩م
٤	مدرسة القديسة مريم.	دبي	١٩٧٠م
٥	مدرسة القديس أنطوني الخاصة.	دبي	١٩٧٠م
٦	مدرسة الراشد الصالح.	دبي	١٩٧١م
٧	مدرسة المروج.	دبي	١٩٧٥م
٨	روضة منتسوري.	الشارقة	١٩٧٥م
٩	مدرسة الشارقة الخاصة.	الشارقة	١٩٧٦م
١٠	مدرسة الشويفات الدولية.	أبو ظبي	١٩٧٨م
١١	مدرسة راهبات الوردية.	الشارقة	١٩٨٠م
١٢	مدرسة الإمارات الإنجليزية.	دبي	١٩٨٠م
١٣	مدرسة الشويفات الدولية.	العين	١٩٨٠م
١٤	مدرسة الشويفات الدولية.	الشارقة	١٩٨٦م

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٥٢١ - ٥٤٨.
بعض هذه المدارس، وخاصة الكبيرة العدد منها، يتكون من أكثر من مدرسة، وأحيانًا ثلاث مدارس (روضة ـ متوسط ـ ثانوي، وأحيانًا مدارس للبنين والبنات).

وكما يــلاحظ القــارئ فإن هــذه المدارس الأجنبيــة التنصيريــة الأربع عشرة متواجـدة في دولة واحـدة من دول الخليج العربي، وهي دولـة الإمارات العـربية المتحـدة، ولا يعقل أن يكون هـذا النشـاط المحموم في إنشـاء هذه المدارس قـد اقتصر على دولـة واحــدة بعينهـا، هي دولـة الإمـارات، ولكـن المنطق هـو أن الباحث الذي قام بـالدراسة من أبناء دولة الإمارات، ولـذا ركز جهوده فيها على شجـون مجتمعـه الخليجي، حيث أتيحت له البيـانـات والمعلـومات المطلـوبـة لـدراستـه، وقـد ألمح في ثنـايـا بحثـه إلى مـــدارس ممـاثلـة أنشئت في البحـرين والكويت.

جدول رقـم (٤)

أعداد الطلاب المسلمين في المدارس الأجنبية

ونسبتهم إلى مجموع الطلاب [١].

اسم المدرسة	أعداد الطلاب	المسلمون منهم	نسبتهم في ٪
مدرسة القديس يوسف ST. Joseph.	١٠١٦	٤٠٠	٣٩٪
مدرسة الخبيرات.	٨٧٣	١٠٧	١٩٪
مدرسة راهبات الوردية (أبوظبي).	٢٢٦٢	١٩٠١	٨٦٪
مدرسة القديسة مريم الثانوية.	١١٦٩	٩٥٨	٨٢٪
مدرسة القديس أنطوني الخاصة.	١٧١	٧٦	٤٤٪
مدرسة الراشد الصالح.	٨٥٩	٦٨٧	٨٠٪
مدرسة المروج.	٣٩١	٣١٢	٨٠٪
روضة منتسوري (الشارقة).	٩٨	-	-
مدرسة الشارقة الخاصة.	٧٠٦	٦٥٢	٩٢٪
مدرسة الشويفات الدولية (أبو ظبي).	١٧٠٩	١١١٠	٦٥٪
مدرسة راهبات الوردية (الشارقة).	٩٨٠	٧٢٨	٧٤٪
مدرسة الإمارات الإنجليزية.	٢٥٨	١٢٩	٥٠٪
مدرسة الشويفات الدولية (العين).	٣٦٣	٢٧٠	٧٣٪
مدرسة الشويفات الدولية (الشارقة).	٩٢٥	٤٨٢	٥٢٪

(١) المرجع السابق.

وهكذا نرى أن الغـالبية العظمى من تلاميذ وتلميـذات هذه المدارس هم من أبناء المسلمين، وهذا يبين بـوضوح أن الهدف من إنشائها هو الـوصول إلى عقول وأرواح وشخصيات الأجيال الصاعدة من أبناء المسلمين، وهذا هو أخطر عمل يمكن أن يتعرضـوا له؛ لأنه يتم في مرحلـة تكوين شخصياتهم وبنـائها، وتأثير التعليم والتربية، خصوصًـا إذا كانت المناهج منحرفـة، وأوجه النشاط المدرسي عليها علامات استفهام كبيرة، وذلك كما سوف نرى حين نتعرض لهـا.

ومن جـانب آخــر فإننـا نـوجـه نظــر المسلمين في مجتمعـات الخليج إلى أن الـدعـاوى التي يتقدم بها المسـؤولـون عن تلك المدارس حين يطلبـون التصريح بإنشائها تقول ـ أي تلك الدعـاوى ـ بأنهم يريدون أن يفتحوا مدارس لأبنائهم. ولكن الواقع، ومن خلال الأرقام التي مررنا عليها، يقول بغير ذلك، حيث رأينا أن النسبة الغـالبة، بل والأغلبية العظمى في كثير من هـذه المدارس هم من أبناء المسلمين، وليسوا من أبناء الأجانب.

وبالنسبة لإدارة تلك المدارس وللمـدرسين والمدرسات العاملين بها نجد أنهم جميعا من غير المسلمين، بل إنهم ليسـوا كذلك فحسب، وإنما هم من الـرهبان والـراهبات النشيطين في العمل التنصيري في بلـدانهم، أو أنهم جاءوا من بـلاد أخـرى غير بـلاد الخليج المذكـورة، وذلك لتنفيـذ مخططـات محددة، وأهـداف مرسـومة، وخصـوصًا من العراق والأردن، بل إن الكنيسـة قد نـزلت إلى ميدان التربيـة والتعليم، دون مـواراة أو مـداراة، فكما يقول حـارب عنـد حـديثـه عن مدرسة «القديسة مريم» الثانوية الموجودة في دبي :

ويدير المدرسة حاليا الراهب «يوزبيوس دافري»، وهو إيطالي الجنسية، وكان يقوم بـدور «القاصـد الرسولي»، أي ممثل البـابا في الجزيـرة العربيـة، حتى عام ١٩٨٢م، حيث تولى الـراهب «بتسوب بـرنارد جـرمولي» القيـام بمهمة القاصد الرسولي، وتفرغ هو لإدارة المدرسة والعمل التنصيري [١].

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٢٨.

ملامح من مناهج تلك المدارس :

من المعروف أن الـذين يهتمون بـالتربية والتعليم يـركزن اهتمامـاتهم بالـدرجة الأولى على المعلم وعلى المنـاهج، حيث المعلم هـو الأساس في كل مـا يجرى من عمليـات تربـوية وتعليميـة، وحيث هـو المحقق لأهداف المنـاهج الموضوعـة، والمنـاهج التي ارتضـاها الخبراء في التربيـة والتعليم لتحقيق أهـداف المجتمع في أجيالـه الصاعدة، وها نحن قـد رأينا النسبة الغـالبة من معلمي ومعلمات تلك المدارس من الرهبـان والراهبـات الذين نـذروا أنفسهم للعمل التنصيري في بلاد الخليج، فماذا عن المناهج ؟؟

هل تدرس هـذه المدارس الأجنبية منـاهج البلاد الإسـلامية التي استضـافتها وفتحت لها أبوابها، وأعطتهـا من التسهيلات المادية والمعنـوية الشيء الكثير، أم أنها رفضت هذه المناهج، على الـرغم من أنها تدرس لنسب كبرى من أبناء تلك المجتمعات، وأتت بمناهج تخص مجتمعات أخرى غيرنا، بل وأكثر من ذلك أن أجزاء من تلك المناهج تعارض ديننا وتؤثر في عقيدة أبنائنا ؟؟

لعلنا في السطور القادمة نستعرض بعضا من ملامح تلك المناهج، وشيئا من أوجه النشاط المنافية لأهـداف المجتمع وقيمه، خصوصًا ونحن نعلم أن النشاط المدرسي جزء أساسي من المنهج، وأن الطلاب يتأثرون به، ربما أكثر من المقررات الدراسيـة ذاتها. وأكثر من ذلك أن نعلم أن إدارات تلك المدارس خـالفت نظم التعليم ولـوائحـه في بـلاد الخليج، عن قصـد، وحتى حينما نُبهت إلى ذلك لم ترتدع ولم تنفذ ما طُلب منها من جانب المسؤولين عن التعليم.

أولاً :

تقول المعلومات المتجمعة عن هذه المدارس أن مناهجها تخالف مناهج الدول المضيفة لها، فهي «تتلقى منـاهجها من أمـريكا وبريطـانيا وفرنسـا. . . بما فيها

مادة اللغة العربية والتربية الإسلامية (؟؟) التي فرضت بقرار من وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات [1]، وذلك كما هو الحال في مدرسة القديسة مريم الثانوية.

ولا يتصور إنسان أن وضع هذه المدرسة وضع متفرد أو وحيد؛ فالمدارس هناك كلها هكذا، لا تخضع لمنهج بلادنا، ولا تعمل به، وإنما الاستيراد من الخارج، ومن بلاد بعينها هو الأساس، ففي حالة مدرسة «الشويفات الدولية بالشارقة» جيئ بالمناهج من بريطانيا وأمريكا ولبنان وفرنسا [2]. أما مدرسة الشويفات بأبي ظبي فمصادرها من بريطانيا وفرنسا وأمريكا وهونج كونج حيث جيء بالكتب من هناك، بينما صمم المنهج على أساس «البكالوريا العالمية» الموضوعة في «نيويورك» [3]. وتكفي هذه الأمثلة لتعطينا فكرة عن البلاد التي تستورد منها مناهج تلك المدارس. . . وهي كلها تسير على هذا المنوال.

ثانيًا :

مناهج هذه المدارس - جميعًا - لا تعتمد اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، لغة التدريس الأولى بها، وإنما الإنجليزية هي الأساس، وذرًّا للرماد في العيون توضع العربية مع لغات أخرى، مثل الفرنسية والأردو أو الأسبانية والإيطالية ويسمونها لغات تخصص.

ثالثًا :

داخل المنهج توجد مخالفات صريحة لتوجهات المجتمع الذي توجد فيه هذه المدارس، وفيما يلي بعض الأمثلة :

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٢١.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٣٣.

(٣) المصدر السابق، ص ص ٥٣٤ - ٥٣٦.

١ - رفضت مدرسة الشويفات الدولية بالشارقة تدريس اللغة العربية والتربية الإسلامية والاجتماعيات وفقا لمنهج وزارة التربية والتعليم، واكتفت بتدريس مادة التربية الإسلامية واللغة العربية للمسلمين العرب فقط (١).

٢ - كانت المدرسة السابقة تقوم بتدريس كتاب في التاريخ يتناول «قيام دولة إسرائيل»، وقد طلبت الوزارة من المدرسة إلغاء هذا الكتاب، واستبدال كتاب آخر به، إلا أن المدرسة لم تقم بذلك، واكتفت بحذف القسم الذي يتناول هذا الموضوع من المناهج (٢). ومعنى ذلك أن الكتاب بقي بأيدي الطلاب، بما فيه من معلومات عن إسرائيل !!

٣ - يتم الغزو الفكري في هذه المدرسة السابقة - من خلال المناهج الدراسية التي تقدم إلى الطلاب باسم العلمية والبحث العلمي، حيث تقدم هذه المدرسة مناهج مشوهة عن الإسلام، كما حدث في تدريس كتاب «أهل الكهف» تأليف توفيق الحكيم الذي يخالف فيه ما جاء في القرآن الكريم عن قصة أهل الكهف، وقد طلبت وزارة التربية والتعليم إلغاء هذا الكتاب إلا أن المدرسة رفضت ذلك بدعوى أن وزارة الإعلام والثقافة لم تضع هذا الكتاب في قائمة الكتب الممنوعة(٣).

٤ - تستغل المدرسة النشاط المدرسي في تربية الناشئة على معانٍ تربوية مخالفة للإسلام، فبجانب النشاط الرياضي الذي انحرف عن الهدف الأساسي الذي أقيم من أجله، وهو تربية الجسم، نجد أن هذا النشاط قد تحول إلى نوع من الاختلاط المحرم بين الطلبة والطالبات وهم في سن المراهقة، كما أن المدرسة تقوم بتدريب الطلبة والطالبات على الرقص والحفلات الموسيقية المختلطة، وتجري مسابقات بينهم لتحديد الفائز منهم في ذلك (٤).

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٣٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص ص ٥٣٤ - ٥٣٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٥٣٥.

٥ - من الممكن ملاحظة الغزو الفكري لهذه المدرسة - الشويفات الدولية بأبي ظبي - من خلال المناهج التي تقوم بتدريسها للطلبة، وهي مناهج بعيدة عن العقيدة الإسلامية التي هي عقيدة المجتمع الذي تقوم فيه مثل هذه المدارس، فالكتب التي يتم تدريسها في المدارس تتكلم عن بطولات وشخصيات غير إسلامية، مما يرسخ في أذهان الناشئة تمجيدًا واحترامًا لهذه الشخصيات، في حين يتم إغفال البطولات الإسلامية والتاريخ الإسلامي المجيد(١).

ويضرب الباحث عددًا من الأمثلة على ما يدرس في كتب كل صف مما يؤكد مقولته السابقة، وخصوصًا حينما يدرس لأبنائنا عن بطولات «نابليون بونابرت» و «كريستوفر كولمبس» و«ماركو بولو»، و«الكابتن سكوت»، و«الإسكندر الأكبر» . . . بينما رفضت المدرسة لمرات عديدة تغيير مناهجها، أو تدريس التربية الإسلامية واللغة العربية وفقا لمناهج الوزارة، وبنصاب يساوي احتياج الطلاب المسلمين إلى تلك المواد (٢)!!

٦ - تقوم المدرسة السابقة بنشاط لا أخلاقي، حيث تقام حفلات راقصة تقدم فيها الخمور، ويدرس الأطفال أن الخنزير حيوان نظيف وجميل ولحمه طيب !!! ويقول الباحث إنه «نظرا للمخالفات الكثيرة فقد رفضت وزارة التربية والتعليم التصديق على شهادات ووثائق المدرسة، حتى تتراجع عن مخالفاتها وتطبق الأنظمة والقوانين المتبعة في دولة الإمارات العربية المتحدة(٣).

٧ - في مدرسة القديس يوسف بأبي ظبي يمارس الغزو الفكري من خلال النشاط التنصيري الذي يقدم في صورة ثقافية واجتماعية، فمناهج المدرسة قائمة

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٣٧ .

(٢) المرجع السابق، ص ٥٣٨ .

(٣) رسالة وكيل وزارة التربية رقم ت ع/ ٤/ ١٠٣٤٥ إلى مدرسة الشويفات بتاريخ ٤ ذي القعدة ١٤٠٢هـ الموافق ٢٥/ ٨/ ١٩٨٢م، ملف الصادر العام، وزارة التربية، (نقلا عن المصدر السابق) .

على تمجيد النصرانية، وإظهار البلاد النصرانية بمظهر المجتمع المتقدم، مما يعطي صورة للناشئة بأن المجتمع الإسلامي مجتمع متخلف، ففي منهج التاريخ يتحدث كتاب «أوروبا وما بعدها» عن الحضارة الغربية والتقدم العلمي الذي وصلت إليه أوروبا، ومدى تفوقها على العالم، وحين يتعرض للعالم الإسلامي يصفه بأنه مجتمع متخلف تعيش فيه مجموعة من البدو الرعاة!![1].

٨ - ولا زال حديثنا عن أوجه النشاط المختلفة من خلال المنهج، ونصل هنا إلى النشاطات المصاحبة للمنهج أو التي يسميها التربويون Extra Curricular Activities فنجد أن هذه المدارس لا تكتفي بالتأثير على الأطفال في المدارس، وإنما تمد نشاطها خارج صفوف الدراسة.. إلى أولياء الأمور في منازلهم حيث «ترتبط المدرسة بأولياء الأمور ارتباطا وثيقا من خلال الزيارات التي يقوم بها العاملون في المدرسة إلى منازل الطلاب للتعرف على أولياء أمورهم، وربط العلاقات الاجتماعية معهم.

كما أنهم يدعون جميعا إلى المدرسة لقضاء يوم كامل مع العاملين في المدرسة والطلاب، بهدف التعرف على سير الدراسة، ويسمى هذا النظام «اليوم المفتوح»، ويلتقي هؤلاء الأولياء (أولياء الأمور) خلال وجودهم بالمدرسة المقامة في الكنيسة [لعلنا نتنبه نحن المسلمين] بمديرة المدرسة.. الراهبة، وبقية العاملين في المدرسة والكنيسة، كما أن المدرسة تحتفل بالأعياد النصرانية، كعيد الميلاد، وعيد الفصح.. وغيرهما، وهي تعطل ـ للعلم ـ أيام الجمعة.. والأحد .

٩ - وفي مدرسة القديس أنطوني الخاصة يتضمن النشاط حضور قدّاس الأحد الذي يقوم في إحدى الكنائس [ومرة ثانية.. وثالثة.. وألف.. ليتنا

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٤٢.

نتنبه نحن المسلمين]، حيث أن مبنى المدرسة لا يحتـوي على كنيسة؛ لأنه مبنى مؤقت .

ثم لعلنا نسأل أنفسنـا سؤالاً نعتقـد أنه مناسب، وفي مـوضعه : تـرى لو أن إحدى مدارسنا، في بعض بلادنا الإسلامية التي يعيش فيها طائفة من النصارى أصرّت على أن تفعل الشيء نفسه بالنسبة لأطفال هؤلاء النصارى، ترى هل كان أولياء أمـورهم سيقبلون بـه، أم هل كانت الكنيسـة ومن هم وراءهـا سيسكتون عليه؟؟

ومن المملكة العربية السعودية :

نقرأ لبـاحث تعقب المستشرقين البريطانيين، وحـاول أن يقف على آثارهم في تـوجيه السيـاسـة التعليميـة في العالم العـربي، وقـد جعل الجانب التطبيقي من رسالته في دول الخليج العربي، وكان ذلك على شكل رسـالة علمية موثقة حصل بها نـايف بن ثنيان بن محمـد آل سعـود على درجـة الماجستير من قسم الثقافـة الإسلامية بجـامعة الإمام محمد بن سعـود الإسلامية [1]، وقـد اشترك المؤلف في مناقشتها .

هـذا وسـوف نترك الجانب العـام في الـرسـالـة، والمتعلق بـأثـر المستشرقين البريطانيين في توجيه السيـاسة التعليمية في العالم العربي، ونركـز مقتطفاتنا منها على الجانب الذي يتعلق بدول الخليج العـربية التي حددها البـاحث، لأنه هو الجانب الذي يتعلق بدراستنا هذه والمتعلقة بالغزو الثقافي في دول الخليج .

يقول نـايف بن ثنيان إن المنصريـن قد اتخذوا في محاولتهـم غـزو المسلمين عدة وسائل كان من بينها ما يلي :

---

(١) نايف بن ثنيان بـن محمد آل سعود : المستشرقون البريطانيـون وأثرهم في توجيه السيـاسة التعليمية في العالم العربي، مع دراسـة تطبيقية على دول الخليج العربي «دول مجلس التعاون»، رسـالة ماجستير غير منشورة، قسم الثقافة الإسلامية، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٠هـ.

أولاً :

المؤتمرات الفكرية ، وقد اندرج تحتها ما يلي :

١ - تشويه صورة الإسلام .

٢ - تحريف فهم القرآن .

٣ - التعليم الإرسالي ، وهو أقوى الوسائل ، ويستدل على ذلك بما كتبه مصطفى الخالدي وعمر فروخ في مؤلفهما «التبشير والاستعمار في الدول العربية» ، حين نقلا عن شخص يدعى «نبروز» وكان رئيسًا للجامعة الأمريكية في بيروت ، نقلا عنه قوله : لقد أدى البرهان إلى أن التعليم أثمن وسيلة استغلها المبشرون الأمريكيون في سعيهم لتنصير سورية ولبنان (١).

٤ - الصحافة والطبع والنشر.

٥ - مقاومة الأزهر وإضعاف تأثيره .

٦ - إذاعة الدعوات المشبوهة .

٧ - الدعوة إلى الشعوبية والقومية .

٨ - تمزيق الوحدة الإسلامية .

٩ - إثارة الفتن الداخلية والقلاقل والحروب .

١٠ - بناء أكبر عدد من الكنائس والاهتمام بمظهرها .

ثانيًا :

العلاج الطبي :

ثالثًا :

الشؤون الاجتماعية ، وتحتها نجد :

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٣ .

١ - الأعمال الاجتماعية ستار للتنصير.

٢ - استغلال حالات الفقر والحاجة .

٣ - استمالة المسلمين والتحكم بهم .

٤ - التركيز على المرأة المسلمة .

٥ - التقاط أطفال المسلمين بمختلف السبل .

٦ - استدراج المسلمين إلى جمعية الشبان المسيحيين .

٧ - استخدام الرشوة .

ويبين الباحث بوضوح العلاقة الوثيقة التي لا تنفصم بين الثالوث المعادي للإسلام والمسلمين ، والذي يتكون من التنصير والاستشراق والاستعمار، ويضرب لنا مثالا يقول فيه «كان كريستيان ستوك هو جونيه مستشرقًا يعتمد على خبرته العلمية بالشرق ، وقد أبدى استعدادًا للعمل في خدمة الاستعمار، وأقام في مكة نصف عام متخفيا بين المسلمين ، وأنجز كتابًا عن مكة خدمة لمهمته الاستعمارية الهولندية الهندية» [١]. وهكذا نرى جاسوسًا على المسلمين في صورة عالم، ومما لا شك فيه أن مهمته ـ بالدرجة الأولى ـ كانت أن يعرف ما خفي عليه من أحوال التجمع الإسلامي العظيم للمسلمين في مكة المكرمة .

ويقول الباحث إن هؤلاء المنصرين هم على خلاف مع دولهم في الداخل ، ولكن حينما يأتي الأمر إلى ما يتعلق بالمسلمين فإنهم يتوحدون جميعًا ضدنا . . دولاً وأفرادًا ، وذلك أننا «إذا تأملنا العالم الغربي وجدناه ملحدًا لا يؤمن بدين ، وعالمًا ماديًّا لا يعرف للروح معنى : إن أمريكا قد غطت نصف الكرة الأرضية بمنصرين يزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحية وسلام ديني ، وفرنسا دولة علمانية

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٢ .

في بـلادها، ورغم ذلـك نجدهـا الـدولة التي تحمي رجـال الـدين المسيحي في الخارج، وإن اليسـوعيين المطرودين مـن فرنسـا هم خصـوم فرنسـا في الـداخل وأصدقـاؤها الحميمـون في مستعمراتها، وكذلك إيطـاليا التي نـاصبت الكنيسة العداء وحجزت البـابا في الفاتيكان كانت تبني جميع سيـاساتها الاستعمارية على جهود الرهبان والمنصرين.

وكثيرًا ما كـان العسكريون من الإنجليـز - خاصة - يحضون حكـوماتهم على بث المنصرين في العالم، كما نصح الجنـرال «هايغ» الحكومة البريطـانية أن ترسل منصريها إلى شبـه جـزيـرة العـرب. فـالتعـاون بين المنصرين والاستعمار واضح وجلي، فـالاستشراق والتنصير كـلاهما دعـامـة لـلاستعمار، وكـلاهما دعـوة إلى إضعاف القيـم الإسلاميـة، والغض من اللغة العـربية، والـدعوة إلى العـامية، وتقطيع أواصر القربى بين الشعوب الإسلامية [1]، ونجاحهما في رسالتيهما مؤدٍّ - بـلا شك - إلى وقـوع الغزو الثقـافي لـلأمـة الإسـلامية وإلى تمكنـه من أفـرادهـا ومجتمعاتها.

ولا يحتاج إنسان لبيب لشرح الصلة بين الاستعمار والاستشراق والتنصير فهذا الثالوث أضحى واضحًا في أذهان المثقفين من أبنـاء الأمة الإسلامية، وإنما يهمنا بالدرجة الأولى أن نبين - من خلال الأدلة القاطعة - كيف استطاعوا في فترة من فترات تـاريخنا المعـاصر أن يـركبـوا سلاح التعليم، وأن يـدخلـوا بـه إلى بلادنـا كحصان طروادة. وقبل أن نقف على ما فعلوه، من خلال سلاح التعليم، لعلنا نمر سريعًا على إيمانهم العميق بالتعليم سلاحًا لغزو الشعوب.

يقـول «زويمر» على جبـل الزيتـون في القـدس، إبـان الاحتلال الإنجليـزي لفلسطين عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م): **لقد قبضنا أيها الإخـوان، في هذه الحقبة من الدهر، من ثلث القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا، على جميع برامج التعليم في**

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٣.

الممالك الإسلامية. وإنكم أعددتم نشأ في ديـار المسلمين لا يعرف الصلة بالله ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، ومن ثم جـاء النشء الإسـلامي طبقـا لما أراده الاستعمار المسيحي، لا يهتم بـالعظـائم، ويحب الـراحــة والكسل، ولا يعـرف همة في دنيـاه إلا في الشهــوات، فإذا تعلم فللشهـوات، وإذا جمع المال فللشهــوات، وإن تبـوأ أسمى المراكــز ففي سبيل الشهوات، يجود بكل شيء»[1]. هكذا نقل «نايف بن ثنيان» عن «علي جريشة» و«محمــد شريف الـزيبق»، في مــرجعهما: أسـاليب الغــزو الفكـري للعــالم الإسلامي.

كذلك نقرأ لـ «هاملتون جب» في أحد تقاريره «إن إدخـال طرائق جديدة في البلاد الإسـلامية كـان سيتطلب نظـامًا جديـدًا في التربية مـن عهد الطفـولة في المدارس الابتـدائية والثـانـوية قبل الانتقـال للدراسـات العـالية، وإن إصـلاح التعليم على هذا النحو لـم يكن في ذلك الـوقت يخطر على بال السلطات المدنية الإسلاميـة، ولكن هذا الفـراغ ملأتـه هيئات أخـرى، فقد انتشرت في منتصف القـرن التاسع عشر شبكـة واسعة من المدارس في معظم البـلاد الإسلاميـة، ولا سيما في تـركيا وسـوريا ومصر، وذلك يـرجع غـالبًا إلى جهـود جمعيات تبشيريـة مسيحية مختلفة... هذه المدارس صاغت أخـلاق التلاميذ، وكونت أذواقهم، والأهم أنها علمتهم اللغــات الأوروبيـة التي جعلت التــلاميـذ قـادرين على الاتصـال المبـاشر بالفكــر الأوروبــي، فصـاروا في سبيل حياتهم مستعديــن للتأثــر بالمؤثـرات التي فعلت فعلها أيــام الطفولـة (أي التعليم على الطريقــة المسيحيــة)[2].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢٩.

وبمنتهى الصراحة والوضوح تعترف إحدى المنصرات التي عملت في مصر (أنا مليجان) قائلة عن خطورة التعليم «ليس ثمة طريقة إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة. إن المدرسة أقوى قوة لجعل الناشئين تحت تأثير الدين المسيحي، هذا التأثير يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما قادة أوطانهم» (١).

ولا يحتاج القارئ المسلم الواعي لكثير من إجهاد الذهن لفهم ذلك، إذ يكفيه - فقط - أن يجيل بصره في عالمنا الإسلامي ليرى بعض (القادة) الذين نشّئوا في تلك الحقبة على أيدي مدرسي تلك المدارس، وكيف أنهم يطبقون في بلاد المسلمين هذه الأيام أمورًا لم يستطعها المستعمر الأجنبي حين كان متمكنًا من مقدرات بلادنا، وذلك من حيث تعطيل العمل بالشريعة الإسلامية، وعدم تطبيق أحكام الله في الأرض، مع أنهم يقرأون صباح مساء في قرآنه الكريم: ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾، ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾، ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾...

كما أن العالم الغربي ـ معقل النصرانية ـ لا شك سعيد وهو يرى كثيرًا من هؤلاء الحكام وهم ـ بجانب تعطيلهم لأحكام الشريعة ـ يقيمون حكومات علمانية، وأنظمة تخدم الآخرين ولا تخدم أمتهم الإسلامية.

أساليب الغزو الفكري لتشويه الشريعة الإسلامية:

يلاحظ الباحث أن للغزو الفكري أساليب معينة.اتبعها أصحابه في غزو عالمنا الإسلامي، ويمكن تلخيص بعض هذه الأساليب فيما يلي:

---

(١) المرجع السابق.

١ - محاولات الطعن في المصادر الإسلامية، فكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وشخصية الرسول الكريم، عليه الصلاة والسلام، لم تسلم من محاولات التشويه المتعمد من الحاقدين، أو التشويه العفوي من الجاهلين من المستشرقين، ثم من تبعهم من تلاميذهم.

٢ - وكذلك محاولاتهم لتشويه اللغة العربية، فهاجموها في قواعدها، ودعوا للكتابة بالعامية بدلا من الفصحى، وذكروا أن التزام الكتابة بالعربية «الكلاسيكية» القديمة لا يمكن أن يؤدي إلى أدب حقيقي أو متطور، وأرادوا أن يحصروا اللغة العربية الفصحى في دائرة الطقوس تشبها بما عندهم.

٣ - أما الفقه الإسلامي فقد وصفوه بالقسوة في الأحكام، كما خلطوا بين المصادر الربانية (الكتاب والسنة) والعمل البشري (الاجتهاد).

٤ - ومن هذه الأساليب الضغوط النفسية والفكرية والمادية والتعليمية والطبية التي يمارسها دعاة الغزو الفكري لتحقيق أهدافهم في إيجاد روح التخاذل والقهر النفسي الذي يقتضي استمرار خضوع المسلم للغربيين.

٥ - تأسيس المستشفيات والمؤسسات الخيرية، وتأسيس المدارس والمعاهد، وهذه المؤسسات في ظاهرها خدمات طبية وتعليمية، ولكن من خلالها تبث السموم بين من يرتاد هذه القطاعات بمحاولة تشويه الشريعة الإسلامية والدعوة إلى مبادئ وأفكار أخرى لا تتفق وواقع المسلمين ودينهم.

٦ - السيطرة على وسائل الإعلام في العالم، وتسخيرها لخدمة أهدافهم ومعتقداتهم الفاسدة، لمحاربة الإسلام وأهله، وإصدار المجلات والصحف والكتيبات المليئة بالمزاعم الباطلة عن الإسلام، والمسلمين، والتغلغل السياسي والاقتصادي في بعض أوطان العالم الإسلامي [1].

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٣٧٤ - ٣٧٥.

ونود أن نذكر القارئ الكريم بأساليب أتباع هؤلاء الغزاة في عالمنا الإسلامي والذين لا يزالون يعيشون بيننا حتى اليوم، فلقد حاول نفر منهم أن يشوّه صورة الجهاد الأفغاني بأساليب ملتوية، وقد اعتمدوا في ذلك على بعض الخلافات التي وقعت بين فصائل المجاهدين، وكأنهم يريدون للعالم الإسلامي أن يبتعد عن تأييد المجاهدين الذين وقفوا في وجه الموجة الشيوعية الكافرة التي كانت تخطط لأبعد من احتلال أفغانستان.

كذلك فإن بعضهم يحاول من خلال الكتابة في الصحف، أن يفت في عضد المسلمين الذين يحاولون مناصرة إخوانهم في العقيدة في «البوسنة والهرسك» والذين وقفوا - ولا يزالون يقفون - في وجه النصرانية الرهيبة التي يؤيدها الغرب كله، ومن ورائه الكنيسة، خصوصًا وقد سيطروا على مداخل ومخارج بلاد المسلمين فلم يسمحوا لمسلمي «البوسنة والهرسك» بالتسلح حتى يدافعوا عن أنفسهم، وقد خرج نفر من هؤلاء - دعاة الغزو الفكري - ليكتبوا لنا عن السرقات التي تحدث لأموال الذين يتبرعون لقضية البوسنة والهرسك، وهذا وضع خطير؛ لأنهم بطريقة أو بأخرى يعملون على التشكيك في جميع العاملين في المجالات الإسلامية، ومن ثم يشككون المتبرعين في جدوى إرسال مساعداتهم إلى هناك.

وحتى لو افترضنا أن هناك نفرًا من الناس انحرفوا عن جادة الصواب وتنكبوا الطريق وسمحوا لأنفسهم بالاتجار في بعض أموال التبرعات هل معنى ذلك أن جميع العاملين في المجال الإسلامي هم كذلك، ثم هل هناك مجتمع صافٍ نقي يخلو من المنحرفين أو من المستغلين ؟؟ إننا يجب أن نسأل أنفسنا عن نسبة من نتحدث عنهم، كما يجب أن نتقي الله في إخوان لنا يجاهدون بأنفسهم التي باعوها لله، ولا ينبغي علينا أن نسير خلف كل ناعق يقول بفكرة، أو يطرح رأيًا يهدف من ورائه إلى التشكيك فيمن يقومون بجهود مشكورة في العمل الإسلامي.

وعن دول الخليج :

يقول الباحث الخليجي «لقد قام الاستعمار بمحاولات شتى للسيطرة على التعليم ومناهجه، فكان يسير جميع الأمور التي تعملها الدولة من أجل التعليم ليكون على بينة من الأمر ساعيا بشتى الطرق من أجل أن يتواكب التعليم مع أهدافه ومخططاته.

فعندما بدأت شعوب منطقة الخليج العربي تطمح إلى الازدياد من العلم والمعرفة مع أوائل القرن العشرين الميلادي، بتأسيس مدارس حديثة، تسير وفق مناهج وأسس متطورة تنمي في الشباب حب الله ثم الوطن وإيجاد الشعور الوطني لدى الشباب، مما يترتب عليه وجود تيارات سياسية تهدد الوجود الاستعماري في المنطقة، عمد المستعمر في سياسته الرامية إلى السيطرة على التعليم بوضع مستشارين للتعليم في دول المنطقة حينما استشعر خطر العلم في المنطقة على الوجود البريطاني.

لقد عين «أدريان فالنسي» مستشارًا للتعليم في دولة البحرين، ثم عين بعده «جيمس وكلن» مستشارًا للتعليم في البحرين أيضا، وكذلك في دولة الكويت، على أن تكون إقامته في البحرين» [١].

ويبين لنا الكاتب، من خلال عدد من الأمثلة الحية، كيف أن الإنجليز كانوا يتخوفون من أي نشاط يقوم به في مجال التعليم أي أفراد لا يخضعون لهم، ولا يتبعون سياستهم، لدرجة أنهم كانوا يطالبون بإلغاء عقود أشخاص بعينهم حتى تظل سياستهم التعليمية هي الوحيدة في الميدان [٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٩٩.

وليست القضية فقط قضية المعلمين العرب الـذين يدرسون في الخليج الذين يخشى المستعمرون البريطـانيون تأثيرهم على طـلاب الخليج، ولكن حتى ذهاب بعض طـلاب الخليج للـدراسة في بعض البـلاد العـربيـة كان مقلقـا لهم ومثيرا لهواجسهم. ولنقرأ :

«وكـان هنـاك مـوقف آخـر أزعج الإنجليـز وأقلقهم وبـرهن على رغبتهم في الهيمنة على المنطقة وجميع أمورها الخارجية، حينما سافر «عبد اللطيف الشملان» إلى القاهرة عندمـا كان مدير المعارف الكويتيـة، للتعاقد مع مدرسين مصريين. وأثمرت الرحلة عن التعاقد مع أربعة مدرسين مصريين تتحمل الحكومة المصرية نصف مـرتبـاتهم وتعـادل (١٢) جنيهـا مصريـا (في الشهـر طبعـا). كما أبلغ «الشمـلان» أن الحكـومـة المصريـة على استعـداد أن تستقبل بعثـة من طـلاب الكويت للدراسة في مصر، وأن تتكفل بجميع نفقاتهم الدراسية والمعيشية، وقد حدد العدد بـ(١٥) طالبا.

مجرد أربعة من المعلمين يأتون من مصر للتـدريس في الكويت، وخمسة عشر طالبا يـذهبون من الكويت للدراسة في مصر، مجرد هـذا تحسب له السلطات في الإمبراطورية البريطانية ألف حساب، تقيم الدنيا وتقعدها، لأنها تريد للخليج أن يظل تحت سيطرتها، وأن يظل بعيـدًا عن قلب العالم العـربي، مصر آنذاك، وقـد كـانت تفـور بتيـارات عنيفــة ضــد الاستعمار والمستعمـرين، فماذا فعــل الإنجليز ؟؟يقول نايف بن ثنيان آل سعود :

«جميع هذه الأمور حدثت دون علـم الإنجليز أو الاتصـال بهم مما أثار بالتالي حفيظة الإنجليز، وأدى في النهـاية إلى إقصاء «الشملان» من مديـرية المعارف. يقـول صالـح الشهاب «تـركت زيـارة المرحوم عبـد اللطيف الشمـلان إلى مصر ١٣٦١ - ١٣٦٢هـ (١٩٤٢ - ١٩٤٣م) ردود فعل عنيفة من قبل الإنجليـز، وكيف أنـه أجرى هذه الاتصـالات المهمة بـرجالات التربيـة والتعليم، وبحكم

علاقاته الشخصية معهم استطاع أن يحصل على مثل هذه الامتيازات، دون الرجوع إليهم وبدون علمهم، وهذا يعد مخالفة أن يتم اتصال خارجي مع دولة دون علم المعتمد البريطاني في الكويت أو في القاهرة [قمة السيطرة والتحكم. . ! !] إذ إنه من المتعارف عليه أن سفارات صاحب الجلالة ملك بريطانيا في جميع أنحاء العالم هي الممثلة. . والمسؤولة عن كل اتفاق أو اتصال تقوم به الكويت مع أية دولة أخرى، فاعتبر هذا التصرف الذي قام به المرحوم «عبد اللطيف الشملان» لزيارة مصر ما هو إلا تحدٍّ واعتداء على صلاحياتهم ونفوذهم في المنطقة، الأمر الذي طالبوا بعزله من إدارة المعارف، وأكثر من هذا، كما روى الشيخ «عبد الله الجابر الصباح» (*) في مقابلة تليفزيونية أن المعتمد البريطاني في الكويت قد طلب إبعاده من البلاد [1].

ومن المفيد أن نكمل هذه الصورة إلى نهايتها ففيها فائدة ونفع عظيم في فهم السيطرة التي كانت سائدة ذات يوم على بعض دول المنطقة :

«وعلى ما يظهر أنهم قد عادوا إلى تقاريرهم وسجلاتهم التي كانوا يدونون بها كل شاردة وواردة عن نشاطات الأفراد والجماعات من رجالات الخليج، فوجدوا أن التقارير التي سبق أن كتبت عن المرحوم «عبد اللطيف الشملان» في البحرين، قبل مغادرته إلى مصر، أنها كانت حافلة بجليل الأعمال والمواقف المشرفة، إلا أنها في نظرهم أعمال تناصب الإنجليز العداء، ولا تتفق مع سياستهم التعليمية. . . هذه التقارير جعلت الإنجليز ينظرون إليه نظرة الريب والشكوك، **فبدأوا بمحاولة الضغط على سمو أمير الكويت بقبول تعيين «جيمس وكلن» مستشاراً لمعارف الكويت، بالإضافة إلى عمله كمدير معارف**

(*) عبد الله الجابر الصباح : رئيس مجلس المعارف عام ١٣٥٥هـ. له دور كبير في مسيرة التعليم في الكويت. اتصف بالبشاشة ورحابة الصدر، ومعالجة الأمور بالحكمة والروية.

(١) المرجع السابق، ص ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

للبحرين، وقد عرض الأمر على مجلس المعارف الذي تردد بقبول الفكرة، إلا أنه مع الظروف السائدة آنذاك في منطقة الخليج اضطر مجلس المعارف أن يقبلها على مضض»(١).

ولقد يضحك القارئ العربي الآن حين يقرأ الخطاب الرسمي التالي، أو على الأقل قد يرفع حاجبيه دهشة لأمور قد يعدها يسيرة، بينما كانت السلطات البريطانية منذ خمسين عاما - تعدها ذات أثر بالغ الخطورة يستحق أن يصعّد إلى أعلى مستوى . . . ولنقرأ :

«رسالة مستعجلة» :

من مكتب المقيم السياسي في الخليج « بريور Prior » .

البحرين ٢٤ ديسمبر ١٩٤٢م .

إلى كل من سفير جلالة ملك بريطانيا - القاهرة .

سكرتير الشؤون الخارجية في حكومة الهند (نيودلهي) .

سفير جلالة ملك بريطانيا - بغداد .

المعتمد البريطاني لدى الكويت .

سكرتير دولة الهند (المكتب الهندي) لندن .

وصلني من السيد المعتمد البريطاني لدى الكويت أن دائرة التعليم هناك تعاقدت مع أربعة من المدرسين المصريين للتدريس في مدارس الكويت . وتم ذلك عن طريق دائرة التعليم في مصر، دون الرجوع إلى المعتمد البريطاني في الكويت . وعلى ما يبدو أن الحكومة المصرية قد ساهمت بنصف مرتبات المدرسين . وقد وصفوا أنفسهم بـ (البعثة المصرية) وقد أبدى (جيمس وكلن)

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠١ .

- بصفتـه ممثلا عن الجمعيـة البريطانيـة ومستشارًا للتعليم في كل من البحـرين والكـويت - بأن انضمام هؤلاء المدرسين إلى هيئـة التدريس في الكـويت ذو نفع عظيم.

وأود أن تتحـروا لي بكل دقـة ووضـوح : ما الـدوافع وراء تصرف الحكـومـة المصرية في هذا الموضوع ؟ وهل هناك مغـزى سياسي وأهداف خافية وراء ذلك؟ فكما تعلمون بأن العـراق هي الأخرى كانت دائما وأبـدا تسعى إلى تشجيع الطلبة الكويتيين وإغـرائهم للدراسـة في مدارسها بـالمجان، ولا يستبعـد أن يكون وراء هذا أمور ودوافع خفية(١).

ولا يحتـاج الخطاب الـرسمي لتعليق. . فكلماتـه تكفي لتبين تخوف حكومـة بـريطـانيـا (العظمى) آنـذاك، مما يحدثـه التعليم من تغيرات في عقـول النـاس وشخصيـاتهم في الخليج، وما قـد ينتج عن هـذا التغير من أزمات قـد تقع بين المحتلين المهيمنين وبين سكان منطقة الخليج العربي.

مناهج التعليم في الخليج .. وهدف المنصرين :

لم يكن تعليم أبناء الخليج - في نفسه - هدفًا من أهـداف الغرباء الذين تركوا بلادهم وجاءوا إلى هذه المنطقة من العـالم على وجه الخصوص. لقد كان عندهم هدف واضـح وهو محاولة إخـراج طائفـة من أبناء الخليج اليـافعين عن دينهم، هكـذا تقول مخططـاتهم التعليميـة بكل صراحـة ووضوح، ودون لف أو محاولـة إخفاء للهدف.

ففي البحرين بدأت الخدمـة التعليمية للإرسالية العربية الأمـريكية في الوقت الذي بدأت فيه الخدمة الطبيـة، وكانت أول مدرسة للتعليم الحديث على النظام

---

(١) المرجع السابق ٤٠٢

الغربي قد أنشئت هناك . . والتي افتتحها المنصر المعروف «زويمر Zwemer»، ولقد كانت هي المدرسة الأولى من نوعها في منطقة الخليج العربي .

وكان المنهج التعليمي يتألف من : الكتاب المقدس [وليس القرآن الكريم . . !!] والحساب، واللغة العربية . وقد تحدث (أحمد إبراهيم أحمد) أقدم تلاميذ الإرسالية في البحرين حول طبيعة الدراسة في تلك المدرسة فقال : لقد كانت الدراسة اليومية تبدأ عادة بالصلاة المسيحية وقراءة الإنجيل !!

كذلك تطورت مدرسة الإرسالية للبنات . . . واشتمل المنهج على الكتاب المقدس، وكانت تديرها زوجة زويمر، وفي عام ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م انتقلت إلى أملاك الإرسالية ، وشغلت حجرتين من الطابق الأرضي في مبنى الكنيسة . . . وكان المنصرون يؤكدون على توجيه البنات نحو الإيمان المسيحي ، كما نقل الباحث عن عبد الملك التميمي [١] .

وفي عام ١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٩م افتتح نادٍ للبنات في المدرسة ، وأصبح جهاز هيئة التدريس يتألف من المنصرات المسئولات وإحدى المدرسات المحليات ، يساعدهن المنصرون من الرجال في دروس الكتاب المقدس .

ويذكر أحد تقارير الإرسالية عن هذه المدرسة التنصيرية أن بعض التلاميذ استمر في المدرسة مدة طويلة ، وأن نفور التلاميذ من التعليم المسيحي يضعف كلما طالت مدة بقائهم في المدرسة ، وأن المعارضة الشديدة تأتي من التلاميذ الجدد . إن تفسير ما جاء في هذا التقرير يدل بوضوح على أن جهودًا كانت تبذل في المدرسة للتأثير دينيا على هؤلاء التلاميذ .

وفي مقابلة مع «يوسف حيدر» ، مدير مستشفى الإرسالية في البحرين عام ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م (أي منذ عشرين عامًا فقط) ذكر أنه يوجد في مدارس

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٢٨ .

الإرسالية حوالي ٤٥٠ تلميذا وتلميذة، وأن مناهجها هي مناهج المدارس الحكومية نفسها، فيما عدا الدروس الإضافية في الدين المسيحي (*)(١).

وفي «مسقط» امتد نشاط المنصر «زويمر» كذلك؛ حيث افتتح هناك مدرسة أخرى هي «مدرسة الرقيق المحرر» وقد أسميت هكذا لأنها أسست - في البداية - لتعليم أطفال العبيد ورعايتهم من أجل تحويلهم إلى الدين المسيحي. ويهمنا هنا أن نركز على جانب المنهج فيها، حيث نجد أن «الكتاب المقدس» كان من أهم موضوعات الدراسة الرئيسة فيها. وأخطر من ذلك كان النشاط التنصيري المصاحب للمنهج حيث كانت الدراسة «تبدأ وتنتهي بتلاوة من الإنجيل والصلاة، كما كان الأولاد يؤخذون إلى الكنيسة بين الحين والحين.. وكانت البنات يتعلمن اللغة العربية واللغة الإنجليزية والكتاب المقدس، والخياطة»(٢).

وفي «الكويت» كان أحد المنصرين الذين يتولون عملية التعليم، ويدعى «كالفرلي»، كان يأخذ الأولاد أسبوعيا إلى الصلاة يوم الأحد في الكنيسة، كما كان يعلمهم الدين المسيحي، ويعطي كلا منهم نسخة من الكتاب المقدس باللغة العربية ليأخذها معه إلى والديه.. في المنزل..!! كما أن الإرسالية التنصيرية افتتحت مكتبة في السوق الرئيسي بالكويت لبيع الكتاب المقدس، وكتب دينية أخرى (*).

(*) هذا ويذكر الباحث أن حكومة البحرين تنبهت لهذا النشاط التنصيري الواضح، وأنها طلبت من إدارة تلك المدارس عدم حضور الطلاب المسلمين لدروس الدين المسيحي، كما يذكر أن هذا النشاط المسيحي الصريح كان من العوامل التي شجعت على التربية الإسلامية وعلى التعليم الحديث في المنطقة كرد فعل معاكس لذلك النشاط.

(١) المرجع السابق، ص ص ٤٢٩ - ٤٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(*) هذا ولقد لقي هذا النشاط التنصيري الواضح معارضة شديدة من المشايخ بتأويلة واسعة من الوعظ في المساجد، وفي لقاءاتهم مع الناس.

وبعـد..

فنكتفي بهذا القـدر من النشـاط التنصيري في مجال التربية والتعليم، والـذي يمثل بعـدا خطيرا من أبعاد الغـزو الثقـافي في الخليج، ولن نتحدث عن نشـاط الإرساليات الأجنبية ودورها الخطير في هذا المجال، فهذه هي طبيعة عملها التي ينبغي على كل مسلم واع أن يعيها جيـدا، ولكنا نعـرف أن هـذه الإرساليـات تعتمد أنواعًـا معينة من النشاط الهادف، وخصوصًا في مجال إقـامة المستشفيات والمستوصفات، بجانب بناء المكتبـات، وتوزيع الكتب. . حتى بالمجان، وهي بـالقطع خلف بنـاء وإدارة الكثير مـن المدارس الأجنبيـة، بل إن بعض هــذه الإرسـاليـات تخصصت في طبـاعـة كتب عن الإسـلام القصـد منهـا تشـويهه، وتـزييف حقائقــه، ومن ثـم إربـاك عقــول المسلمين الغــافلين، وبخــاصة الناشئة منهم.

هذا وقـد رصد البـاحثان الخليجيـان المسلمان الواعيـان، حفظهما الله، عددًا هائلا من الإرسـاليات والكنائس التي تحاول جهـودها ـ مـا استطـاعت ـ إيجاد مـوطئ قــدم لها في عقـول ونفـوس وأرواح وشخصيـات أبنــاء الخليج، علهم يبعدونهم عن الدين الإسلامي الحنيف، ولكن الأمل دومًا يبقى في الله تعالى أولاً وأخيرًا، ثم في يقظــة أبناء هـذه الأمـة، وفي صحوتهم الإسـلاميـة المباركـة التي سـوف تضيع على هــؤلاء الأعـداء وعلى غيرهم الفرصـة التي يبتغـونها، وسوف تـربك خططهم، وتــذروها مع الريــاح، بفـضل الله جـل وعـلا، فهـو من ورائهم محيط.

تنويه واجب:

قبل أن نختتم هذه الـدراسة ينبغي النص على أنه في بحث كهـذا لا ينتظر أن نمس كل مظاهـر الغزو الثقافي في منطقة حساسـة وخطيرة، مثل منطقة الخليج العـربي، حيث هنـاك التليفـزيـون والفيـديـو والبث المبـاشر الـذي تستقبلـه

والأطباق Dishs والـراديو والسفـر للخارج والعمالـة الأجنبية . . . إلخ . وهـذه كلها ، وغيرهـا كثير، يمكن أن تكـون موضـوعات لـدراسات متعمقـة لباحثين جادين ، ذوي رسـالة جادة لخدمـة أمتهم وللدفاع عنهـا ، وحسبنا أننا حـاولنا جهدنـا أن نبين جزءًا ، ولو يسيرًا منهـا . ونرجو أن يكـون الله سبحانه وتعـالى قد وفقنا فيه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وهو الهادي إلى سواء السبيل سبحانه .

مراجــع الدراســة

أولاً : البحوث العلمية :

١ - أحمد صدقي الدجاني : الفكر الغربي والتغيير في المجتمع العربي، المستقبل العربي، العدد ٦٩ نوفمبر ١٩٨٤م.

٢ - أحمد مصطفى أبو زيد : التحدي الثقافي، ضمن بحوث الندوة الفكرية الرابعة لرؤساء الجامعات الخليجية، الدوحة - قطر، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ربيع الأول ١٤١٠هـ.

٣ - حنفي بن عيسى : الثقافة العربية في معركة المصير. . خطر الغزو الثقافي، ضمن بحوث الخطة الشاملة للثقافة العربية، المجلد الثالث، الكويت.

٤ - سعيد عبد الله حارب : الغزو الفكري في الخليج العربي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

٥ - شاكر مصطفى : التخطيط الثقافي في دول مجلس التعاون، مجلة التعاون، العدد ٤، ١٤٠٧هـ.

٦ - صدقة يحيى فاضل : الأهمية العالمية المعاصرة للخليج ودول مجلس التعاون، مجلة التعاون، العدد ٥، ١٤٠٧هـ.

٧ - عبد الله العمر : التواصل الثقافي بين دول مجلس التعاون. . الواقع والمطلوب، مجلة التعاون، العدد ٣، شوال ١٤٠٦هـ.

٨ - عبد العزيز الجلال : خطة التنمية الثقافية لدول مجلس التعاون. . مشروع مقترح ومفاهيم مختلفة، مجلة التعاون، العدد ٦، شعبان ١٤٠٧هـ.

٩ - عبد الكريم غلاب : التعريب ودوره في حركات التحرر في المغرب العربي، المستقبل العربي، العدد ٣٦، فبراير ١٩٨٢م.

١٠ - عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن بحوث مؤتمر الفقة الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٣٩٦هـ.

١١ - عبد الستار فتح الله سعيد : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن بحوث المؤتمر السابق.

١٢ - عبد الله بن عبد المحسن التركي : تحديد مفهوم الغزو الثقافي، ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر، بجاية - الجزائر، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٣ - علي عبد الحليم محمود : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، ضمن بحوث مؤتمر الفقه الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٣٩٦هـ.

١٤ - محمد عباس إبراهيم : الأبعاد الاجتماعية والثقافية للتنمية الحضرية في مجتمعات الخليج العربي، مجلة التعاون، العدد الأول، ١٤٠٦هـ.

١٥ - محمد عبد العليم مرسي : أثر التغيرات والعوامل الاجتماعية والاقتصادية في تحديد مكانة المعلم في دول الخليج العربية، مجلة التعاون، العدد ١١، ١٤٠٨هـ.

١٦ - محمد عبد العليم مرسي : دور التعليم العالي في تنمية دول الخليج العربي، مجلة مركز البحوث، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الأول، ١٤٠٣هـ.

١٧ - محمد عبد العليم مرسي : ترشيد جهود أعضاء هيئات التدريس في مجال البحث العلمي في دول الخليج العربية، ضمن بحوث الندوة الفكرية الثانية لرؤساء الجامعات الخليجية، جدة، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤٠٥هـ.

١٨ - محمد عبد العليم مرسي : دور التربية في مواجهة الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على كهربة الريف في جمهورية مصر العربية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٥م.

١٩ - محمد الرميحي : واقع الثقافة ومستقبلها في أقطار الخليج العربي، المستقبل العربي، العدد ٤٩، مارس ١٩٨٣م.

٢٠ - محمد الرميحي : الإبداع الثقافي ومعوقاته في أقطار مجلس التعاون، مجلة التعاون، العدد الأول، ١٤٠٦هـ.

٢١ - محمود أمين العالم : الغزو الثقافي والتخطيط المستقبلي للثقافة العربية، ضمن بحوث الخطة الشاملة للثقافة العربية، مرجع سابق.

٢٢ - نايف بن ثنيان آل سعود : المستشرقون البريطانيون وأثرهم في توجيه السياسة التعليمية في العالم العربي، مع دراسة تطبيقية على دول الخليج العربي «دول مجلس التعاون»، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٠هـ.

٢٣ - سعيد عبد الله حارب المهيدي : الغزو الفكري في الخليج العربي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

ثانيًا : الكتب :

١ - الخطة الشاملة للثقافة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المجلد الأول، الكويت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

٢ - حسان محمد حسان : وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ.

٣ - زكي محمد إسماعيل : الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي، عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٢هـ.

٤ - سعد مرسي أحمد، سعيد إسماعيل علي : تاريخ التربية والتعليم، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٨م.

٥ - عبد الحليم عويس : ثقافة المسلم في وجه التيارات المعاصرة، النادي الأدبي، الرياض، ١٣٩٩هـ.

٦ - عبد الغني عبود : الحضارة الإسلامية والحضارة المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١م.

٧ - عبد المنعم الصاوي : عن الثقافة، دار العلم، (بدون مكان نشر)، ١٩٦٦م.

٨ - علي عبد الحليم محمود : الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، دار البحوث العلمية، الكويت، بدون تاريخ.

٩ - علي خليل مصطفى أبو العينين : أصول الفكر التربوي الحديث بين الاتجاه الإسلامي والاتجاه التغريبي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٠٦هـ.

١٠ - علي خليل مصطفى أبو العينين : القيم الإسلامية والتربية، مكتبة إبراهيم الحلبي، المدينة المنورة، ١٤٠٨هـ.

١١ - فاروق مصطفى إسماعيل : الأنثروبولوجيا الثقافية، (بدون دار نشر)، الدوحة، ١٩٨٦م.

١٢ - فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.

١٣ - فؤاد البهي السيد : علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٤م.

١٤ - ماجد عرسان الكيلاني : هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

١٥ - محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر، الدار العلمية، بيروت، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

١٦ - محمد عبد العليم مرسي : أفغانستان المجاهدة أمانة في أعناق المسلمين، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٠هـ.

١٧ - محمد عبد العليم مرسي : التربية وكارثة غزو الكويت، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١٢هـ.

١٨ - محمد عبد العليم مرسي (مترجم) : التربية في اليابان المعاصرة، تأليف إدوارد ر. بوشامب، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٧هـ.

١٩ - محمد عبد العليم مرسي : البحث العلمي عند المسلمين بين ميسّرات الماضي ومعوقات الحاضر، عالم الكتب، الرياض، ١٤١٠هـ.

٢٠ - محمد عبد العليم مرسي : التغريب في التعليم في العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٢١ - محمد عبد العليم مرسي : ميسّرات البحث العلمي عند المسلمين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١١هـ.

٢٢ - محمد عبد العليم مرسي : غزو الكويت كارثة المسلمين الجديدة، عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.

٢٣ - محمد عبد العليم مرسي : علماء الأمة الإسلامية يواجهون صدام حسين، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١١هـ.

٢٤ - محمد عبد العليم مرسي : قدسية الحرمين الشريفين والتضامن الإسلامي، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١٢هـ.

٢٥ - محمد الرميحي : الخليج ليس نفطا، دراسة في إشكالية التنمية والوحدة، شركة كاظمة، الكويت، ١٩٨٣م.

٢٦ - محمود قمبر وآخران : دراسات في أصول التربية، دار الثقافة، الدوحة، ١٤٠٩هـ.

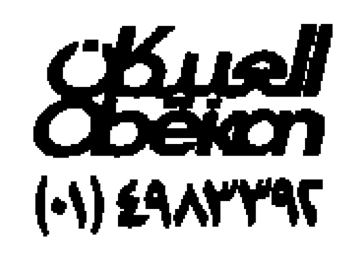
٢٧ - منير الموسى سرحان : في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، بيروت، ط ٣، ١٩٨١م.

٢٨ - يوسف القرضاوي : الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

ثالثاً : الكتب الأجنبية :

1 - Shintaro Ishihara : The Japan That Can Say NO Translated by : Frank Boldwin, Simon Schuster, N.Y. London, Tokyo, 1991.

2 - The World Almanac δ Book of Facts 1994. Edited by Robert Famighetti, Publisher : Richard W. Eugen, New Jersey, U.S.A., 1994.


العبيكان
obeikan
(٠١) ٤٩٨٣٣٩٢

هذا الكتاب

يتعرض لقضية مهمة، بل خطيرة، من قضايا الساعة في دول الخليج العربية، وهي قضية «الثقافة.. والغزو الثقافي» في تلك الدول ذات الموقع الحساس، والوضع الأكثر حساسية في عالم اليوم... فموضوعاته التي عالجها شائعة.. وشائكة في الوقت نفسه..!!

الكثيرون يتحدثون عن الثقافة دون أن يعرفوا أصل المصطلح ولا معناه، والكتاب يبين ذلك ويجليه. وعناصر الثقافة.. مادية وغير مادية، قد تغيب عن البعض مع خصائصها ومكوناتها ووظائفها، وقد حاول المؤلف تبيان ذلك وتوضيحه قدر المستطاع.

ومن العام إلى الخاص يأخذ الكاتب بيد القارئ في يسر وسهولة من الثقافة بمعناها العام إلى الثقافة في الخليج، من حيث إن منطقة الخليج لها وضع خاص في عالم اليوم، ولها واقع تتفرد به، واقع معنوي، وآخر مادي، ولا أحد يجهل أبعاد هذين الواقعين الآن، بل إن التعامل مع المنطقة وأهلها يتم بناء عليهما، كما أن السياسات في الخارج ترسم على هذا الأساس، وليتنا في الخليج نتنبه لذلك ونفكر فيه وفي نتائجه وأبعاده.

أما «الغزو الثقافي» الذي ينكره البعض، أو يخدعون أنفسهم بنكرانه، وهم يمنّون النفس بأنه أوهام أو بنات أفكار لبعض الكتّاب والمفكرين، فهو هنا في هذا الكتاب واقع مرصود، وممارسات علمية دليلها قائم في صفحات هذا الكتاب، وقد وثقت من مصادر علمية لا يرقى إليها الشك، وهي تعمل عملها في نفوس وشخصيات ط... لا يستهان بها من أبناء الخليج، خصوصًا في سني عمرهم الباك... مراحل التعليم المختلفة، وليس هناك ما هو أخطر من التربية في... الأفراد والأمم والشعوب، ومن هنا كان تركيز من هم وراء الغزو ال... على ذلك الجانب الحساس والخطير في بعض بلاد الخليج العرب... والكتاب يتعامل مع كل ذلك بصراحة ووضوح وعلمية.

الن...

ردمك: ٣-١٣٣-٢٠-٩٩٦٠